مؤسسة صدى المهجر الثقافية
Sada Al-Mahjar Foundation

زنزانة بلا جدران

مختارات من الأدب العربي المكتوب داخل السجون



تقديم وتحقيق

لطفي حداد

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

ISBN: 978-614-02-0452-2

لطفي حداد Email: lhadadrc@aol.com

توزيع

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (1-961) 785107 - 785108 - 860138

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (1-961) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تمت الطباعة في:

"السر الكامن في القلب - لن يكون موعظة جوفاء!
قد تُفصح عنه على المشنقة... أما على المنبر، فلا!"

(1869 - 1797)

الباب الأول: مقدمة

تمهيد

أؤمن أن أي كتاب يتكون كالجنين في لحظة حب أو استنارة، ثم يتشكل عبر الزمن حتى يولد ذات يوم، ويصير له اسم وحضور. هذا الكتاب هو ثمرة علاقات طيبة وجميلة مع بعض الأدباء الذين تعرضوا للسجن، لكن الزنْزانة، رغم برودتها وظلامها ووحشتها، لم تستطع أن تحبس شوقهم إلى الحياة، أو توقهم إلى النور، أو رغبتهم في الحب، وإصرارهم على الفرح ورؤيا الخلاص. هكذا صارت قصائد "فرج بيرقدار" التي هرّبها من السجن على لفائف السجائر "حمامة مطلقة الجناحين"، وتحولت كلمات "علي الدميني" إلى "نعم في الزنْزانة لحن"، وتغيّر مدار السجن عند "منصور راجح" إلى "مدار الحب".

قرأت أعمال هؤلاء الشعراء وشعرت أنني مطالب بأن أوصل رسالتهم إلى الجميع، فوضعت مقدمة عن كل منهم، مع نماذج شعرية ونثرية. إن ما يجمع هؤلاء الشعراء الثلاثة هو السجن، والكتابة فيه وعنه. كم مؤلم أن تضيع سنوات من عمرهم داخل زنْزانة رطبة خانقة معزولة، لأنهم قالوا آراءهم، فصاروا سجناء رأي. لم يدعوا إلى العنف، لكن العنف لم يرحم إنسانيتهم وإيمانهم بالحق والحرية.

أفردت للشعراء: منصور راجح، علي الدميني، وفرج بيرقدار، قسماً كبيراً من الكتاب كي يقرأ ضمير الوطن ما فعله بأبنائه، وكي يكون نتاجهم الأدبي شهادة على الظلم وانتهاك حقوق الإنسان في البلاد العربية، ساعياً لتعرية الجرح النازف كي لا يعود الزمن الأسود إلينا. لقد تعرّض هؤلاء للسجن في العقدين الماضيين وكتبوا في داخله الكثير من الأدب النبيل الراقي. كنت أقرأ في الوقت نفسه تقارير منظمة العفو الدولية Amnesty International، ومراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch، والمنظمة العالمية ضد التعذيب World Organization Against Torture، وأشعر أكثر فأكثر بضرورة الكتاب. إلى متى يستمر هذا الإرهاب على الفكر والأدب. متى يخرج هذا العالم العربي الغارق في ظلامه إلى الحرية والانفتاح وتقدير الأدب وتشجيع الفكر المستنير.

ازداد اهتمامي بهذا الموضوع مع الزمن فرحت أقرأ عن الأدباء العرب الذين تعرضوا للاضطهاد عبر التاريخ. اكتشفت الكثير من الشعراء والروائيين الذين سجنوا وعذّبوا وقتلوا وصلبوا مسجلين خبراتهم وكلماتهم في أدب رفيع مجيد صادق يستحق أن نقرأه بإعجاب وتقدير كبيرين. بدأت من الجاهلية حتى اليوم فقرأت في العصور القديمة عن سجن الحطيئة، علي بن الجهم، أبي فراس الحمداني، المعتمد بن عباد، ابن زيدون. كذلك سجن الحلاج ومقتله. أما في العصر الحديث فقد أدرجت نفي البارودي، وأدب المقاومة الفلسطينية ممثلاً بغسان كنفاني، توفيق زياد، سميح القاسم، ومحمود درويش، كذلك وضعت بعض النماذج الأدبية لبدر السياب، محمد الماغوط، عبد اللطيف اللعبي، مظفر النواب، ونوال السعداوي. بعدها ذكرت نبذات عن أدباء آخرين تعرضوا للأذى والسجن.

كذلك توسع المشروع حين تعرفت على الروائي العراقي المقيم في شيكاغو "محمود سعيد"، فطلبت منه أن يكتب عما عاش شخصياً ليختصر بذلك ألم الأدباء العراقيين - رغم أن أيَّ اختصار لذلك الألم الصارخ مجحفٌ بحقهم - فقدم لي قصة عن مخطوطة روايته "أنا الذي رأى"، وكنت قد قرأتها بالعربية والإنكليزية، فأضاءت تلك القصة - التي عانى بشكل مشابه بها كل الكتاب الصادقين في البلاد العربية - معنى أن تكتب عن السجن والحرية في الوطن/السجن، السجن/الوطن.

إن ظاهرة المنفى الاختياري أو الإجباري بالنسبة للكتاب العرب واسعة يصعب حصرها، خصوصاً في العقود الأربعة الأخيرة. لقد طال إرهاب الحكومات والأنظمة العربية آلاف المثقفين والأدباء

وشتّتهم في أصقاع الأرض. لذلك فإن الأدب العربي المهجري المعاصر، أي المكتوب خارج الوطن العربي، هو أدب منفى بامتياز. حاولت أن أضم في "أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر" معظم الأدباء الذين يعيشون خارج الوطن، بينما كانت فكرة هذا الكتاب الغوص عميقاً في تجارب قليلة لإظهار نواحٍ أخرى بما يخص الأدب الذي كتب في السجن، أو عنه.

لقد نُشر الكثير من روايات السجن في العقود الأربعة الأخيرة مثل "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف، و"تلك العتمة الباهرة" للطاهر بن جلون، و"مذكراتي في سجن النساء" لنوال السعداوي، كذلك الكثير من الروايات السياسية والشعر السياسي، وتعرّض العديد من الكتاب للأذى نتيجة كتاباتهم مثل نجيب محفوظ، عبد الحكيم قاسم، بهاء طاهر، يوسف السباعي، نبيل سليمان.. والسؤال الكبير اليوم: متى نعيش في وطن يؤمن أبناؤه بحرية التعبير!

في العصور القديمة

الحطيئة

اسمه جرول بن أوس ملقب بالحطيئة لقصره، أدرك الجاهلية واشترك في حرب داحس والغبراء، وأسلم في زمن الرسول ثم ارتد مع قومه بعد وفاته. كان الحطيئة هجَّاء عنيفاً. فهجا الزبرقان بن بدر وكان سيداً في قومه فشكاه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأحضره وحبسه. قال الحطيئة يهجو الزبرقان ويمدح بغيض بن شماس:

والله ما معشرٌ لاموا امرأ جُنُباً

في آل لأيِ بن شماس بأكياسِ

ما كان ذنب بغيض، لا أبا لكمُ

في بائس جاء يحدو آخر الناسِ

دع المكارم لا ترحل لبغْيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

من يفعلِ الخير لا يعدمْ جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناسِ

فقال له عمر: ما أراه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لا يكون هجاء أشدّ من هذا. فبعث عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك، فقال حسان: ذرق عليه (كناية عن شدة الهجاء). فعند ذلك ألقى عمر الحطيئة في السجن، فقال يستشفعه.

ماذا تقول لأفراخ بذي مرَخٍ

حمر الحواصل لا ماء ولا شجرُ

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة

فارحم، عليك سلام الله، يا عمرُ

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه

ألقى إليك مقاليد النهى البشرُ

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها

لكن لأنفسهم كانت بك الإثرُ

فامنن على صبية بالرمل مسكنهم

بين الأباطح يغشاهم بها القدرُ

فخلى عمر سبيله وأخذ عليه ألا يهجو أحداً من المسلمين، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم يستغني بها عن الهجاء.

إذن كان الحطيئة كثير الهجاء، حتى أنه هجا أباه وأمه، وخاله وعمه، ونفسه. قال في أمه:

تنحي فاقعدي عني بعيداً

أراح الله منك العالمينا

أغربالاً إذا استودعت سراً

وكانوناً على المتحدثينا

جزاك الله شرًّا من عجوز

ولقّاك العقوق من البنينا

وقال في أبيه وعمه وخاله:

لحاك الله ثم لحَاك حقاً

أباً ولحَاك من عَمّ وخالِ

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي

وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

ومما قال في نفسه يذمها

أبت شفتاي اليومَ إلا تكلًّما

بشرّ فما أدري لمن أنا قائله

أرى ليَ وجهاً شوه الله خلقه

فقبّح من وجه وقبّح حامله

لكنه في الوقت نفسه كتب أول قصة شعرية إنسانية في قصيدته الرائعة التي يروي بها قصة كريم نزل به ضيف وليس عنده ما يطعمه، فخطر له أن يذبح ابنه ليقدم لحمه طعاماً للضيف..

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل

بتيهاء لم يعرف بها ساكنٌ رسما

أخي جفوة فيه من الأنس وحشة

يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

تفرّد في شعب عجوزاً إزاءها

ثلاثة أشباح تخالهم بَهْما

حفاةً عراة ما اغتذوا خبز ملّة

ولا عرفوا للخبز مذ خلقوا طعما

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه

فلما بدا ضيفاً تسوّر واهتمّا

فقال ابنه لما رآه بحيرة

أيا أبتي اذبحني ويسّر له طعما

ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا

يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما

تروّى قليلاً ثم أحجم برهة

وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا

وقال هيا ربّاه، ضيف ولا قرى؟

بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

فبينا همُ عنّت على البعد عانة

قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها

على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشها

فأرسل فيها من كنانته سهما

فخرّت نحوص ذات جحش سمينة

قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحما

فيا بشره إذ جرّها نحو قومه

ويابشرهم لما رأوا كلمها يدمى

فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم

فلم يغرموا غرماً وقد غنموا غنما

وبات أبوهم من بشاشته أباً

لضيفهمُ، والأم من بشرها أمّا

علي بن الجهم

ولد في بغداد عام 188هـ (804م). كان صديقاً حميماً لأبي تمام. حظي في مطلع حياته بمكانة جيدة عند بعض الخلفاء العباسيين، فولاه المعتصم ديوان المظالم في حلوان، ثم عظمت منزلته عند المتوكل حتى أفسد الحساد بينهما، فأبعده المتوكل إلى خراسان وكتب إلى واليها بأن يصلبه من الصباح إلى الليل، ففعل الوالي ذلك ثم أعاده إلى السجن. ورضي المتوكل عن ابن الجهم بعد ذلك، فعاد إلى بغداد، وعاش فيها مهملاً عيشة لهو وفسق. وبعد وفاة المتوكل بعامين خرج ابن الجهم إلى غزو الروم، فجرح أثناء القتال، وتوفي على مرحلة من حلب عام 249 هـ (863م)

قال ابن الجهم في سجنه أبياتاً رائعة، منها:

قالت: حُبستَ فقلتُ: ليس بضائرٍ

حبسي، وأيّ مهند لا يُغمدُ؟!

أوما رأيت الليث يألف غيله

كبراً، وأوباش السباع تَرَدَّد

والشمْس لولا أنها محجوبة

عن ناظرَيْك لما أضاء الفرقدُ

والبدر يدركه السرار فتنجلي

أيّامه وكأنه متجدِّد

صبْراً فإن الصبر يعْقُب راحة

ويد الخليفة لا تطاولها يْد

والحبْس ما لم تغشه لدنِيَّة

شنعاءَ، نعمَ المنْزِلُ المتودِدُ

ولما صلب في الشاذياخ بخراسان قال:

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الاثنَ

ْين مغموراً ولا مجْهولا

نصبوا - بحمد الله- ملءَ عيونهم

شرفاً وملء صدورهم تبجيلا

هل كان إلا الليث فارق غيلَه

فرأيته في محمل محْمولا

ما عابه أن بزّ عنه لباسه

فالسيف أهول ما يرى مسلولا

إن يُبتذلْ فالبدر لا يذري به

أن كان ليلة تمّه مبذولا

أو يحبسوه فليس يحبس سائر

من شعره يدع العزيز ذليلا

إن المصائب - ما تعدّت دينه

نِعَمٌ، وإن صعبت عليه قليلا

والله ليس بغافل عن أمْره

وكفى بربك ناصراً ووكيلا

هل تملكون لدينه ويقينه

وجَنانه وبيانه تبْديلا

لم تنقصوه وقد ملكتم ظلمه

ما النقص إلا أن يكون جهولا

كادت تكون مصيبة لو أنكم

أوضحتمُ ذنباً عليه جليْلا

أو كان سفّ إلى الدنية، أو رأى

غير الجميل من الأمور جميلا

* * *

يذكر التاريخ القصة الشهيرة لابن الجهم مع المتوكل، فقد كان ابن الجهم خشن العبارة في بداياته وحين قدم على المتوكل العباسي، وأراد أن يمتدحه قال:

أنت كالكلب في وفائك للود

وكالتيس في قراع الخطوب

لكن المتوكل أدرك حسن مقصده، وأمر له بدار على شاطئ دجلة تحيط بها الحدائق الغنّاء، فما هي إلا بضعة شهور حتى رق طبعه وعذب شعره، فأنشد قصيدته المشهورة التي تعتبر من عيون الشعر:

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن

سلوت، ولكن زدن جمراً على جمْرِ

أبو فراس الحمداني (320-357)

هو الحارث بن سعيد، فارس أسرة بني حمدان وشاعرهم، ولد في الموصل ونشأ يتيماً. ولما شبّ رأى سيف الدولة فيه دلائل النّجابة والفروسية فجعله صاحب منبج، وأوكل إليه أمر الثغور في نواحيها لصد الروم أو هجمات الأعراب، فأبدى شجاعة فائقة وإقداماً عظيماً.

وفي سنة 348 أسرت الروم أبا فراس، ففداه سيف الدولة سنة 355 ويقال إنه أسر مرتين إحداهما سنة 348 والثانية سنة 351، وفي الثانية ذهبوا به إلى القسطنطينية فأقام ينتظر فداء سيف الدولة له بمال وفير، أو مبادلة بأسير عظيم، فتأخر سيف الدولة في فدائه وطال ذلك حتى سنة 355. فكتب إليه أبو فراس يحثه على سرعة فدائه:

دَعوتُكَ للجَفن القريْحِ المسهَّدِ

لديّ، وللنّوم القليْل المُشَرَّدِ

وما ذاك بُخْلاً بالحيْاةِ وإنـها

لأوَّل مبْذولٍ لأولِ مُجْتدِ

وما الأسرُ مما ضِقْتُ ذَرْعًا بحمله

وما الخطب مما أن أقول له قدِي

وما زلّ عني أن شخصاً معرَّضا

لنَبل العدى إن لم يُصب فكأنْ قدِ

نضوت على الأيام ثوب جلادتي

ولكنني لم أنضُ ثَوب التجلِّد

أقلّب طرفي بين خلّ مكبّل

وبين صفيّ بالحديْد مصفّد

دعَوْتك والأبوابُ ترتجُّ دوننَا

فكن خيرَ مدعوٍّ وأكْرمَ مُنْجِدِ

فمثلك من يُدعى لكلِّ عظيمة

ومثليَ منْ يُفْدَى بكلِّ مُسَوَّدِ

أناديكَ لا أني أخافُ من الرَّدى

ولا أرتجيْ تأخيرَ يومٍ إلى غَدِ

فلا تترك الأعداء حولي ليفرحوا

ولا تقطع التسآل عني وتقعُد

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتىً

طويل نجاد السيف رحْب المقلَّد

فإن تفتدوني تفتدوا لعُلاكمُ

فتىً غير مردود اللسان أو اليَدِ

فما كلُّ منْ شاء المعالْي ينالُها

ولا كل سيَّارٍ إلى المجد يَهتدِي

وإنك لَلْمولى الذي بكَ أقْتدي

وإنك لَلنُّجم الذي به أهتْدي

وأنت الذي عرَّفْتَني طُرقَ العلا

وأنت الذي أهويتني كلَّ مقصْدِ

وأنت الذي بلغتني كُلَّ رتبْةٍ

مشيْتُ إليها فوق أعناق حُسَّدي

فيا مُلبسي النُّعْمى التي جلَّ قدرُها

لقد أخْلَقَتْ تلك الثيابُ فجَدِّدِ

ألم ترَ أني فيك صافحت حَدّها

وفيك شربت الموت غير مصرّد

ويقول أيضاً من سجنه:

إنْ زُرْتُ "خَرْشَنَةَ" أسِيرَا

فَلَكَمْ أحَطْتُ بها مُغِيرا

وَلَقَدْ رَأيْتُ النَّار تَنْ

تَهِبُ المَنَازِلَ وَالقُصُورَا

وَلَقَدْ رَأيْتُ السّبْيَ يُجْ

لبُ نحونا حوًّا، وحورا

نَخْتَارُ مِنْهُ الغَادَةَ الْـ

ـحسناءَ، والظبيَ الغريرَا

إنْ طالَ ليلي في ذرا

كِ فقدْ نعمتُ بهِ قصيرا

ولئنْ لقيتُ الحزن فيـ

ـكَ فقدْ لقيتُ بكِ السرورا

وَلَئِنْ رُمِيتُ بِحادِثٍ،

فلألفينَّ لهُ صبورا

صبراً لعلَّ اللهَ يفْـ

ـتحُ بعدهُ فتحاً يسيرا

منْ كانَ مثلي لمْ يبتْ

إلاّ أسِيراً، أوْ أمِيرا

لَيْسَتْ تَحُلّ سَرَاتُنَا

إلا الصدورَ أو القبورا

وقال أيضاً يخاطب أمه:

أيا أمَّ الأسيرِ، سقاكِ غيثٌ،

بكُرْهٍ مِنْكِ، مَا لَقِيَ الأسِيرُ!

أيا أمَّ الأسيرِ، سقاكِ غيثٌ،

تَحَيَّر، لا يُقِيم وَلا يَسِير!

أيا أمَّ الأسيرِ، سقاكِ غيثٌ،

إلى منْ بالفدا يأتي البشيرُ؟
أيا أمَّ الأسيرِ، لمن تربى
وقدْ متِّ، الذوائبُ والشعورُ؟
إذا ابنكِ سارَ في برٍ وبحرٍ،
فمنْ يدعو لهُ، أو يستجيرُ؟
حرامٌ أن يبيتَ قريرَ عينٍ!
ولومٌ أنْ يلمَّ بهِ السرورُ!
تَحَيَّر، لا يُقِيم وَلا يَسِير!
وَلا وَلَدٌ، لَدَيْكِ، وَلا عَشِير
وغابَ حبيبُ قلبكِ عنْ مكانٍ،
مَلائِكَةُ السَّماءِ بِهِ حُضور
لِيَبْكِكِ كُلُّ يَوْمٍ صُمتِ فيهِ
مُصَابِرَةً وَقَد حَميَ الهَجِير
لِيَبْكِكِ كُلّ لَيلٍ قُمْتِ فيهِ
إلى أنْ يبتدي الفجرُ المنيرُ!
لِيَبْكِكِ كُلّ مُضْطَهَدٍ مَخُوفٍ
أجرتيهِ، وقدْ قلَّ المجيرُ!
لِيَبْكِكِ كُلّ مِسكِينٍ فَقِيرِ
أغَثْتِيهِ، وَمَا في العَظْمِ زِير
أيا أماهُ، كمْ همٍّ طويلٍ
مضى بكِ لمْ يكنْ منهُ نصيرُ!؟
أيا أماهُ، كمْ سرٍّ مصونٍ
بقلْبِكِ، مَاتَ لَيسَ لَه ظُهُور
أيا أماهُ، كمْ بشرى بقربي
أتَتْكِ، وَدُونَها الأجَلِ القَصِير
إلى منْ أشتكي؟ ولمنْ أناجي،
إذا ضاقتْ بما فيها الصدورُ؟
بِأيّ دُعَاءِ دَاعِيَةٍ أُوَقّى؟
بأيِّ ضياءِ وجهٍ أستنيرُ؟

وَقَدْ مُتَ، الذوائِب والشعور؟

بِمَنْ يُسْتَفْتَح الأمْر العَسِير؟

نُسلَّى عنكَ: أنا عنْ قليلٍ،

إلى ما صرتِ في الأخرى، نصيرُ

أذكر هنا من قصيدته في السجن حين وقفت على نافذته حمامة تئن:

أقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ:

أيا جارتا هل تعلمين بحالي

معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النَّوى

ولا خطرت منك الهمْومُ ببْالِ

أتحمل محزونَ الفْؤاد قوادم

على غصن نائي المسافةِ عالِ

أيا جارتا، ما أنصف الدهرُ بيننا

تعالَيْ أقاسمْك الهمومَ تعالي

تعالَيْ ترَيْ روحاً لديّ ضعيفةً

تردَّد في جسْم يُعَذّب بالِ

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ

ويسكت محزونٌ وينْدبُ سالِ

لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلةً

ولكنّ دمعي في الحوادثِ غْالِ

أذكر أيضاً من قصيدته "مصابي جليل" حين ثقلت عليه جراحه وهو أسير، فأرسل إلى أمه يصبرها:

مصابي جليلٌ والعزاءُ جميلُ

وعلمي بأن اللهَ سوف يديلُ

وإني لفي هذا الصباح لَصالحٌ

ولي كُلما جنّ الظلامُ غليلُ

وأسرٌ أقاسيْه وليْلٌ نجومُه

أرى كلَّ شيء غيرهنّ يزولُ

تطولُ بي الساعاتُ وهي قصيرةٌ

وفي كل دهر لا يسرُّك طولُ

تناساني الأصحاب إلا عصيبة

ستلحق بالأخرى غداً وتحولُ
أقلب طرفي لا أرى غير صاحب
يميل مع النعماء حيث تميلُ
وإنّ وراء الستر أمًّا بكاؤها
علي وإن طال الزمانُ طويلُ
فيا أمَّتا لا تعدمي الصبْرَ إنْه
إلى الخير والنُّجح القريب رسولُ
ويا أمَّتا لا تحبطي الأجْرَ إنْه
على قدر الصبر الجميل جزيلُ
ويا أمَّنا صبْرًا فكلُّ مُلِمّة
تجلى على علاتها وتزولُ
أمالك في ذات النطاقين أسْوةٌ
بمكة والحرب العوانُ تجولُ
أراد ابنُها أخذَ الأمانِ فلم يُجَبْ
وتعلْمُ علمًا إنّه لَقتيلُ
وكوني كما كانت بأُحْدٍ صفيَّة
ولم يشف منها بالبكاء غليلُ
فما رد يوماً حمزةُ الخيرِ حزنَها
إذا ما علتها زفْرةٌ وعويْلُ
ومن أجمل قصائد أبي فراس:
أرَاكَ عَصِيَّ الدِّمع شِيمَتُكَ الصَّبر،
أما للهوى نهيٌّ عليكَ ولا أمرُ؟
بلى أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ،
ولكنَّ مثلي لا يذاعُ لهُ سرُّ!
إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى
وأذللتُ دمعاً منْ خلائقهُ الكبرُ
تَكادُ تُضِيءُ النَّار بينَ جَوَانِحِي
إذا هيَ أذْكَتْهَا الصَّبابَةُ والفِكْرُ
معللتي بالوصلِ، والموتُ دونهُ،

إذا مِتّ ظمْآناً فلا نَزَل القطرُ!

حفظتُ وضيعتِ المودةَ بيننا

وأحسن، منْ بعضِ الوفاءِ لكِ، العذرُ

وما هذهِ الأيامُ إلا صحائفٌ

لأحرفها، من كفِّ كاتبها بشرُ

بنَفسي مِنَ الغَادِينَ في الحَيّ غَادَةً

هوايَ لها ذنبٌ، وبهجتها عذرُ

تَرُوغُ إلى الوَاشِينَ فيّ، وإنّ لي

لأذْناً بهَا، عَنْ كُلّ وَاشِيَةٍ، وَقرُ

بدوتُ، وأهلي حاضرونَ، لأنني

أرى أنَّ داراً، لستِ من أهله، قفرُ

وَحَارَبْتُ قَوْمي في هَوَاكِ، وإنَّهمْ

وإيايَ، لولا حبكِ، الماءُ والخمرُ

فإنْ كانَ ما قالَ الوشاةُ ولمْ يكنْ

فَقَد يَهدِمُ الإيمانُ مَا شَيَّد الكُفرُ

وفيتُ، وفي بعضِ الوفاءِ مذلةٌ

لآنسةٍ في الحي شيمتها الغدرُ

وَقُورٌ، وَرَيْعَانُ الصِّبَا يَسْتَفِزّها،

فتأرنُ، أحياناً، كما يأرنُ المهرُ

تسائلني: "منْ أنتَ؟"، وهي عليمةٌ،

وَهَلْ بِفَتىً مِثْلي عَلى حَالِهِ نُكرُ؟

فقلتُ، كما شاءتْ، وشاءَ لها

الهوى: قَتِيلُكِ! قالَتْ: أيُّهمْ؟ فهُمُ كُثرُ

فقلتُ لها: "لو شئتِ لمْ تتعنتي،

وَلمْ تَسألي عَني وَعِنْدَكِ بي خُبرُ!

فقالتْ: "لقد أزرى بكَ الدهرُ بعدنا!

فقلتُ: "معاذَ اللهِ! بلْ أنت لا الدهرُ،

وَما كانَ للأحزَانِ، لَوْلاكِ، مَسلَكٌ

إلى القلبِ؛ لكنَّ الهوى للبلى جسرُ

فلا تنكريني، يا ابنة العمِّ، إنهَ
لَيَعرِفُ مَن أنكَرْتِهِ البَدْوُ وَالحَضْرُ
أسرتُ وما صحبي بعزلٍ، لدى الوغى،
ولا فرسي مهرٌ، ولا ربهُ غمرُ!
ولكنْ إذا حمَّ القضاءُ على امرىءٍ
فليسَ لهُ برٌّ يقيهِ، ولا بحرُ!
وقالَ أصيحابي: "الفرارُ أوالردى؟"
فقُلتُ: هُمَا أمرَانِ، أحلاهُما مُرّ
وَلَكِنّني أمْضِي لِمَا لا يَعِيبُني،
وَحَسبُكَ من أمرَينِ خَيرُهما الأسْرُ
يقولونَ لي: "بعتَ السلامةَ بالردى"
فَقُلْتُ: أمَا وَالله، مَا نَالَني خُسْرُ
وهلْ يتجافى عني الموتُ ساعةً،
إذَا مَا تَجَافَى عَنيَ الأسْرُ وَالضّرّ؟
هُوَ المَوْتُ، فاختَرْ ما عَلا لك ذِكْرُه،
فلمْ يمتِ الإنسانُ ما حييَ الذكرُ
سَيَذْكُرُني قَوْمي إذا جَدّ جدُّهمْ،
"وفي الليلةِ الظلماءِ، يفتقدُ البدرُ "
فإنْ عِشْتُ فَالطّعْنُ الذي يَعْرِفُونَه
و تلكَ القنا، والبيضُ والضمرُ الشقرُ
وَإنْ مُتّ فالإنْسَانُ لا بُدّ مَيِّت
وَإنْ طَالَتِ الأيّام، وَانْفَسَحَ العمرُ
وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا،
لَنَا الصَّدر، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا في المَعَالي نُفُوسُنَا،
و منْ خطبَ الحسناءَ لمْ يغلها المهرُ
أعزُّ بني الدنيا، وأعلى ذوي العلا،
وَأكرَمُ مَن فَوقَ الترَابِ وَلا فَخْرُ

المعتمد بن عباد

كان المعتمد حين آل إليه حكم إشبيلية سنة (461 هـ = 1068م)، في الثلاثين من عمره، شاباً فتياً، فارساً، وشاعراً، يحب الأدب ومسامرة أهله؛ فاجتمع في بلاطه شعراء كبار من أمثال أبي بكر بن عمار، وابن زيدون، وابن اللبانة، وابن حمديس الصقلي.

كان من ثمار السياسة المتخاذلة التي اتبعها المعتمد وغيره من ملوك الطوائف أن سقطت طليطلة بعد حصار سنة (478 هـ = 1085م) في أيدي القشتاليين، وكان لسقوطها دويٌّ هائل، وحزن عميق في العالم الإسلامي.

لم تكن قوى ملوك الطوائف تكفي لدفع خطر ألفونسو، وحماية أنفسهم من هجماته؛ فتطلعت أبصارهم إلى الضفة الغربية من البحر المتوسط؛ حيث دولة المرابطين، واشتهر سلطانها "يوسف بن تاشفين" بحبه للجهاد، وكان للمعتمد بن عباد يد طولى في الاستعانة بالمرابطين في جهادهم ضد القشتاليين، بعد أن أبدى بعض ملوك الطوائف تخوّفهم من أن يطمع المرابطون في بلادهم، فقال المعتمد كلمته المأثورة: "رعي الإبل خير من رعي الخنازير"؛ يريد بذلك أنه يفضل أن يكون أسيراً لدى أمير المرابطين يرعى إبله خير من أن يكون أسيراً لدى ملك قشتالة.

بعث أمير المرابطين بجيوشه لفتح مدن الأندلس واحدة بعد أخرى، وأرسل قائده الفاتح "سيرين" إلى إشبيلية لفتحها، وأدرك المعتمد أن معركته مع المرابطين هي معركة وجوده؛ فتهيأ لها، واستعان بحليفه ألفونسو، فأعانه وأمده بجيش كبير، ولكن المرابطين هزموه على مقربة من قرطبة، وامتنع المعتمد بإشبيلية حاضرة مملكته.

وفي أثناء حصاره تساقطت مدن مملكته في أيدي المرابطين واحدة بعد أخرى؛ فسقطت قرطبة، وقُتل فيها "الفتح بن المعتمد" مدافعًا عنها، وقُتل ولده "يزيد الراضي بالله" بعد أَسْرِه، وظل المعتمد يدافع عن حاضرته حتى اقتحم المرابطون إشبيلية عَنوة، فخرج يقاتلهم عند باب قصره ووقع أسيراً واستولى المرابطون على إشبيلية في (484 هـ 1091م).

أمر قائد المرابطين بحمل المعتمد وآل بيته إلى منفاهم بالمغرب، وسارت بهم السفينة من إشبيلية في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى المغرب، وخرج الناس لتوديعهم محتشدين على ضفتي النهر، وقد ملأ الدمع أعينهم، وقد سجل الشاعر الأندلسي الكبير ابن اللبانة هذا المشهد الحزين بقصيدة جاء فيها:

حان الوداعُ فضجّت كل صارخة

وصارخٍ من مُفداة ومن فادِي

سارت سفائنُهم والنوْحُ يتبعها

كأنها إبل يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت

تلك القطائعُ من قطعاتِ أكبادِ

وبعد أن وصلت السفينة إلى المغرب أقام المعتمد وأسرته أياماً في طنجة، ثم أُخذوا بعد ذلك إلى مكناسة، وقضوا هناك أشهراً قبل أن يرحلوا إلى منفاهم في أغمات، وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة من مراكش عاصمة دولة المرابطين، وكان قد سبق المعتمد إلى هذا المنفى "عبد الله بن بلكين" أمير غرناطة.

وفي أغمات عاش المعتمد كسير القلب، يُعامَل معاملة سيئة، ليس بجانبه من يخفف عنه مأساته. ينظر إلى بناته الأقمار؛ فيشقيه أنهن يغزلن ليحصلن على القوت، ولكنه كان يتجلد ويتذرع بالصبر،

ويلجأ إلى شعره، فينفس عن نفسه بقصائد مُشجية مؤثرة. وحين دخلت عليه بناته السجن في يوم عيد، ورآهن في ثياب رثة، تبدو عليهن آثار الفقر والفاقة؛ انسابت قريحته بشعر شجي حزين:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا

فساءك العيدُ في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمارِ جائعة

يغزلْن للناس لا يملكْنَ قِطميرا

برزْن نحوَك للتسليمِ خاشعةً

أبصارُهنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأْنَ في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأْ مسكاً وكافورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءته

وكان فطرك للأكباد تفطيرا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً

فردّك الدهر منهياً ومأمورا

من بات بعدك في ملك يسرّ به

فإنما بات بالأحلام مغرورا

واشتدت وطأة الأَسْرِ على اعتماد الرميكية زوجة المعتمد، ولم تقوَ طويلاً على مغالبة المحنة؛ فتُوفيت قبل زوجها، ودُفنت بأغمات على مقربة من سجن زوجها.

وطال أَسْر المعتمد وسجنه فبلغ نحو أربع سنوات حتى أنقذه الموت من هوان السجن؛ فتوفي عام (488 هـ = 1095م) ودُفن إلى جانب زوجته.

ابن زيدون

ولد عام 354هـ. من أشهر الشعراء الأندلسيين. اشتهر في قرطبة، ثم انتقل إلى المعتضد بن عباد في إشبيلية. عرف بحبه لولادة بنت المستكفي، وله شعر جميل فيها، كذلك له أشعار رائعة نظمها في سجنه. توفي عام 406 هـ.

نظم ابن زيدون هذه القصيدة في السجن، وكان قد مضى عليه خمسمائة يوم:

الهَوَى في طُلُوعِ تِلْكَ النُّجوم؛

وَالمُنَى في هُبُوبِ ذاكَ النّسيمِ

سرَّنا عيشُنَا الرَّقيق الحواشِي،

لَوْ يَدومُ السُّرورُ للمُسْتَدِيمِ

وطرٌ ما انقضَى إلى أنْ تقضَّى

زَمَنٌ، مَا ذِمَامُهُ بِالذميمِ
إذْ خِتَامُ الرَّضا المُسَوَّغِ مِسْكٌ؛
ومزاجُ الوصالِ منْ تسنيمِ
وَغَرِيضُ الّلال غَضٌّ، جنى الصّبْوَةِ،
نَشْوَانُ مِنْ سُلافِ النِّعيمِ
طالمَا نافرَ الهوَى منهُ غرٌّ،
لمْ يطلْ عهدُ جيدِهِ بالتّميم
أيَّها المُؤذِني بِظُلْمِ اللّيالي،
ليسَ يومي بواحدٍ من ظلومِ
قمرُ الأفقِ، إنْ تأمَّلت، والشُّمس
هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجومِ
أيَّها ذا الوَزِيرُ! هَا أنّا أشْكُو،
بِالمُصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ
بوّأ اللهُ جهوراً شرفَ السّؤددِ،
في السِّرو، واللُّبَابِ الصّميم
واحدٌ، سلَّم الجميعُ لهُ الأمرَ،
فكانَ الخصوصُ وفقَ العمومِ
قلَّد الغمرُ ذا التّجارب فيهِ؛
وَاكْتَفَى جاهِلٌ بِعِلْمِ العَلِيمِ
خطرٌ يقتضي الكمالَ بنوعَيْ
خُلُقٍ بَارِعٍ، وَخَلْقٍ وَسِيمِ
أيّها الوزيرُ! ها أنّا أشكُو،
والعَصَا بدءُ قرعِهَا للحليمِ
مَا عَنَانَا أنْ يَأنَفَ السّابقُ المَرْبطَ
في العتقِ منهُ والتّطهيم
وَبَقَاءُ الحُسَامِ في الجَفنِ يَثْني
مِنْهُ بَعدَ المَضَاء، وَالتّصْمِيمِ
أفصبرٌ مئينَ خمساً منَ الأيّام،
نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ ألِيمِ!

وَمُعَنَّى مِنَ الضَّنى بِهَنَاتٍ،
نَكَأتْ بِالكُلُومِ قَرْحَ الكُلومِ
سَقَمٌ لا أُعَادِ فيهِ وَفي العَائِدِ
أنسٌ يفي ببرء السّقيم
نَارُ بَغْيٍ سَرَى إلى جَنَّة الأمْنِ
لَظَاها، فَأصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ
بأبي أنتَ، إنْ تشأ، تكُ برداً
وسلاماً، كنارِ إبراهيمِ
للشّفيع الثّناء، والحمدُ في صوبِ
الحَيَا للرِّياح، لا لِلْغُيومِ
وزعيمٌ، بأنْ يذلّلَ لي الصَّعب،
مثابي إلى الهمامِ الزّعيم
وَوِدَادٌ، يُغَيِّرُ الدهْرُ مَا شَاء
ويبقَى بقاءَ عهدِ الكريمِ
وَثَنَاءٌ، أرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظّاعنِ
عَنْ شَوْقِهِ، وَلَهْوَ المُقِيمِ
فهوَ ريحانَةُ الجليسِ، ولا فخرَ،
وفيهِ مزاجُ كأسِ النّديم
لمْ يزَلْ مغضياً على هفوةِ الجاني،
مصيخاً إلى اعْتذارِ الكريمِ
ومتى يبدإ الصَّنيعة يولعْكَ
تَمَامُ الخِصَالِ بِالتّتْمِيم
بعث ابن زيدون بهذه القصيدة من سجنه يخاطب الوزير أبا حفص بن برد:
ما على ظني باسُ يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمرء على الآمال ياسُ
ولقد ينجيك إغفال ويرديْك احتْراس
ولكم أجدى قعود، ولكْم أكدى التماسُ
وكذا الدهر إذا ما عزّ ناسٌ، ذل نْاسُ
وبنو الأيام أخيْاف: سراة وخساس

نلبس الدنيا، ولكن متعة ذاك اللبْاسُ

أذؤبٌ هامت بلحمي، فانتهاشٌ وانتهاسُ

كلهم يسأل عن حالي وللذئب اعتساسُ

إن قسا الدهر فللمْاء من الصخر انبجاس

ولئن أمسيت محبوساً فللغيث احتبْاس

يلبد الورد السبنْتى، وله بعد افتراس

فتأمل كيف يغشى مقلة المجد النعاس

ويفتّ المسْك في الترب، فيوطا ويداس

لا يكن عهدك ورداً! إن عهدي لك آس

وأدر ذكريَ كأساً ما امتطت كفّك كاسُ

واغتنم صفو الليالي إنما العيش اختلاس

وعسى أن يسمح الدهر، فقد طال الشماسُ

الحلاج

هو الحسين بن منصور الملقب بالحلاج. فيلسوف متصوف، يعتبره البعض من الزهاد المؤمنين، وبعضهم من الزنادقة الملحدين. أصله من مدينة (البيضاء) بفارس. نشأ بواسط وانتقل إلى البصرة وحج وأقام بمكة مدة ثم عاد إلى بغداد ومنها انتقل إلى مدينة (تستر) بالأهواز. يذكر أن الحلاج سمي بهذا الاسم لأنه اطلع على ما في القلوب، وكان يخرج لب الكلام كما يخرج الحلاج لب القطن. وقيل إن أباه كان يحلج القطن. ظهر أمره سنة 299هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان، ثم كان ينتقل من بلد إلى بلد وينشر طريقته سراً. ولما رفع أمره إلى الخليفة المقتدر أمر أن يأتى به فقبض عليه، وصلب على جذع شجرة، ثم سجن وظل مسجوناً ثماني سنين، ثم عقد له مجلس من القضاة والفقهاء، فشهد عليه أناس بما يدينه بالزندقة والإلحاد وصدر الحكم بقتله، وضرب ألف سوط ثم قطعت أربعة أطرافه ثم حز رأسه وأحرقت جثته. من الصوفية من يدعي أن الحلاج دخل في السر الكوني حتى اكتشف أعماقاً مذهلة، وأنه حين قدم إلى القتل قال: حسب الواجد إفراد الواحد، فما سمع أحد من الصوفية بهذه الكلمة إلا رقّ له. كانت عقيدته الصوفية تقوم على مبدأ (وحدة الوجود) أي أن الإنسان مندمج في ذات الله، ولا يمكن للإنسان أن يرى صورة الله في نفسه إلا بمحبته محبة العاشق للمعشوق، وهو حب روحي ووجداني، لا يرقى إليه الإنسان إلا إذا تخلى عن لذاته وشهواته المادية، فإذا بلغ هذه المرتبة انكشفت له الحجب.

لقد أُسيء فهم الحلاج مراراً. فقد فُسرت كلمته: "أنا الحق"، أي "أنا الحقيقة المطلقة"، كتعبير عن تعالٍ متعاظم للذات، بحيث أثار بذلك الشكوك في إيمانه، وقد رُفض مبدأ الحلول في الإسلام. كذلك اعتبره البعض ساحراً خطراً... غير أن كبار المتصوفين في جميع العصور قد أبدوا إعجابهم الشديد بحبه المطلق لله. ومع الزمن ازداد تيار الإعجاب بالرجل ثائراً اجتماعياً ودينياً ضد الأفق الفكري والتفسير الديني الضيقين.

يظهر الحلاج في الشعر والروحانية الفارسية وشبه القارة الهندية والأدب التركي والأردي كإنسان رفض التحجر الفكري بسبب تجربة اتصاله المباشر بالله وحبه الخالص له، مما أدى إلى

قتله.

كما درس المستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسينيون شخصية الحلاج وأدبه وقدم رسالة الدكتوراه عنه. وحقق كتابه "الطواسين" الذي صدر عام 1913 في باريس عن مكتبة بول غوتنر باللغتين العربية والفرنسية (بترجمته).

كان الحلاج شاعراً مبدعاً عبّر عن صوفيته وفلسفته بالشعر.كتب عدة مصنفات منها كتاب (طاسين) أو (الطواسين) وكتاب (الظل الممدود والماء المسكوب) وكتاب (خلق الإنسان والبيان) وكتاب (التوحيد) وكتاب (النجم إذا هوى) وكتاب (مدح النبي) وكتاب (الصلاة والصلوات) وكتاب (اليقين) وغير ذلك.

نماذج من شعره

كتبتُ ولم أكْتُبْ إليك وإنّما

كتبتُ على روحي بغير كتابِ

وذلك أنّ الروح لا فرق بينها

و بين مُحِبْيها بِفَصْلِ خطابِ

أُريدُك لا أريدك للثواب

ولكنّي أريْدك للعقاب

فكلّ مآربي قد نِلْتُ منها

سوى ملذوذِ وجدي بالعَذَاب

* * *

كَفَى حَزَناً أنّي أُناديْك دائماً

كأنّي بعيدٌ أو كأنّك غائبُ

وأَطْلُبُ منك الفضل من غير رغبةٍ

فلم أرَ قبلي زاهداً فيك راغب

* * *

رأَيتُ ربّي بعين قلبِ

فقلتُ من أنت قال أنت

فليس للأين منك أينٌ

وليس أين بحيثُ أنت

وليس للوهم منك وهمٌ

فيعلم الوهم أين أنت

أنت الذي حُزْتَ كل أين

بنحو لا أينَ فأينَ أنت
وفي فنائي فنا فنائي
وفي فنائي وجدت أنت

* * *

فما لي بُعْدٌ بَعْدَ بُعْدِكَ بَعْدَما
تَيَقَّنْتُ أنّ القرب والبُعد واحد
وإنّي وإن أُهْجِرتُ فَالهَجْرُ صاحبي
وكيف يصحّ الهجر والحُبّ واجد
لك الحمد في التوفيق في محض خالصٍ
لعبدٍ زكيّ ما لغيرك ساجْد

* * *

قد تصبَّرت وهل يصْ
برُ قلبي عْن فؤادي
مازجَتْ روحُك روحي
في دنوٍ وبعادي
فأنا أنت كما أنّ
ك أنّي ومرادي

* * *

أنت المُوَلِّهُ لي لا الذكر ولّهني
حاشا لقلبي أَنْ يَعْلَق به ذِكَرى
الذكر واسطةٌ تُخْفِيك عن نظري
إذا توشَّحَهُ من خاطري فكري

* * *

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت
إلا وحبّك مقْرون بأنفاسي
ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهْم
إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا ذكرتك محزوناَ ولا فرِحاَ
إلا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش
إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكاس
ولو قدرتُ على الإتيان جئتُكم
سعياً على الوجه أو مشياً على الراس
ما لي وللناس كم يلحونني سفهاً
ديني لنفسي ودين الناس للناس

* * *

يا نسيم الروح قولي للرشا
لم يزدني الوِرْد إلا عطشا
لي حبيبٌ حبّه وسط الحشا
إن يشا يمشي على خدّي مشا
روحه روحي وروحي روحه
إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشا

* * *

أنا من أهوى ومْن أهْوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا

* * *

مزجت روحك في روحي كما
تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني
فإذا أنت أنا في كل حال

* * *

الله يعلم ما في النفس جارحة

إلا وذكرك فيها نيل ما فيها

ولا تنفست إلا كنت في نفسي

تجري بك الروح مني في مجاريها

إن كانت العيْن مذ فارقتها نظرت

إلى سواك فخانتها مآقيها

أو كانت النفس بعد البعد آلفة

خلقا عداك فلا نالت أمانيها

الصلاة الأخيرة أو "صلاة السجن"

هذا الدعاء هو الصلاة التي تلاها الحلاج في سجنه عشية تعذيبه في 25 آذار 922، واعتبره المستشرق لويس ماسينيون يشرح أفضل شرح عقيدة التقديس لدى الحلاج؛ ويمكن استخلاص الكثير من مبادئ الحلاج من خلاله أو من خلال ما تبقى منه. وهو شبه مجهول، وقد أورده ماسينيون، في صيغ أربع، في تحقيقه كتاب الطواسين الذي صدر عام 1913 في باريس.

"نحن شواهدك نلوذ بسَنا عزَّتك لتبدي ما شئت من شأنك ومشيئتك،

أنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله،

يا مدهِّر الدهور ومصوِّر الصور، يا من ذلَّت له الجواهر، وسجدت له الأعراض، وانعقدت بأمره الأجسام، وتصوَّرت عنده الأحكام،

يا من تجلَّى لما تشاء [كما تشاء] كيف شاء مثل التجلِّي في المشيئة لأحسن الصورة [وفي نسخة: "مثل تجليك في مشيئتك كأحسن الصورة"]،

والصورة هي الروح الناطقة التي أفردته بالعلم والبيان والقدرة،

ثم أَوعزت إلى شاهدك في ذاتك الهوى اليسير،

لما أردت بدايتي وأظهرتني عند عقيب كراتي ودعوت إلى ذاتي بذاتي،

وأبديت حقائق علومي ومعجزاتي،

صاعداً في معارجي إلى عروش أزلياتي، عند القول من بريَّاتي،

إني أُحتضَر وأُقتَل وأُصلَب وأُحرَق وأُحمَل على السافيات الذاريات،

وإن لذرة من ينبوع مظانِّ هيكل متجلِّياتي لأعظم من الراسيات."

* * *

في العصور الحديثة

محمود سامي البارودي

ولد محمود سامي البارودي بالقاهرة في (1839م) لأبوين من الجراكسة في حي باب الخلق بالقاهرة. بعد أن أتم دراسته الإبتدائية عام 1851 التحق بالمرحلة التجهيزية من "المدرسة الحربية المفروزة" وانتظم فيها يدرس فنون الحرب، وعلوم الدين واللغة والحساب والجبر. لم يستطع إستكمال دراسته العليا، والتحق بالجيش السلطاني. عمل بعد ذلك بوزارة الخارجية وذهب إلى الأستانة عام 1857 وبقي هناك نحو سبع سنوات (حتى عام 1863). تجلت مواهبه الشعرية في سن مبكرة بعد أن استوعب التراث العربي وقرأ روائع الشعر العربي والفارسي والتركي، فكان ذلك من عوامل التجديد في شعره الأصيل.

بعد عودته إلى مصر في شباط عام 1863 عينه الخديوي إسماعيل "معيناً" لأحمد خيري باشا على إدارة المكاتبات بين مصر والآستانة. ضاق البارودي بروتين العمل الديواني وانتقل إلى الجيش حيث عمل برتبة "البكباشي" العسكرية وأُلحقَ بآلاي الحرس الخديوي وعين قائداً لكتيبتين من فرسانه، وأثبت كفاءة عالية في عمله.

كان أحد أبطال ثورة عام 1881 الشهيرة ضد الخديوي توفيق بالاشتراك مع أحمد عرابي، وقد أسندت إليه رئاسة الوزارة الوطنية في شباط عام 1882.

بعد سلسلة من أعمال الكفاح والنضال ضد فساد الحكم وضد الاحتلال الإنكليزي لمصر عام 1882 قررت السلطات الحاكمة نفيه مع زعماء الثورة العرابية في كانون الأول عام 1882 إلى جزيرة سرنديب.

أقام البارودي في الجزيرة سبعة عشر عامًا وبعض عام، وأقام مع زملائه في "كولومبو" سبعة أعوام، ثم فارقهم إلى "كندي" بعد أن دبت الخلافات بينهم، وألقى كل واحد منهم فشل الثورة على الآخر، وفي المنفى شغل البارودي نفسه بتعلم الإنجليزية حتى أتقنها، وانصرف إلى تعليم أهل الجزيرة اللغة العربية.

وطوال هذه الفترة كتب قصائده التي يسكب فيها آلامه وحنينه إلى الوطن، ويرثي من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه، ويتذكر أيام شبابه، ومضت به أيامه في المنفى ثقيلة واجتمعت عليه علل الأمراض، وفقدان الأهل والأحباب، فساءت صحته، واشتدت وطأة المرض عليه، ثم سُمح له بالعودة بعد أن تنادت الأصوات بضرورة رجوعه إلى مصر، فعاد في عام 1899م. توفي البارودي عام 1904.

قال في منفاه:

مَحَا الْبَيْنُ مَا أَبْقَتْ عُيُونُ الْمَهَا مِنِّي

فشبتُ ولمْ أقضِ اللبانةَ منْ سني

عناءٌ، وَبأسٌ، وَاشتياقٌ، وَغربةٌ

ألاَ، شدَّ ما ألقاهُ في الدهرِ منْ غبنِ

فإنْ أكُ فارقتُ الديارَ فلي بها

فؤادٌ أضلتهُ عيونُ المها مني

بَعَثْتَ بِهِ يَوْمَ النَّوَى إِثْرَ لَحْظَةٍ

فَأَوْقَعَهُ الْمِقْدَارُ فِي شَرَكِ الْحُسْنِ

فَهَلْ مِنْ فَتىً فِي الدَّهْرِ يجْمَعُ بَيْنَنَا؟

فَلَيْسَ كِلانَا عَنْ أَخِيهِ بِمُسْتَغْنِ

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ، وأَسْبَلَتْ

مدامعنا فوقَ الترائبِ كالمزنِ

أهبتُ بصبري أنْ يعودَ، فعزني

وَ ناديتُ حلمي أنْ يثوبَ، فلمْ يغنِ

ولمْ تمضِ إلاَّ خطرةٌ، ثمَّ أقلعتْ

بِنَا عَنْ شُطُوطِ الْحَيِّ أَجْنِحَةُ السُّفْنِ

فَكَمْ مُهْجَةٍ مِنْ زَفْرَةِ الْوَجْدِ فِي لَظىً

وَكَمْ مُقْلَةٍ مِنْ غَزْرَةِ الدَّمْعِ فِي دَجْنِ

وَمَا كُنْتُ جَرَّبْتُ النَّوَى قَبْلَ هَذِهِ

فَلَمَّا دَهَتْنِي كِدْتُ أَقْضِي مِنَ الْحُزْنِ

وَلَكِنَّنِي رَاجَعْتُ حِلْمِي، وَرَدَّنِي

إِلَى الْحَزْمِ رَأْيٌ لا يَحُومُ عَلَى أَفْنِ

وَلَوْلاَ بُنَيَّاتٌ وَشِيبٌ عَوَاطِلٌ

لما قرعتْ نفسي على فائتٍ سني

فيا قلبُ صبراً إنْ جزعتَ؛ فربما

جرتْ سنحاً طيرُ الحوادثِ باليمنِ

فقدْ تورقُ الأغصانُ بعدَ ذبولها

وَيَبْدُو ضِيَاءُ الْبَدْرِ فِي ظُلْمَةِ الْوَهْنِ

وأيُّ حسامٍ لمْ تصبهُ كهامةٌ

وَلَهْذَمُ رُمْحٍ لاَ يُفَلُّ مِنَ الطَّعْنِ؟

وَمَنْ شَاغَبَ الأَيَّامَ لانَ مَرِيرُهُ

وَ أسلمهُ طولُ المراس إلى الوهنِ

وَمَا الْمَرْءُ فِي دُنْيَاهُ إِلاَّ كَسَالِكٍ

مناهجَ لا تخلو منَ السهلِ وَالحزنِ

فإنْ تكنِ الدنيا تولتْ بخيرها

فأهْوِنْ بِدُنْيَا لاَ تَدُومُ عَلى فنِّ!
تحملتُ خوفَ المنَّ كلَّ رزيئةٍ
وَ حملُ رزايا الدهرِ أحلى منَ المنَّ
وَعَاشَرْتُ أَخْدَاناً، فَلَمَّا بَلَوْتُهُمْ
تَمَنَّيْتُ أَنْ أَبْقَى وَحِيداً بِلاَ خِدْنِ
إذا عرفَ المرءُ القلوبَ وَما انطوتْ
عليهِ منَ البغضاءِ - عاشَ على ضغنِ
وَأَيُّ حَيَاةٍ لاِمْرِىءٍ بَيْنَ بَلْدَةٍ
وَتَسْمَعُ أُذْنِي مَا تَعَافُ مِنَ اللَّحْنِ
وَكَيْفَ مُقَامِي بَيْنَ أَرْضٍ أَرَى بِهَا
منَ الظلمِ ما أخنى على الدارِ وَالسكنِ
فسمعُ أنينِ الجورِ قدْ شاكَ مسمعي
و رؤيةُ وجهِ الغدرِ حلَّ عرا جفني
وصعبٌ على ذي اللبَّ رئمانُ ذلةٍ
يَظَلُّ بِهَا فِي قَوْمِهِ وَاهِيَ الْمَتْنِ
فَلاَ تَعْتَرِفْ بِالذُلِّ خِيفَةَ نِقْمَةٍ
فَعَيْشُ الْفَتَى في الذُّلِّ أَدْهَى مِنَ السِّجْنِ
وَكُنْ رَجُلاً، إِنْ سِيمَ خَسْفاً رَمَتْ بِهِ
حَمِيَّتُهُ بَيْنَ الصَّوَارِمِ وَاللُّدْنِ
فلا خيرَ في الدنيا إذا المرءُ لمْ يعشْ
مهيباً، تراهُ العينُ كالنارِ في دغن
ولا ترهبِ الأخطارَ في طلبِ العلا
فَمَنْ هَابَ شَوْكَ النَّحْلِ عَادَ، وَلَمْ يَجْنِ
ولولا معاناةُ الشدائدِ ما بدتْ
مزايا الورى بينَ الشجاعةِ وَالجبنِ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي الْمُدْنِ مَا شِئْتَ مِنْ قِرىً
فَأَصْحِرْ؛ فَإِنَّ الْبِيدَ خَيْرٌ مِنَ الْمُدْنِ
وأيُّ حياةٍ لامرئٍ بينَ بلدةٍ
يَطَلُّ بِهَا بَيْنَ الْعَوَاثِنِ وَالدَّخْنِ؟

لعمري لكوخَ منْ ثمام
أَحَبُّ إِلَى قَلْبِي مِنَ الْبَيْتِ ذِي الْكِنِّ
وأطربُ منْ ديكٍ يصيحُ بكوةٍ
أراكيةٌ تدعو هديلاً على غصنِ
وأحسنُ منْ دارٍ وَخيمٍ هواؤها
مَبيتُكَ مِنْ بُحْبُوحَةِ الْقَاعِ فِي صَحْنِ
تَرَى كُلَّ شَيْءٍ نُصْبَ عَيْنَيْكَ مَاثِلاً
كأنكَ منْ دنياكَ في جنتيْ عدنِ
تدورُ جيادُ الخيلِ حولكَ شرباً
تجاذبُ أطرافَ الأعنةِ كالجنَّ
إذا سمعتْ صوتَ الصريخِ تنصبتْ
فتدركُ ما لا تبصرُ العينُ بالأذنِ
فقدْ ذقتُ طعمَ الدهرِ حتى لفظتهُ
وَعَاشَرْتُ حَتَّى قُلْتُ لابْنِ أَبِي: دَعْنِي
وَإِنِّي - وَإِنْ طَالَ الْمِطَالُ - لَوَاثِقٌ
بِرَحْمَةِ رَبِّي؛ فَهْوَ ذُو الطَّوْلِ وَالْمَنِّ

أنشودة العودة

بعد أن بلغ الستين من عمره اشتدت عليه وطأة المرض وضعف بصره فتقررت عودته إلى وطنه للعلاج، وعاد إلى مصر يوم 12 أيلول عام 1899 وكانت فرحته غامرة بعودته إلى الوطن فأنشد "أنشودة العودة":

أَبَابِلُ رَأْيَ العَيْنِ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ
فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عُيُوناً هِيَ السِّحْرُ
نَوَاعِسَ أَيْقَظْنَ الهَوَى بِلَوَاحِظٍ
تَدِينُ لَهَا بِالفَتْكَةِ البِيضُ وَالسُّمْرُ
فَلَيْسَ لِعَقْلٍ دُونَ سُلْطَانِهَا حِمَىً
وَلاَ لِفُؤَادٍ دُونَ غِشْيَانِهَا سِتْرُ
فَإِنْ يَكُ مُوسَى أَبْطَلَ السِّحْرَ مَرَّةً
فَذَلِكَ عَصْرُ المُعْجِزَاتِ، وَذَا عَصْرُ
فَأَيُّ فُؤَادٍ لاَ يَذُوبُ صَبَابَةً

وَمُزْنَـةِ عَيْنٍ لاَ يَصُوبُ لهَا قطرُ؟
بِنَفْسِي - وَإنْ عَزَّتْ عَلَيَّ - رَبِيبَةٌ
مِنَ العِينِ فِي أَجْفَانِ مُقْلَتِهَا فَتْرُ
فَتَاةٌ يَرِفُّ البَدْرُ تَحْتَ قِنَاعِهَا
وَيَخْطِرُ فِي أَبْرَادِهَا الغُصُنُ النَّضْرُ
تُرِيكَ جُمَانَ القَطْرِ فِي أُقْحُوَانَةٍ
مُفَلَّجَةِ الأَطْرَافِ، قِيلَ لَهَا ثَغْرُ
تَدِينُ لِعَيْنَيْهَا سَوَاحِرُ "بَابِلٍ"
وَتَسْكَرُ مِنْ صَهْبَاءِ رِيقَتِهَا الخَمْرُ
فَيَا رَبَّةَ الخِدْرِ الذِي حَالَ دُونَهُ
ضَرَاغِمُ حَرْبٍ، غَابُهَا الأَسَلُ السُّمْرُ
أَمَا مِنْ وِصَالٍ أَسْتَعِيْدُ بِأُنْسِهِ
نَضَارَةَ عَيْشٍ كَانَ أَفْسَدَهُ الهَجْرُ؟
رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِحُبِّكِ عَالِمَاً
بِأَنَّ جُنُونِي فِي هَوَاكِ هُوَ الفَخْرُ
فَلاَ تَحْسَبِي شَوْقِي فُكَاهَةَ مَازِحٍ
فَمَا هُوَ إلاَّ الجَمْرُ، أَوْ دُونَهُ الجَمْرُ
فَلاَ يَبْتَدِرْنِي بِالمَلاَمَةِ عَاذِلٌ
فَإِنَّ الهَوَى فِيْهِ لِمُعْتَذِرٍ عُذْرُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْحُبِّ فَضْلٌ عَلَى النُّهَى
لَمَا ذَلَّ حَيٌّ لِلْهَوَى وَلَهُ قَدْرُ
وَكَيْفَ أَسُومُ القَلْبَ صَبْرَاً عَلَى النوى
وَلَمْ يَبْقَ لِيْ فِي الحُبِّ قَلْبٌ وَلاَ صَبْرُ
لِيَهْنَ الهَوَى أَنِّي خَضَعْتُ لِحُكْمِهِ
وَإِنْ كَانَ لِيْ فِي غَيْرِهِ النَّهْيُ وَالأَمْرُ
وَإِنِّي امْرُؤٌ تَأْبَى لِيَ الضَّيْمَ صَوْلَةٌ
مَوَاقِعُهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حُمْرُ
أَبِيٌّ عَلَى الحِدْثَانِ، لاَ يَسْتَفِزُّنِي
عَظِيمٌ، وَلاَ يَأْوِي إِلَى سَاحَتِي ذُعْرُ

إذا صُلْتَ صَال المَوْتَ مِنْ وَكَرَاتِهِ
وَإِنْ قُلْتُ أَرْخَى مِنْ أَعِنَّتِهِ الشِّعْرُ

* * *

أدب المقاومة

عُرف أدب الكتّاب الفلسطينيين الذين كافحوا الاستيطان الصهيوني بأدب المقاومة، وقد تعرض هؤلاء للأذى والسجن، كما دفع غسان كنفاني دمه ثمناً لكلماته. سأكتفي بذكر ثلاثة شعراء وروائي واحد، رغم أن أنثولوجيا الأدب الفلسطيني التي حررتها سلمى الخضراء الجيوسي تضم عدداً كبيراً ممن تنطبق عليه معايير الدراسة، لكنني أترك المجال للمستزيدين للعودة إلى ذلك المرجع.

غسان كنفاني

ولد عام 1936 في مدينة عكا بفلسطين. درس بعض سنوات الابتدائية في مدرسة الفرير بيافا. كانت أسرته تعيش في حي المنشية بيافا وهو الحي الملاصق لتل أبيب وقد شهد أولى حوادث الاحتكاك بين العرب واليهود التي بدأت هناك إثر قرار تقسيم فلسطين. لذلك فقد حمل الوالد زوجته وأبناءه وأتى بهم إلى عكا وعاد هو إلى يافا، فأقامت العائلة هناك من تشرين عام 47 إلى أواخر نيسان 1948 حين جرى الهجوم الأول على مدينة عكا. (ذكريات تلك الأيام ظهرت واضحة في "عائد إلى حيفا").

غادرت أسرة غسان مع عديد من الأسر في سيارة شحن إلى لبنان فوصلوا إلى صيدا وبعد يومين من الانتظار استأجروا بيتاً قديماً في بلدة الغازية قرب صيدا في على أقصى البلدة على سفح الجبل. من الغازية انتقلوا بالقطار مع آخرين إلى حلب ثم إلى الزبداني ثم إلى دمشق حيث استقر بهم المقام في منزل قديم من منازل دمشق وبدأت هناك مرحلة أخرى قاسية من مراحل حياة الأسرة. (ذكريات هذه المرحلة ظهرت في "أرض البرتقال الحزين").

أثناء دراسته الثانوية برز تفوقه في الأدب العربي والرسم وعندما أنهى الثانوية عمل في التدريس في مدارس اللاجئين، والتحق بجامعة دمشق لدراسة الأدب العربي. في هذا الوقت كان قد انخرط في حركة القوميين العرب. في أواخر عام 1955 التحق للتدريس في المعارف الكويتية، وهناك بدأ يحرر في إحدى صحف الكويت ويكتب تعليقاً سياسياً بتوقيع "أبو العز". في الكويت كتب أيضاً أولى قصصه القصيرة "القميص المسروق". ظهرت عليه بوادر مرض السكري في الكويت أيضاً وكانت شقيقته قد أصيبت به من قبل وفي نفس السن المبكرة مما زاده ارتباطاً بها وبالتالي بابنتها لميس نجم. (ذكريات العودة من الكويت ظهرت في "رجال في الشمس").

أقام في بيروت منذ 1960، وعمل محرراً أدبياً لجريدة "الحرية" الأسبوعية، ثم أصبح عام 1 رئيساً لتحرير جريدة "المحرر" كما عمل في "الأنوار" و"الحوادث" حتى عام 1969 ليؤسس بعد ذلك صحيفة "الهدف" التي بقي رئيساً لتحريرها حتى يوم استشهاده صباح يوم السبت 8/7/1972 بعد أن انفجرت عبوات ناسفة كانت قد وضعت في سيارته تحت منزله، مع ابنة شقيقته لميس نجم (17 سنة).

نقلت أعماله إلى ست عشرة لغة، ونشرت في عشرين بلداً. من مؤلفاته:

- موت سرير رقم 12 (قصص) 1961: استوحاها من مكوثه في المشفى بسبب المرض.
- أرض البرتقال الحزين (قصص) 1963: تحكي قصة رحلة عائلته من عكا وسكناهم في الغازية

- رجال في الشمس (رواية) 1963: مستمدة من حياته وحياة الفلسطينيين بالكويت إثر عودته إلى دمشق في سيارة قديمة عبر الصحراء.
- عالم ليس لنا (قصص) 1965
- ما تبقى لكم (رواية)1966
- القبعة والنبي (مسرحية) 1967
- العاشق (رواية غير كاملة) بدأ كتابتها عام 1966
- برقوق نيسان (رواية غير كاملة) 71 - 72

بالإضافة إلى مجموعة من الدراسات والمقالات السياسية والفكرية والنقدية.

حصل على جائزة "أصدقاء الكتاب في لبنان" لأفضل رواية عن روايته "ما تبقى لكم" عام 1966، كما نال جائزة منظمة الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام 1974، ونال جائزة "اللوتس" التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا عام 1975.

يطرح اليوم غسان كنفاني علينا جميعاً أسئلته الصعبة.. أين أصبحت أم سعد؟

أين الأرض والبرتقال الحزين؟

كيف نعيش في عالم ليس لنا؟

ماذا حدث للرجال والبنادق؟

توفيق زياد

شاعر وكاتب سياسي فلسطيني من مدينة الناصرة، ولد عام 1932.

بدأ دراسته في مدينة الناصرة، وانتقل بعدها إلى موسكو لدراسة الأدب الروسي - السوفييتي، كان عضواً في الحزب الشيوعي الإسرائيلي المسمى راكاح وأصبح عضوًا في الكنيست الإسرائيلي في عدّة دورات انتخابية عن حزب راكاح منذ العام 1976، كما كان رئيساً لبلدية الناصرة منذ 1975 حتى وفاته.

لعب دوراً مهماً في إضراب أحداث يوم الأرض في 30 أيار عام 1975، حين تظاهر ألوف من العرب من فلسطينيي إسرائيل ضد مصادرة الأراضي وتهويد الجليل.

له العديد من الأعمال الأدبية من أشهرها "أشد على أياديكم" المنشورة عام 1966، كما قام بترجمة عدد من الأعمال من الأدب الروسي ومن أعمال الشاعر التركي ناظم حكمت.

أعماله الشعرية

- أشدّ على أياديكم (1966).
- ادفنوا موتاكم وانهضوا (1969).
- أغنيات الثورة والغضب (1969).
- أم درمان المنجل والسيف والنغم (1970).
- شيوعيون (1970).
- كلمات مقاتلة (1970).
- عمان في أيلول (1971).
- تَهليلة الموت والشهادة (1972).
- سجناء الحرية وقصائد أخرى ممنوعة (1973).

أعماله الأخرى

- عن الأدب الشعبي الفلسطيني/دراسة (1970).
- نصراوي في الساحة الحمراء/يوميات (1973).
- صور من الأدب الشعبي الفلسطيني/دراسة (1974).
- حال الدنيا/حكايات فولكلورية (1975).

توفي توفيق زياد في حادث طرق في الخامس من تموز عام 1994 على طريق رام الله - الناصرة.

من وراء القضبان

-1

ألقوا القيود على القيود
فالقيد أوهى من زنودي
لي من هوى شعبي،
ومن حب الكفاح، ومن صمودي
عزم.. تسعّر في دمي
ناراً على الحطب الشديد
يا طغمة أسقيتها..
كأس المذلة، من قصيدي
مرّغتها في الوحل حتى جيدها
ونصبت جيدي
وبصقتُ ملء عيونها
حقدي على عيش العبيد
يا طغمة المسخ الجبانِ
يضجّ- موتور الوعيدِ
لا تحسبي زرد الحديدِ
ينال من همم الأسودِ

* * *

حولي الرفاق، كأنهم
لهب تمنطق بالحديدِ
عشرون كالغضب الملقّح

نطفة البأس العنيدِ
عشرون من شعب
تحول في الكفاح إلى جنود
في غرفة سوداء - لولا..
حزمة النور البديدِ
يعلو بها صوت النشيد، كأنه..
قصف الرعود
يأتي إلينا يلهث السجان،
كالذئب الطريدِ
ويصيح" "ما هذا.."
فيغرق صوته موج النشيدِ

-2

دارت يد السجان بالمفتاح
تغلق كل بابِ
إلا بقايا كوة
من خلفها تبدو الروابي
ويلوح رأس الكرمل المخمور
بُرقعَ بالضباب
الفجر فوق جبينه المعتزّ
كالعاج المذابِ
وتلوح بين شعابه الخضراء
في كنف الهضابِ
أعشاش عشاق تطوّف حولها
قُبل الشباب
وأزاهر مكحولة، وكأنها
مقل الكعابِ
والريح تهمس
للصنوبر، للبراعم، للغيابِ
يا طيب تلك الوشوشات،

كأنها همس التصابي
غمزت جوانحنا فهاجت
بادّكارات عذاب

* * *

يا حامل المفتاح
ما شوقي لأكل أو شراب
كلا.. ولا للقاء أم
قد تعودت اغترابي
لكنه للشارع المطلول فيه
دمّ الشبابِ
زحفت جوانبه بشعب
غير محنيّ الرقابِ

-3

إن يحبسونا.. إنهم لن يحبسوا
نار الكفاح
لن يحبسوا عزم الشباب الحر
يعصف كالرياحِ
لن يحبسوا أغنية
تعلو على هذي البطاحِ
شرقية عربية الألحان
حمراء الجناحِ
طلعت على الأرض الخصيبة
مثل آلهة الصباحِ

* * *

لن يحبسوا حباً لشعب
ضارب في كل ناحِ
شعب يقلبه الطغاة على
فراش من جراح

عشرٌ- تحداها..
بآمال منورة.. وضاحِ
الخيمة السوداء أذبلها الحنين
إلى الرواحِ
ومضت بها حدَق العيون، كأنها
حد السلاحِ
متطلعات للذرى الشماء
في الوطن المباحِ
للتين، للزيتون،
للطير المصفد، للأقاحِ
للطل يلمع في السنا
وكأنه ريقُ الملاحِ
للمرجة الخضراء..
للبيت المعرّش.. للمراحِ

*   *   *

ما ضاع حق.. خلفه عيناكَ
يا شعب الأضاحي

-4

يا طغمة الحكام زيدي
هل لاضطهادك من مزيدِ..؟
ألقي القيود على القيودِ
سوداء، باردة الحديدِ
سيعود شعبي في ضياء الشمس..
من خلف الحدودِ
سيعود للطلل المهدّم
يبتنيه من جديدِ
سيعود للأرض الحبيبة،
للزنابق، للورودِ

سيعود..

رغم النار، والأغلال،

خفاق البنودِ

سجن الرملة: أيار 1958

سميح القاسم

ولد لعائلة درزية فلسطينية في مدينة الزرقاء الأردنية عام 1929، وتعلّم في مدارس الرامة والناصرة. عمل كمدرس، ثم انصرف بعدها إلى نشاطه السياسي في الحزب الشيوعي قبل أن يترك الحزب ويتفرّغ لعمله الأدبي. سجن أكثر من مرة كما وضع رهن الإقامة الجبرية بسبب أشعاره ومواقفه السياسية.

أعماله الشعرية والنثرية:

- مواكب الشمس 1958
- أغاني الدروب 1964
- دمي على كتفي 1968
- دخان البراكين 1968
- سقوط الأقنعة 1969
- ويكون أن يأتي طائر الرعد 1969
- رحلة السراديب الموحشة 1969
- طلب انتساب للحزب 1970
- قرآن الموت والياسمين 1971
- الموت الكبير 1972
- وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم 1971
- ديوان الحماسة/ج 1 1978
- ديوان الحماسة/ج 2 1979
- أحبك كما يشتهي الموت 1980
- ديوان الحماسة/ج 3 1981
- الجانب المعتم من التفاحة، الجانب المضيء من القلب 1981
- جهات الروح 1983
- قرابين 1983
- برسونا نون غراتا: شخص غير مرغوب فيه 1986
- لا أستأذن أحداً 1988
- سبحة للسجلات 1989
- أخذة الأميرة يبوس 1990
- الكتب السبعة 1994
- أرض مراوغة. حرير كاسد. لا بأس 1995
- سأخرج من صورتي ذات يوم 2000
- إسكندرون في رحلة الخارج ورحلة الداخل 1970

- مراثي سميح القاسم 1973
- إلهي إلهي لماذا قتلتني؟ 1974
- ثالث أكسيد الكربون 1976
- الصحراء 1984
- خذلتني الصحارى 1998
- إلى الجحيم أيها الليلك 1977
- الصورة الأخيرة في الألبوم 1980
- عن الموقف والفن/نثر 1970
- من فمك أدينك/نثر 1974
- كولاج/تعبيرات 1983
- رماد الوردة، دخان الأغنية/نثر 1990

حسرة الزلزال/نثر 2000

أعماله المسرحية:

- قرقاش 1970
- المغتصبة ومسرحيّات أخرى 1978

من وراء القضبان

السجين الأول

دوريّة البوليس لا تنامْ
ما فتئت تبحر في مستنقع الظلام
تجوس كل قرية.. تطرق كل بابْ
وتَنْكُتُ العتمةَ في الأزقة السوداء
من غيظها.. تكاد أن تُقلّب الجيوب
لعابرٍ.. كان لدى أصحاب!

* * *

يا بيتنا الوديع، يا شبّاكنا المضاء
ما أجمل السلامَ في حَلْقةِ أصدقاء
يطالعون الشعرَ، يشربون، يَروون من النّكات
ما يُضحك الأحياءَ من بليِّة الحياة!
وبينهم من جحفل الحرية الحمراء
محارب مخضُّب اللواء
سلاحه.. أشعار

تقطر من حروفها الدماء!

* * *

وداهمت مجلسَهم دوريةُ البوليس
لتلقيَ القبضَ على محارب وِجهتُهُ النهار
وباتت الخمرة في الكؤوس

(حذف الرقيب الصهيوني المقطعين الثاني والثالث من هذه الصفحة وهما على سعة سبع صفحات من الديوان)

رسالة من المعتقل

ليس لديّ ورقٌ، ولا قلمْ
لكنني.. من شدّة الحرّ، ومن مرارة الألم
يا أصدقائي.. لم أنمْ
فقلت: ماذا لو تسامرتُ مع الأشعار
وزارني من كوّة الزنزانةِ السوداء
لا تستخفّوا.. زارني وطواط
وراح، في نشاط
يُقبّل الجدران في زنزانتي السوداء
وقلتْ: يا الجريء في الزُوّار
حدّث!.. أما لديك عن عالمنا أخبار؟!
فإنني يا سيدي، من مدّةٍ
لم أقرأ الصحف هنا.. لم أسمع الأخبار
حدث عن الدنيا، عن الأهل، عن الأحباب
لكنه بلا جواب!
صفّق بالأجنحة السوداء عبر كُوّتي.. وطار!
وصحت: يا الغريب في الزوّار
مهلاً! ألا تحمل أنبائي إلى الأصحاب؟

* * *

من شدة الحرّ، من البقّ، من الألم
يا أصدقائي.. لم أنم

والحارس المسكين، ما زال وراء الباب
ما زال.. في رتابةٍ يُنَقّل القدم
مثليَ لم ينم
كأنّه مثليَ، محكوم بلا أسباب!

* * *

أسندت ظهري للجدار
مُهدَّما.. وغصت في دوٍّامة بلا قرار
والتهبتْ في جبهتي الأفكار
أماه! كم يحزنني!
أنكِ، من أجليَ في ليلٍ من العذاب
تبكين في صمتٍ متى يعود
من شغلهم إخوتيَ الأحباب
وتعجزين عن تناول الطعام
ومقعدي خالٍ.. فلا ضِحْكٌ.. ولا كلام
أماه! كم يؤلمني!
أنكِ تجهشين بالبكاء
إذا أتى يسألكم عنّي أصدقاء
لكنني.. أومن يا أُماه
أومن.... أن روعة الحياه
تولد في معتقلي
أومن أن زائري الأخير.. لن يكونْ
خفّاش ليلٍ.. مدلجاً، بلا عيون
لا بدّ.. أن يزورني النهار
وينحني السجان في إنبهار
ويرتمي.. ويرتمي معتقلي
مهدماً.. لهيبةُ النهار!!

محمود درويش

ولد عام 1941 في قرية البروة (قرية فلسطينية مدمرة، يقوم مكانها اليوم قرية أحيهود، تقع

12.5 كم شرق ساحل سهل عكا). في عام 1948 لجأ إلى لبنان وهو في السابعة من عمره وبقي هناك عاماً واحداً، عاد بعدها متسللاً إلى فلسطين وبقي في قرية دير الأسد (شمال بلدة مجد كروم في الجليل) لفترة قصيرة استقر بعدها في قرية الجديدة (شمال غرب قريته الأم -البروة-). أكمل تعليمه الابتدائي بعد عودته من لبنان في مدرسة دير الأسد متخفياً، فقد كان يخشى أن يتعرض للنفي من جديد إذا كشف أمر تسلله. عاش تلك الفترة محروماً من الجنسية، أما تعليمه الثانوي فتلقاه في قرية كفر ياسيف. انضم إلى الحزب الشيوعي في إسرائيل، وبدأ كتابة الشعر والمقالات في الجرائد مثل "الاتحاد" والمجلات مثل "الجديد" التي أصبح فيما بعد مشرفاً على تحريرها، وهما تابعتان للحزب الشيوعي، كما اشترك في تحرير جريدة الفجر.

اعتقل أكثر من مرّة منذ عام 1961 بتهم تتعلق بأقواله ونشاطاته السياسية، حتى عام 1972 حين غادر إلى مصر، وانتقل بعدها إلى لبنان حيث عمل في مؤسسات النشر والدراسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد استقال محمود درويش من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير احتجاجاً على اتفاق أوسلو. شغل منصب رئيس رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ورئيس تحرير مجلة الكرمل، وأقام في باريس قبل عودته إلى وطنه حيث دخل إلى إسرائيل بتصريح لزيارة أمه، وفي فترة وجوده هناك قدم بعض أعضاء الكنيست الإسرائيلي العرب واليهود اقتراحاً بالسماح له بالبقاء في وطنه، وقد سمح له بذلك حيث يقيم في رام الله.

في السنين الأخيرة تغير شعر درويش من القصائد الحماسية الغنائية إلى الشعر الذاتي والفلسفي والإنساني.

أعماله

- عصافير بلا أجنحة (شعر).
- أوراق الزيتون (شعر).
- عاشق من فلسطين (شعر).
- آخر الليل (شعر).
- مطر ناعم في خريف بعيد (شعر).
- يوميات الحزن العادي (خواطر وقصص).
- يوميات جرح فلسطيني (شعر).
- حبيبتي تنهض من نومها (شعر).
- محاولة رقم 7 (شعر).
- أحبك أو لا أحبك (شعر).
- مديح الظل العالي (شعر).
- هي أغنية... هي أغنية (شعر).
- أعراس (شعر).
- العصافير تموت في الجليل (شعر).
- تلك صوتها وهذا انتحار العاشق (شعر).
- حصار لمدائح البحر (شعر).
- شيء عن الوطن (شعر).
- ذاكرة للنسيان (نثر)
- وداعاً أيتها الحرب وداعاً أيها السلم (مقالات).
- أرى ما أريد (شعر)
- لماذا تركت الحصان وحيداً (شعر)

- سرير الغريبة (شعر)
- جدارية (شعر)
- حالة حصار (شعر)
- لا تعتذر عما فعلت (شعر).
- كزهر اللوز أو أبعد (شعر)

أغاني الأسير

ملوّحة، يا مناديل حبّي
عليك السلام!
تقولين أكثر مما يقول
هديل الحمام
وأكثر من دمعة
خلف جفن.. ينام
على حلم هارب!
مفتّحة، يا شبابيك حبيّ
تمرّ المدينة
أمامك، عرس طغاة
ومرثاة أمّ حزينة
وخلف الستائر، أقمارنا
بقايا عفونه.
وزنزانتي.. موصدة!
ملوّثة، يا كؤوس الطفولة
بطعم الكهولة
شربنا،شربنا
على غفلة من شفاه الظمإ
وقلنا:
نخاف على شفتينا
نخاف الندى.. والصدأ!
وجلستنا، كالزمان، بخيله
وبيني وبينك نـهر الدم
معلّقه، يا عيون الحبيبة

على حبل نور
تكسّر من مقلتين
ألا تعلمين بأني
أسير اثنتين؟
جناحاي: أنت وحريتّي
تنامان خلف الضفاف الغريبة
أحبّكما، هكذا، توأمين!

برقية من السجن

من آخر السجن، طارت كفّ أشعاري
تشد أيديكم ريحاً..على نار
أنا هنا، ووراء السور، أشجاري
تطوّع الجبل المغرور.. أشجاري
مذ جئت أدفع مهر الحرف، ما ارتفعت
غير النجوم على أسلاك أسواري
أقول للمحكم الأصفاد حول يدي:
هذي أساور أشعاري وإصراري
في حجم مجدكم نعلي، وقيد يدي
في طول عمركم المجدول بالعار:
أقول للناس،للأحباب: نحن هنا
أسرى محبتكم في الموكب الساري
في اليوم، أكبر عاماً في هوى وطني
فعانقوني عناق الريح للنار

السجن

تغيرّ عنوان بيتي
وموعد أكلي
ومقدار تبغي تغيرّ
ولون ثيابي، ووجهي، وشكلي
وحتى القمر

عزيز عليّ هنا..

صار أحلى وأكبر

ورائحة الأرض: عطر

وطعم الطبيعة: سكر

كأني على سطح بيتي القديم

ونجم جديد..

بعيني تسمّر

بدر شاكر السياب

ولد عام 1926 في قرية جيكور على الفرات، قرب مدينة البصرة جنوب العراق. تنقل بين جيكور وأبي الخصيب والبصرة ثم بغداد لاستكمال تعليمه ليتخرج من دار المعلمين في بغداد في منتصف الأربعينات.

دخل في غمار الحياة السياسية وعانى منها الكثير فقد دخل السجن مرات وطرد من الوظيفة ونفي خارج البلاد. صدرت مجموعته الأولى "أزهار ذابلة" عام 1947 في القاهرة وكتب في منفاه أجمل قصائده ومناجاته الشعرية "غريب على الخليج".

زار بيروت عام 1960 لطبع ديوان له، وساهم في هذه الفترة في الحركة الشعرية والثقافية المتمثلة بصدور مجلة شعر وحوار والآداب. في هذه الفترة بالذات تدهورت صحته وصار يتنقل بين بيروت وباريس ولندن وراء العلاج وكان جسمه يهزل أكثر وأكثر (الاسم العلمي لمرضه هو ALS).

شكلت هذه السنوات الأخيرة بين 1960 - 1964 مأساة السياب الصحية والاجتماعية حيث شعر بتقدم المرض وتمكنه، إضافة إلى المنفى وأخيراً إصابته بالسل في رئتيه، حتى مات في يوم 24/12/1964 في المشفى الأميري في الكويت.

صدرت له المجموعات الشعرية التالية "أزهار وأساطير" و"المعبد الغريق" و"منزل القنان" و"أنشودة المطر" و"شناشيل ابنة الجلبي".

مأساة السياب في جسده أهم من مأساته السياسية، واللوحة الطاغية على حياته هي الألم من التلاشي والموت شاباً بعيداً عن أهله وأرضه أكثر من عزلة السجن.

غريبٌ على الخليج

الريح تلهث بالهجيرة، كالجثام، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تطوى أو تنشَّر للرحيل

زحم الخليج بهن مكتدحون جوّابو بحار

من كل حاف نصف عاري

وعلى الرمال، على الخليج

جلس الغريب، يسرح البصر المحيَّر في الخليج
ويهد أعمدة الضياء بما يصعد من نشيج
أعلى من العباب يهدر رغوه ومن الضجيج
صوت تفجر في قرارة نفسيَ الثكلى: عراق
كالمد يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي: عراق
والموج يعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما يكون
والبحر دونك يا عراق
بالأمس حين مررت بالمقهى، سمعتك يا عراق..
وكنت دورة أسطوانه
هي دورة الأفلاك في عمري، تكور لي زمانه
في لحظتين من الأمان، وإن تكن فقدت مكانه
هي وجه أمي في الظلام
وصوتها، يتزلقان مع الرؤى حتى أنام
وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهم مع الغروب
فاكتظ بالأشباح تخطف كل طفل لا يؤوب
من الدروب
وهي المفلّية العجوز وما توشوش عن (حزام)[(1)]
وكيف شق القبر عنه أمام عفراء الجميلة
فاحتازها.. إلا جديله
زهراء أنت.. أتذكرين
تنورنا الوهاج تزحمه أكف المصطلين؟
وحديث عمتيَ الخفيض عن الملوك الغابرين؟
ووراء باب كالقضاء
قد أوصدته على النساء
أيدٍ تطاع بما تشاء، لأنها أيدي رجال
كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال
أفتذكرين؟ أتذكرين؟

سعداء كنا قانعين
بذلك القصص الحزين لأنه قصص النساء
حشد من الحيوات والأزمان، كنا عنفوانه
كنا مداريْه اللذين ينام بينهما كيانه
أفليس ذاك سوى هباء؟
حلم ودورة أسطوانه؟
إن كان هذا كل ما يبقى فأين هو العزاء؟
أحببت فيك عراق روحي أو حببتُكِ أنت فيه
يا أنتما - مصباح روحي أنتما - وأتى المساء
والليل أطبق، فلتشعا في دجاه فلا أتيه
لو جئت في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء
الملتقى بك والعراق على يدي.. هو اللقاء
شوق يخض دمي إليه، كأن كل دمي اشتهاء
جوع إليه.. كجوع كل دم الغريق إلى الهواء
شوق الجنين إذا اشرأب من الظلام إلى الولاده
إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون
أيخون إنسان بلاده؟
إن خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟
الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام
حتى الظلام - هناك أجمل، فهو يحتضن العراق
واحسرتاه، متى أنام
فأحس أن على الوساده
من ليلك الصيفي طلّاً فيه عطرك يا عراق؟
بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة
غنيت تربتك الحبيبة
وحملتها فأنا المسيح يجر في المنفى صليبه،
فسمعت وقع خطى الجياع تسير، تدمى من عثار
فتذر في عيني، منك ومن مناسمها، غبار
ما زلت أضرب مترب القدمين أشعث، في الدروب

تحت الشموس الأجنبيه
متخافق الأطمار، أبسط بالسؤال يداً نديّه
صفراء من ذل وحمى: ذل شحاذ غريب
بين العيون الأجنبيه
بين احتقار، وانتهار، وازورار.. أو (خطيه)(1)
والموت أهون من (خطيه)
من ذلك الإشفاق تعصره العيون الأجنبيه
قطرات ماء.. معدنيه
فلتنطفئ، يا أنت، يا قطرات، يا دم، يا.. نقود
يا ريح، يا إبراً تخيط لي الشراع، متى أعود
إلى العراق؟ متى أعود؟
يا لمعة الأمواج رنّحهنّ مجداف يرود
بيَ الخليج، ويا كواكبه الكبيرة.. يا نقود
ليت السفائن لا تقاضي راكبيها من سفار
أو ليت أن الأرض كالأفق العريض، بلا بحار
ما زلت أحسب يا نقود، أعدّكن وأستزيد،
ما زلت أنقض، يا نقود، بكنّ من مُدَد اغترابي
ما زلت أوقد بالتماعتكن نافذتي وبابي
في الضفة الأخرى هناك فحدثيني يا نقود
متى أعود، متى أعود؟
أتراه يأزف، قبل موتي، ذلك اليوم السعيد؟
سأفيق في ذاك الصباح، وفي السماء من السحاب
كسر، وفي النسمات برد مشبع بعطور آب
و أزيح بالثؤباء بقيا من نعاسي كالحجاب
من الحرير، يشف عما لا يبين وما يبين
عما نسيت وكدت لا أنسى، وشكٍّ في يقين
ويضئ لي - وأنا أمد يدي لألبس من ثيابي -
ما كنت أبحث عنه في عتمات نفسي من جواب
لم يملأ الفرح الخفي شعاب نفسي كالضباب؟

اليوم - واندفق السرور علي يفجأني - أعود
واحسرتاه.. فلن أعود إلى العراق
وهل يعود
من كان تعوزه النقود؟ وكيف تدخر النقود
و أنت تأكل إذ تجوع؟ وأنت تنفق ما يجود
به الكرام، على الطعام؟
لتبكين على العراق
فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك، دون جدوى، للرياح وللقلوع.
الكويت 1953

سجين

ذراعا أبي تلقيان الظلال
على روحي المستهام الغريب
ذراعا أبي والسراج الحزين
يطاردني في ارتعاش رتيب
وحفت بي الأوجه الجائعات
حيارى فيا للجدار الرهيب
ذراعا أبي تلقيان الظلال
على روحي المستهام الغريب

* * *

وطال انتظاري كأن الزمان
تلاشى فلم يبق إلا انتظار
وعيناي ملء الشمال البعيد
فيا ليتني أستطيع الفرار
وأنتِ التقاء الثرى بالسماء
على الآل في نائيات القفار
وطال انتظاري كأن الزمان
تلاشى فلم يبق إلا انتظار!

*   *   *

ألقاك؟ تأتي على النجوم

و تمضي وما غير هذا السؤال

تغنيه في مسمعيّ الرياح

و تلقيه في ناظري الظلال

وترنو على جرسه الأمنيات

إلى ذكريات الهوى في ابتهال

ألقاك تأتي علي النجوم

و تمضي وما غير هذا السؤال

*   *   *

أصيخي! أما تسمعين الرنين

تدوي به الساعة القاسية؟؟

أصيخي فهذا صليل القيود

و قهقهة الموت في الهاويه!

زمان.. زمان- يهز النداء

فؤادي.. فأدعوك يا نائية

أصيخي أما تسمعين الرنين

تدوي به الساعة القاسية!؟

*   *   *

أما تبصرين الدخان الثقيل

يجر الخطى من فم الموقد

تلوى فأبصرت فيه الظهور

وقد قوستها عصا السيد

وأبصرت فيه الحجاب الكثيف

على جبهة العالم المجهد

أما تبصرين الدخان الثقيل

يجر الخطى من فم الموقد

*　　*　　*

ولا بد من ساعة.. من مكان

لروحين ما زالتا في ارتقاب

سألقاك.. أين الزمان الثقيل

إذا ما التقينا وأين العذاب؟!

سينهار على مقلتيك الجدار

و تفنى ذراعا أبي كالضباب

ولا بد من ساعة من مكان

لروحين ما زالتا في ارتقاب!

*　　*　　*

وكيف التلاقي وبين المنى

وإدراكهن الدخان الثقيل؟

تموج الأساطير في جانبيه

ويحبو على صدره المستحيل

ونحن الغريقان في لجه

سننسى الهوى فيه عما قليل

وكيف التلاقي وبين المنى

وإدراكهن الدخان الثقيل

*　　*　　*

لينهد هذا الجدار الرهيب

و تندك حتى ذراعا أبي

أحاطت بي الأعين الجائعات

مرايا من النار في غيهب

إذا استطعت مهرباً مقلتاي

تصدى خيالان في مهربي

فأبصرت ظلين لي في الجدار

أو استوقفتني ذراعا أبي

*   *   *

سأبقى وراء الجدار البغيض
وعيناي لا تبرحان الطريق
أعد الليالي خلال الكرى
وأرعى نجوم الظلام العميق
فلا تيأسي - أن تمر السنون
ويطفين في وجنتيك البريق
سأبقى وراء الجدار القديم
وعينان لا تبرحان الطريق

27/7/1947

محمد الماغوط

يقول الماغوط يخاطب زوجته بعد وفاتها:

ثلاثين سنة وأنت تحملينني
على ظهرك كالجندي الجريح
وأنا لْم أستطع
أن أحملك بضع خطوات إلى قبرك
أزوره متثاقلاً
وأعود متثاقلاً
لأنني لم أكن في حياتي كلها
وفيًّا أو مبالياً
بحب أو شرف أو بطولة
ولم أحب مدينة أو ريفاً
قمراً أو شجرة، غنياً أو فقيراً
صديقاً أو جاراً أو مقهى
جبلاً أو سهلاً، أو طفلاً أو فراشة
فكراهيتي للإرهاب
لم تترك لي فرصة
حتى لمحبة الله..

ولد الماغوط عام 1934 في مدينة سلمية التابعة لمحافظة حماه السورية. يعتبر أحد أهم رواد قصيدة النثر في الوطن العربي. زوجته الشاعرة الراحلة سنية صالح. أستطيع أن أختصر تجربة الماغوط بكلمة طالما كررها: كراهية الإرهاب.

أهم مؤلفاته

- حزن في ضوء القمر - شعر (1959)
- غرفة بملايين الجدران - شعر (1960)
- العصفور الأحدب - مسرحية 1960 (لم تمثل على المسرح)
- المهرج - مسرحية (مُثلت على المسرح 1960، طُبعت عام 1998 من قبل دار المدى)
- الفرح ليس مهنتي - شعر (1970)
- ضيعة تشرين - مسرحية (لم تطبع - مُثلت على المسرح 1973-1974)
- شقائق النعمان - مسرحية
- الأرجوحة - رواية 1974
- غربة - مسرحية (لم تُطبع - مُثلت على المسرح 1976)
- كاسك يا وطن - مسرحية (لم تطبع - مُثلت على المسرح 1979)
- خارج السرب - مسرحية (دار المدى - دمشق 1999، مُثلت على المسرح)
- حكايا الليل - مسلسل تلفزيوني
- وين الغلط - مسلسل تلفزيوني
- وادي المسك - مسلسل تلفزيوني
- حكايا الليل - مسلسل تلفزيوني
- الحدود - فيلم سينمائي
- التقرير - فيلم سينمائي
- سأخون وطني - مجموعة مقالات (1987)
- سياف الزهور - نصوص (2001)

أيها السائح

طفولتي بعيدة.. وكهولتي بعيده..

وطني بعيد.. ومنفاي بعيد

أيها السائح

أعطني منظارك المقرِّب

علَّني ألمح يداً أو محرمةً في هذا الكون تومئ إليّ

صوّرني وأنا أبكي

وأنا أقعي بأسمالي أمام عتبة الفندق

واكتبْ على قفا الصورة

هذا شاعرٌ من الشرق

ضعْ منديلك الأبيض على الرصيف

واجلسْ إلى جانبي تحت هذا المطر الحنون

لأبوح لك بسر خطير

اصرفْ أدلاءك ومرشديك

والقِ إلى الوحل.. إلى النار

بكل ما كتبت من حواشٍ وانطباعات

إن أيّ فلاح عجوز

يروي لك.." بيتين من العتابا"

كل تاريخ الشرق

وهو يدرج لفافته أمام خيمته

من مجموعة (الفرح ليس مهنتي) 1970

* * *

"أغنية لباب توما"

حلوة عيون النساء في باب توما

حلوة حلوه

وهي ترنو حزينة إلى الليل والخبز والسكارى

وجميلة تلك الأكتاف الغجرية على الأسرة

لتمنحني البكاء والشهوة يا أمي

ليتني حصاة ملوّنة على الرصيف

أو أغنية طويلة في الزقاق

هناك في تجويف من الوحل الأملس

يذكرني بالجوع والشفاه المشردة

حيث الأطفال الصغار يتدفقون كالملاريا

أمام الله والشوارع الدامسه

ليتني وردة جورية في حديقة ما

يقطفني شاعر كئيب في أواخر النهار

أو حانة من الخشب الأحمر

يرتادها المطر والغرباء

ومن شبابيكي الملطخة بالخمر والذباب

تخرج الضوضاء الكسولة
إلى زقاقنا الذي ينتج الكآبة والعيون الخضر
حيث الأقدام الهزيلة
ترتع دونما غاية في الظلام
أشتهي أن أكون صفصافة خضراء قرب الكنيسة
أو صليباً من الذهب على صدر عذراء
تقلي السمك لحبيبها العائد من المقهى
وفي عينيها الجميلتين
ترفرف حمامتان من بنفسج
أشتهي أن أقبّل طفلاً صغيراً في باب توما
ومن شفتيه الورديتين،
تنبعث رائحة الثدي الذي أرضعه،
فأنا ما زلت وحيداً وقاسياً
أنا غريب يا أمّي.
من مجموعة "حزن في ضوء القمر"

* * *

الوشم

الآن
في الساعة الثالثة من القرن العشرين
حيث لا شيء
يفصل جثثَ الموتى عن أحذيةِ المارة
سوى الإسفلت
سأتكئ في عرضِ الشارع كشيوخ البدو
ولن أنهض
حتى تجمع كل قضبان السجون وإضبارات المشبوهين
في العالم
وتوضع أمامي
لألوكها كالجمل على قارعة الطريق..

حتى تفرَّ كل هراواتِ الشرطة والمتظاهرين
من قبضات أصحابها
وتعود أغصاناً مزهرة (مرةً أخرى)
في غاباتها
أضحك في الظلام
أبكي في الظلام
أكتبُ في الظلام
حتى لم أعدْ أميّز قلمي من أصابعي
كلما قُرِعَ بابٌ أو تحرَّكتْ ستاره
سترتُ أوراقي بيدي
كبغيٍّ ساعةَ المداهمة
من أورثني هذا الهلع
هذا الدم المذعور كالفهد الجبليّ
ما إن أرى ورقةً رسميةً على عتبة
أو قبعةً من فرجة باب
حتى تصطكّ عظامي ودموعي ببعضها
ويفرّ دمي مذعوراً في كل اتجاه
كأن مفرزةً أبديةً من شرطة السلالات
تطارده من شريان إلى شريان
آه يا حبيبتي
عبثاً أستردُّ شجاعتي وبأسي
المأساة ليست هنا
في السوط أو المكتب أو صفارات الإنذار
إنها هناك
في المهد.. في الرَّحم
فأنا قطعاً
ما كنت مربوطاً إلى رحمي بحبل سرّه
بل بحبل مشنقة
من مجموعة (الفرح ليس مهنتي)

* * *

وطني

على هذه الأرصفة الحنونة كأمي
أضع يدي وأقسم بليالي الشتاء الطويلة
سأنتزع علم بلادي عن ساريته
وأخيط له أكماماً وأزراراً
وأرتديه كالقميص
إذا لم أعرف
في أي خريف تسقط أسمالي
وإنني مع أول عاصفة تهب على الوطن
سأصعد أحد التلال
القريبة من التاريخ
وأقذف سيفي إلى قبضة طارق
ورأسي إلى صدر الخنساء
وقلمي إلى أصابع المتنبي
وأجلس عارياً كالشجرة في الشتاء
حتى أعرف متى تنبت لنا
أهداب جديدة، ودموع جديدة
في الربيع؟

عبداللطيف اللعبي

ولد بمدينة فاس في المغرب سنة 1942. حصلٍ على الإجازة في الأدب الفرنسي سنة 1964 من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. عمل مدرساً في التعليم الثانوي بمدينة الرباط. وأشرف على إدارة مجلة "أنفاس" التي أسسها سنة 1966. اعتقل في آذار 1972 (لمدة تزيد عن ثماني سنوات ولم يطلق سراحه إلا في تموز 1980) بسبب أفكاره المتحررة ومعاداته لكل أسباب العنف والاضطهاد التي ذهب ضحيتها في السبعينات مجموعة من المثقفين والكتاب المغاربة. بعد خروجه اضطر اللعبي إلى مغادرة المغرب بحثاً عن آفاق أوسع للإبداع والكتابة رفقة مجموعة من الكتاب والشعراء المغاربة من بينهم الشاعر مصطفى النيسابوري. يجمع بين أجناس كتابية مختلفة (شعر، رواية، مسرح، فكر سياسي والكتابة للأطفال). له حضوره المتميز في المشهد الثقافي المغربي والعربي، إلى جانب حضوره على المستوى الدولي. يكتب باللغة الفرنسية بشكل أساسي وترجم إليها الكثير من الشعر العربي. انتخب عضواً في أكاديمية مالارميه سنة 1998. حصل الشاعر على جوائز أدبية قيمة منها: الجائزة الدولية للشعر من المؤسسة الوطنية للفنون بروتردام عام 1979 وجائزة

الحرية من البين كلوب؛ بفرنسا عام 1980 وجائزة فونلو نيكولي؛ الأدبية من أميركا عام 1999 وجائزة الشعر والوني - بروكسيل عام 1999

من أعماله الشعرية:

- سلالة، 1974.
- أزهرت شجرة الحديد، 1974.
- عهد البربرية، 1980.
- قصة مصلوبي الأمل السبعة، 1980.
- خطاب فوق الهضبة العربية، 1985
- جميع التمزقات، 1990.
- الشمس تحتضر، 1992.
- احتضان العالم، 1993.
- شجون الدار البيضاء، 1996.
- مقاطع من تكوين منسي، 1998.

له مساهمات كثيرة في الترجمة. ترجم إلى الفرنسية عدداً من الأعمال الشعرية المغربية والعربية إلى جانب إعداده لأنثولوجيات شعرية، منها (أنثولوجيا المقاومة الفلسطينية)، وأنثولوجيا الشعر المغربي.

يقول بخصوص كتابات السجن في المغرب برفض الحكم عليها بمعايير أدبية ونقدية بل يرجح المعايير الإنسانية لأنها شهادة إنسانية بالأساس لا تتحمل إقحامها في الإشكالات الأدبية ما دام هدفها الأساسي هو الاشتغال على الذاكرة وإضاءة تلك العتمة التي لحقت سنوات الاعتقال والسجن بالمغرب.

يقول أيضاً: أنا لست كاتب سجن الآن، بل كاتب الأسئلة الراهنة القلقة في الحياة المعاصرة.

أضع هنا بعض كتابات اللعبي وفيها نجد الهم الإنساني طاغياً، ومفهوم المنفى، والوطن السجن/ السجن الوطن.

عبثاً أهاجر

ترجمة يعقوب المحرقي

أهاجر عبثاً

في كل مدينة أرى ذات المقهى

أستسلم للوجه العابس للنادل

لضحكات جيراني على الطاولة

بلولب موسيقى المساء

امرأة تمر للمرة الأخيرة

عبثاً أهاجر

وأتأكد من ابتعادي

في كل سماء أجد بدراً

والصمت العنيد للنجوم
أتكلم في نومي
مزيجاً من اللغات
وصراخاً للحيوانات
الغرفة حيث ولدت
أهاجر عبثاً
يهرب مني سر العصافير
كسر هذه الجاذبية
التي في كل محطة
ترعب حقيبتي.

* * *

ساعتان في قطار

في ساعتين بالقطار
أستعرض فيلم حياتي
بمعدل دقيقتين في السنة
نصف ساعة للطفولة
وأخرى للسجن،
الحب، الكتب، والتسكع
تتقاسم الباقي
يد صاحبتي
تذوب شيئاً فشيئاً في يدي
ورأسها على كتفي
بخفة حمامة
عند وصولنا
سأبلغ الخمسين
وسيبقى لي من الحياة
ساعة تقريباً

مظفر النواب

شاعر عربي واسع الشهرة، تنقل بين العواصم العربية شاعراً مشرداً يكتب الشعر السياسي العميق والحاد والجارح أحياناً. ولد في بغداد-جانب الكرخ عام 1934 من أسرة ثرية أرستقراطية تتذوق الفنون والموسيقى وتحتفي بالأدب. درس في كلية الآداب ببغداد في ظروف اقتصادية صعبة، حين تعرض والده الثري إلى هزة مالية عنيفة أفقدته ثروته، وسلبت منه قصره الأنيق الذي كان يموج بندوات ثقافية.بعد عام 1958، أي بعد انهيار النظام الملكي في العراق، تم تعيينه مفتشاً فنياً بوزارة التربية في بغداد، فأتاحت له هذه الوظيفة الجديدة تشجيع ودعم الموهوبين من موسيقيين وفنانين تشكيليين، لئلا تموت موهبتهم في دهاليز الأروقة الرسمية والدوام الشكلي المقيت.

في عام 1963 غادر العراق، بعد اشتداد التنافس الدامي بين القوميين والشيوعيين، إلى إيران عن طريق البصرة، إلا ان المخابرات الإيرانية في تلك الأيام (السافاك) ألقت القبض عليه وهو في طريقه إلى روسيا، حيث أخضع للتحقيق البوليسي وللتعذيب الجسدي والنفسي، لإرغامه على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

في 28/12/1963 سلمته السلطات الإيرانية إلى الأمن السياسي العراقي، فحكمت عليه المحكمة العسكرية بالإعدام، إلا أن المساعي الحميدة التي بذلها أهله وأقاربه أدت إلى تخفيف الحكم القضائي إلى السجن المؤبد.

وفي سجنه الصحراوي (نقرة السلمان) القريب من الحدود السعودية - العراقية، أمضى وراء القضبان مدة من الزمن ثم نقل إلى سجن (الحلة) الواقع جنوب بغداد.

في هذا السجن الرهيب الموحش قام ومجموعة من السجناء السياسيين بحفر نفق من الزنزانة المظلمة، يؤدي إلى خارج أسوار السجن، فأحدث هروبه مع رفاقه ضجة مدوية.

وبعد هروبه المثير من السجن توارى عن الأنظار في بغداد، وظل مختفياً فيها ستة أشهر، ثم توجه إلى الجنوب (الأهواز)، وعاش مع الفلاحين والبسطاء حوالي سنة. وفي عام 1969 صدر عفو عن المعارضين فرجع إلى سلك التعليم مرة ثانية.

حدثت اعتقالات جديدة في العراق، فتعرض إلى الاعتقال مرة ثانية، إلا أن تدخل علي صالح السعدي أدى إلى إطلاق سراحه. غادر بغداد إلى بيروت في البداية، ومن ثم إلى دمشق، وراح ينتقل بين العواصم العربية والأوروبية، واستقر به المقام أخيراً في دمشق.

كرس حياته لتجربته الشعرية وتعميقها، والتصدي للأحداث السياسية التي تلامس وجدانه الذاتي وضميره الوطني. يعرف بالشاعر العربي المناضل.

وتريات ليلية

في تلك الساعة من شهوات الليل

وعصافير الشوك الذهبية

تستجلي أمجاد ملوك العرب القدماء

وشجيرات البر تفيح بدفء مراهقة بدوية

يكتظ حليب اللوز

ويقطر من نهديها في الليل

وأنا تحت النهدين

إناء

*   *   *

في تلك الساعة حيث تكون الأشياء
بكاءً مطلقاً
كنت على الناقة مغموراً بنجوم الليل الأبدية
أستقبل روح الصحراء
يا هذا البدوي الضالع بالهجرات
تزود قبل الربع الخالي
بقطرة ماء

*   *   *

أبول على الشرطة الحاكمين
إنه زمن البول فوق المناضد والبرلمانات والوزراء
أبول عليهم بدون حياء
فقد حاربونا بدون حياء

*   *   *

في تلك الساعة من ساعات الليل يجوع إنائي
والكلمات يصلن لحد الإفراز
في العاشر من نيسان بكيت على أبواب "الأهواز"
فخذاي تشقق لحمهما من أمواس مياه الليل
أخذت حشائش برية
تكتظ برائحة الشهوة
أغلقت بهن جروحي
لكن الناموس تجمع في خيط الفردوس المشدود كنذر في رجلي
ناديت:
إله البر سيكتشفوني
وسأقتل في البر الواسع
والريح على أفق البصرة تذروني
ويد الطين ستمسح عن جبهتي المشتاقة
نيران جنوني

*   *   *

يا غرباء الناس

بلادي كصناديق الشاي مهربة

أبكيك بلادي

أبكيك بحجر الغرباء

وكل الحزن لدى الغرباء، مذلة

إلام ستبقى يا وطني ناقلة للنفط

مدهنة بسخام الأحزان

وأعلام الدول الكبرى

ونموت مذلة؟!

*   *   *

إلام أنا وطن في العزلة؟

يا غرباء الناس أغص لأن الدمع يجرح أجفاني

في الحلم يطينني الدمع

وتأتي الأفراح كسلسلة من ذهب كنزك

يا ملك الأنهار بقلب بلادي

أبكيك بلاد الذبح

كحانوت تعرض فيه ثياب الموتى

*   *   *

في تلك الساعة من شهوات الليل

وقرى الأهواز المسروقة من وطني

يتسلل نحو مخادعها

ملك الريح بأقصى الصحراء

والزغب النسوي هناك

يتيه كرأس الهدهد في البرية

يكتظ عليه الدفء كجمرة ليل

وأنا فوق الجمرة مقلوب كأناء

*   *   *

وطني علمني، علمني
أن حروف التاريخ مزورة
حين تكون بدون ماء

*   *   *

وطني أنقذني
رائحة الجوع البشري مخيفة
وطني أنقذني
من مدن سرقت فرحي
أنقذني من مدن يصبح فيها الناس
مداخن للخوف وللزبل
مخيفة
من مدن ترقد في الماء الأسن
كالجاموس الوطني
وتجتر الجيفة
أنقذني كضريح نبي مسروق
في هذي الساعة في وطني
تجتمع الأشعار كعشب النهر
وترضع في غفوات البر
صغار النوق
يا وطني المعروض كنجمة صبح في السوق

*   *   *

في العلب الليلية يبكون عليك
ويستكمل بعض الثوار رجولتهم
ويهزون على الطبلة والبوق

*   *   *

فالقلب تعلم غربته

وتعلم بالبرق

تعلم ينضج كل النضج

فيسقط بالطعم الحلو

ويسقط فيه الطعم الحلو

وأرهف..، وامتنع النوم عليه

لأبواق الأزلية

عرف المفتاح الكامن في القفل

وما يربطه بالقفل الكامن في المفتاح

فباحت كل الأشياء

يا هذا البدوي المسرف بالهجرات! لقد ثقل الداء

قتر ريقك لليل

فلا بد لهذا الليل دليل

يعرف درب الآبار

ويقنع بالحدو الناقة، بالصحراء

يا هذا البدوي! تزود..

واشرب ما شئت

فهذا آخر عهدك بالماء

* * *

من يخبر روحي

أن تطفئ فانوس العشق

وتغلق هذا الشباك

فإن غبار الليل تعرى كالطفل

وإن مسافات خضراء احترقت في الوعي

فأوقدت ثقاباً أزرق

في تلك النيران الخضراء

لعلي في النار

أرى..

ولعل اللحظة تعرفني

من ذلك يأتي بين النث وبين عواء الذئب

وبين هروبي في النخل
يرافقني نصف الدرب
وبعد النصف... يقول
يرافقني!!

* * *

ومزقت الأثواب علي
ابتسم الجلاد كأن عناكب قد هربت
أمسكني من كتفي وقال
على هذا الكرسي خصينا بعض رفاق
فاعترف الآن
على هذا الكرسي.. اعترف الآن..
اعترف الآن..
اعترف..اعترف..اعترف الآن..
عرقت.. وأحسست بأوجاع في كل مكان من جسدي

* * *

- اعترف الآن..
وأحسست بأوجاع في الحائط
أوجاع في الغابات وفي الأنهار وفي الإنسان الأول

* * *

- أنقذ مطلقك الكامن في الإنسان!
توجهت إلى المطلق في ثقة. كان أبو ذر خلف زجاج الشباك
المقبل
يزرع في شجاعته فرفضت
رفضت
وكانت أمي واقفة قدام الشعب بصمت.. فرفضت

* * *

- اعترف الآن.. اعترف الآن

رفضت

وأطبقت فمي، فالشعب أمانة في عنق الثوري

رفضت

*   *   *

تقلص وجه الجلادين

وقالوا في صوت أجوف:

نتركك الليلة

راجع نفسك

*   *   *

أدركت اللعبة

في اليوم التاسع كفوا عن تعذيبي

نزعوا القيد فجاء اللحم مع القيد

أرادوا أن أتعهد

أن لا أتسلل ثانية للأهواز

صعد النخل بقلبي

صعدت إحدى النخلات بعيداً أعلى من كل النخلات

تسند قلبي فوق السعف كعذق

من يصل القلب الآن..؟؟

*   *   *

قدمي في السجن، وقلبي بين عذوق النخل

وقلت بقلبي: إياك

فللشاعر ألف جواز في الشعر

وألف جواز أن يتسلل للأهواز

يا قلبي! عشق الأرض جواز

وأبو ذر وحسين الأهوازي وأمي والشيب من الدوران ورائي

من سجن الشاه إلى سجن الصحراء

إلى المنفى الربذي، جوازي

*   *   *

نوال السعداوي

من مواليد قرية كفر طحلة - مصر. كاتبة قصة ورواية ومسرح. لها شهرة عالمية، وقد اختيرت واحدة من أهم عشرين شخصية أثرت في الفكر العالمي المعاصر. وهي أيضاً ناشطة نسائية ومدافعة عن حقوق المرأة في مصر، ولها اجتهادات في الفقه والدين مثيرة للجدل. قامت ضدها دعوى لتفريقها عن زوجها شريف حتاتة بتهمة الردة، وفي التسعينات كانت على قائمة المهدور دمهم بحجة الإساءة للدين والكفر.

لها قرابة خمسين كتاباً في الأدب وحقوق المرأة، ترجمت إلى العديد من لغات العالم. أذكر من كتبها المثيرة للجدل "سقوط الإمام" وتقصد بالإمام "السادات" لأنه حسب رأيها اعتبر نفسه إماماً للمسلمين والعرب.

ولها كتاب "مذكراتي في سجن النساء": تروي قصة سجنها أيام السادات. كتبت السعداوي سيرتها الذاتية في "أوراقي حياتي" في ثلاثة أجزاء.

أقتطف من سيرتها هذا المقطع:

سمعت شريف يهتف مع الناس: الموت حتى النصر! عيناه يكسوهما بريق الحلم الطفولي، كالدمعة الحبيسة لا تسقط ولا تجف. خرج من السجن بعد حكم بالأشغال الشاقة أربعة عشر عامًا. خرج نحيف العود منتصب الرأسِ أكثر صلابة مما كان. لم يفقد الحلم ولا الأمل. يفكر بالليل والنهار في الثورة. يهب من النوم حاملاً سلاحه. يندفع في الظلام يمشي في النوم. يمشي فوق الموت لا يتوقف. يسقط بين أيدي البوليس. يدخل السجن ويخرج ثم يدخل ويخرج. يسير إلى جواري صامتاً يفكر. الرجال من حوله يتكلمون ويثرثرون. يتناثر في الجو رذاذ لعابهم. لا يكفون عن الكلام. يقاطع بعضهم البعض. يتكلمون في وقت واحد وهو صامت، وإذا تكلم هو صمت الجميع.

منذ أن صدرت القرارات الاشتراكية عام 1962 أصبح الناس أعضاء في الاتحاد الاشتراكي. صدرت الأوامر الإدارية ودخل الموظفون والموظفات الحزب الوحيد. لم يتخلف أحد في الوزارات أو الجامعات أو مؤسسات الدولة خوفاً من الجهاز الحكومي، أقدم جهاز في التاريخ البشري منذ الفراعنة. لم يعرف الشعب المصري إلا حكم الفراعنة أو الاحتلال الأجنبي. جاء القرن الواحد والعشرون ولم يتحرر الشعب المصري بعد. تغيرت الأسماء والوجوه والألقاب وطرق الاستعباد والاستبداد، وبقي فرعون على حاله ومعه الاحتلال الأجنبي. تخلص الشعب المصري من السيطرة الأجنبية بضعة أعوام قليلة ثم سرعان ما عادوا.

كلمة "الاشتراكية" كانت تجري على لسان جمال عبد الناصر قبل الهزيمة بأعوام قليلة، بالضبط منذ عام 1962، ما يجري على لسان رئيس الدولة يجري على ألسنة رجال البلاط من الوزراء والموظفين والمثقفين من أصحاب الأقلام في الصحف والمجلات. بدأت الوجوه تظهر على شاشة التلفزيون، السيد الرئيس من حوله كبار رجال الدولة والأدباء والصحفيين، أصبحوا يحملون لقب النخبة، يندرجون تحت فئة المثقفين، إحدى فئات الشعب العامل الخمسة "العمال والفلاحون والجنود والرأسمالية الوطنية والمثقفون". كلمة فئات تبدو أكثر براءة من كلمة طبقات، مفردها كلمة طبقة، تنطوي على الصراع الطبقي أو الشيوعية. رئيس الدولة أصبح ينطق عبارة جديدة "تذويب الفوارق بين الطبقات"، انتشرت العبارة في كل مكان، يرددها رجال البلاط والمثقفون وأصحاب الأقلام. ينطقون العبارة بصوت رئيس الدولة، واللهجة ذاتها، يخرجون لسانهم عند نطق حرف الذال في كلمة "تذويب".

منذ المؤتمر الوطني للقوى الشعبية عام 1962 لم ألتق بالدكتور رشاد إلا على شاشة التلفزيون، أو في الطريق بالصدفة. كان عضواً في المؤتمر الوطني مثلي عام 1962 إلا أنه كان يجلس في الصفوف الأمامية مع النخبة المثقفة. كنت أجلس في الصفوف الخلفية مع الشباب. حين جاء دوري في الكلام قلت بصوت سمعه الجالسون فوق المنصة منهم جمال عبد الناصر ووزير الداخلية. تعكرت الوجوه وأنا أقول الفلاح هو الذي بوله أحمر، هذا ما سمعته من جدتي الفلاحة، أهناك فلاح واحد في مصر لا ينزف الدم مع البول؟ ينتشر مرض البلهارسيا في الريف بنسبة 99%، سجل وزير الداخلية اسمي الثلاثي فوق ورقة أمامه. بعد الاجتماع استوقفني الدكتور رشاد عند الباب الخارجي للجامعة في الجيزة، وقال "إيه ده كلام يتنال يا نوال؟ الفلاح بوله أحمر؟! ده تهكم واضح على الاشتغاكية وسيادة الغيس شخصياً". (يعنى الاشتراكية وسيادة الريس).

منذ هذا المؤتمر عام 1962 دخل اسمي القائمة السوداء، أصبح لي دوسيه صغير في وزارة الداخلية يحمل اسمي الثلاثي، الأب والجد السعداوي الذي مات قبل أن أولد. بعد أن تزوجت شريف حتاتة في ديسمبر 1964 أضيف إلى اسمي كلمة أخرى سيئة السمعة "شيوعية" يضيفون إليها كلمة أكثر سوءًا "حمراء"، لي جريمة سابقة تصطبغ باللون الأحمر، هي عبارتي عن الفلاح وبوله الأحمر وأنا امرأة أيضاً، المرأة الحمراء ليست كالرجل الأحمر، كان في مصر رجل يسمونه "الباشا الأحمر" تعني الباشا الشيوعي: يمكن للرجل أن يكون أحمر دون المساس بأخلاقه، فهي كلمة سياسية، أما المرأة الحمراء فهي تندرج مثل الليالي الحمراء تحت بند الأخلاق، مثل "امرأة الشارع" في اللغة تعني المومس أما رجل الشارع فهو المواطن الكادح من فئات الشعب، الرجل الحر يعني الرجل الأبي الشجاع المدافع عن الحرية، أما المرأة الحرة أو الداعية إلى حرية المرأة فهى إباحية تدعو إلى الفساد الأخلاقي.

سكن شريف معي في شقتي الصغيرة بشارع مراد بالجيزة. أصبحت الشقة تحت المراقبة ثمانية وعشرين عامًا حتى انتقلنا منها. كانت مراقبة غير دائمة متقطعة حسب ذبذبات الحكم في مصر، حكم مذبذب بين اليسار واليمين، يستقر في الوسط دون نظرية أو فكر، ينتقل من النقيض إلى النقيض بين يوم وليلة، يلعن الاستعمار كالشيطان يوماً ويقدسه كالإله في يوم آخر، ما بين هذا وذاك يتحول الأصدقاء إلى أعداء، أو الأعداء إلى أصدقاء.

مثل هذا الحكم لا يؤدي في النهاية إلا إلى الهزيمة. منذ ولدت في بداية الثلاثينات حتى اليوم لم تشهد بلادنا إلا الهزيمة وراء الهزيمة، حل الأمريكان محل الإنجليز ودولة إسرائيل أصبحت تملك الترسانة النووية والسلطة العليا، تحلم بأرض الله الموعودة من النيل إلى الفرات، لم يعد الفرات بعيداً عنها بعد حرب الخليج عام 1991، منذ عهد السادات وبداية عصر الانفتاح عام 1974 كف رجال البلاط والنخبة المثقفة عن نطق كلمة الاشتراكية، أصبحت من الكلمات المحظورة، عادت مصر إلى مجتمع النصف في المائة. ازداد الفقراء فقرًا والأثرياء ثراء، فتحت البورصة أبوابها المغلقة منذ العهد الملكي القديم. انتشرت كلمة الديموقراطية والليبرالية. تجمع نفر من النخبة المثقفة في قصر السادات وصدر قرار جمهوري بإنشاء المعارضة والأحزاب السياسية. أصبح حزب الحكومة هو الأكبر، يمكن عند الضرورة أن يبتلع الأحزاب الأخرى، يمين ويسار ووسط، كما ابتلعت عصا موسى الثعابين الصغيرة.

لم أدخل أي حزب بطبيعة الحال، كتبت مقالاً بجريدة الشعب، إحدى الصحف الجديدة التي حملت اسم حزب العمل، أحد الأحزاب المعارضة. كان مقالاً بعنوان: من ينشئ الأحزاب في مصر، الشعب أم الحاكم؟ وفي يوم 6 سبتمبر 1981 اقتحم رجال البوليس بيتي في شارع مراد بالجيزة، كسروا الباب وأخذوني إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية، وجدت نفسي متهمة بالتآمر لقلب نظام الحكم في مصر لحساب دولة أجنبية إسمها بلغاريا، لماذا بلغاريا بالذات؟ لا أعرف.

لم أسافر في حياتي إلى بلغاريا. ليس لي معرفة بامرأة بلغارية أو رجل بلغاري، لا أعرف اللغة

البلغارية، لا أكاد أعرف شيئاً عن بلغاريا، أنسى موقعها فوق خريطة العالم.

إن تلفيق التهم للمعارضين أمر معروف في كل العهود، في كل البلاد، لكن هذه التهمة كانت أشبه ما تكون بالنكتة، يضحك شريف ويقول: كده يا نوال تتآمري مع بلغاريا على قلب نظام الحكم من غير ما تقوليلي؟!

تقول في مقدمة كتابها "مذكراتي في سجن النساء":

لكن السجن اليوم لم يعد جدراناً مرئية. أصبح السجن شيئاً أتنفسه في الهواء. حصار حول العقل ورقابة غير ملموسة ولا منظورة. لم تعد هناك قائمة سوداء، وإنما قائمة رمادية شفافة لا ترى بالعين المجردة.

أعيش وراء جدران غير مرئية، وأعيش الغربة والمنفى داخل الوطن. لكني ما زلت أكتب وليس في العالم قوة تستطيع أن تسلب مني القلم.

أسكب عقلي فوق الورق حروفاً وكلمات، لكنهم يملكون قنوات الاتصال بالناس. يسيطرون على أجهزة الإعلام والثقافة والنشر. يملأون عقول الناس بالحكايات التافهة. يستخدمون كلمة الله لإرهاب كل عقل يفكّر. يستخدمون كلمة العدالة لضرب كل من يسعى إلى العدالة. وكلمة الديمقراطية لمصادرة الحرية. يقتلون الإبداع في المهد. يخنقون الفكر الجديد بأصابع غير مرئية.

وفي الشارع حين أمشي أرى وجوه الشباب منكسرة حزينة. عيون ذابلة مطفأة. بطالة بلا عمل. حياة بلا أمل. وجوه الفتيات شاحبة. الخطوة متعثرة. العقل داخل الرأس ملفوف بقماش. العالم شرقاً وغرباً يموج بالتغيرات الهائلة. الأسوار تسقط تحت زحف النساء والرجال والشباب. النظام الهرمي الطبقي يهتز فوق قاعدة عريضة بدأت تنهض وتثور وتخرج في المظاهرات.

هنا التمرد عورة. هنا الوعي إثم. هنا المعرفة خطيئة. هنا الرأي العام غائب. الناس غارقة في هموم البحث عن الخبز. هنا يدخل الإنسان السجن في الظلام بلا جريمة وبلا تحقيق. هنا يموت الإنسان قبل الأوان. هنا يختنق العقل، وتدفن الموهبة وشجاعة الإبداع.

أدباء مرّوا في اختبار النار

أدرج هنا لمحات قصيرة عن بعض الأدباء الذين تعرضوا للأذى والسجن في البلاد العربية وهم بالتأكيد سجناء رأي لأنهم لم يدعوا إلى العنف ولم يمارسوه.

جاسم الرصيف

من مواليد العراق 1950. حاز على بكالوريوس آداب اللغة العربية عام 1973. عمل كمحرر في جريدة الجمهورية - بغداد من 1987-1994، ثم اعتقل في نيسان 1994 من قبل الحكومة العراقية بسبب روايته "تراتيل الوأد"، وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات أمضى فيها سنة ونصفاً في سجون جهاز الأمن الخاص، ومديرية الأمن العامة، وسجن "أبو غريب". يقيم في الولايات المتحدة منذ عام 1999 كلاجئ سياسي.

صدرت له الروايات التالية:

الفصيل الثالث (جزء 1 + جزء 2). القعر (جزء 1 + جزء 2). خط أحمر. حجابات الجحيم. أبجدية الموت حباً. تراتيل الوأد. ثلاثاء الأحزان السعيدة، مزاغل الخوف.

درست رواياته في الجامعات العراقية، ونال الكثير من الطلاب شهادات الماجستير والدكتوراه عنها، كما أنها تدرس الآن في جامعتي القاضي عياض، ومحمد الخامس في المملكة المغربية.

نال أربع جوائز عن رواياته: الفصيل الثالث، خط أحمر، حجابات الجحيم، تراتيل الوأد.

جمعة بو كليب

من مواليد طرابلس الغرب - ليبيا 1952. بدأ الكتابة والنشر في الصحف الليبية في بداية السبعينات. درس اللغة الإنكليزية في جامعة طرابلس لكنه لم يكمل لأنه طرد عام 1976 أثناء أحداث نيسان الطلابية. وفي عام 1978 كان واحدًا من اثني عشر كاتبًا شابًا قبض عليهم وأودعوا السجن من قبل اللجان الثورية، ثم حكم عليهم بالسجن المؤبد، لكن أفرج عنهم في آذار1988. بعدها غادر إلى لندن وحصل على بكالوريوس العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة ردينغ Reading عام 1993.

صودرت له أول مجموعة قصصية وكانت بعنوان "دوائر الرفرفة والمرارة"، وهو يعد مجموعة أخرى حاليًا.

يكتب وينشر في مجلات مختلفة تصدر في لندن وخارجها.

حمزة الحسن

من مواليد العراق في بداية الخمسينات. هرب من العراق عام 1988 إلى إيران ثم إلى باكستان عبر الجبال الإيرانية. سجن بسبب عبور الحدود غير الشرعي. يعيش منذ عام 1991 في النروج في بيركن. ومنذ عام 1993 اختار العزلة في بلدة أورستا.

له الروايات التالية: سنوات الحريق، الأعزل، عزلة أورستا، المختفي.

يكتب سيرته هو كما يلي: سيرة الأعزل بين براءة العاشق وحرية السياسي

ولد حمزة الحسن في شتاء عراقي مجهول مثل كل كائنات البرية ومخلوقات الأرض في بداية الخمسينات في يوم ماطر مع أن تاريخ الولادة المفترض يشير إلى تموز وهو عام ولادة مخلوقات الليل في العراق.

عاش بالضد من كل قوانين الحياة والموت والسلطة والمجتمع. أي أنه عاش على عناد قوى الطبيعة والبشر حيث هاجمته كل أنواع الفيروسات المميتة وكل أنواع الكلاب السائبة وغير السائبة وكل أشكال الفقر والموت والمخاطر. جرح في الحرب الأولى مرتين: واحدة في الظهر قريباً من العمود الفقري. والأخرى في الجبهة الأمامية ونجا بأعجوبة. سجن مرات وفي كل مرة يدخل السجن لحسابه الخاص. يخرج السياسيون من السجون إلى المقاهي والبارات والساحات متباهين ببطولات الذباب والوهم. هو يخرج إلى الحرب أو إلى العزلة وهناك يحتضر كصقر مصاب وصدره للريح والأبدية بلا أضواء أو مناديل. صامت صمت الغياب والنجوم والعطش في احتفالات الزور والنميمة. وهو المختلف عن الشبه والأعزل حتى من الأظافر.

منفي أبدي بسبب الفقر والعشق والحرية والاختلاف. يرفض أن يعيش كشبيه أو نموذج أو ملحق. وهذه واحدة من مصائب الدهر على الحر. هرب من العراق عام 88 إلى إيران من خطوط الحرب على دوي الرصاص والقنابل ومخاطر حقول الألغام بعد حرب طويلة مع السلطة والثقافة والقبيلة والشارع والذاكرة العامة أي ذاكرة القطيع (ثم هرب إلى الباكستان عبر الجبال الإيرانية وسجن بسبب عبور الحدود غير الشرعي!). واعتبر هناك مواطناً غير شرعي/مهاجراً هارباً بلا حقيبة ولا جواز ولا ملابس لائقة.

فقط صورة قديمة وحذاء عتيق وحلم عادل في عالم نظيف/حسن الإضاءة كما يقول همنغواي.

لكنه لم يهرب بعيداً خارج آسيا. هذه القارة الصفراء التي لا تنبت غير الحشيش والشرطة والجنرالات والأضرحة والطوامير والسيوف. في كل مكان ذهب وجدهم على منعطف قارة أو ساحل بحر أو جبل أو هاوية يتشمسون وينتظرون ككلاب برية ضجرة من الضوء والكسل والنوم. من سجون العراق إلى سجون إيران وإلى سجون باكستان. عبر ثلاثة حدود من أجل الحرية وما زال يعبر دون أن يعثر عليها. هذه هي حرية العاشق وليس حرية السياسي/بعيدة ومستحيلة.

العاشق يريد البراءة والسياسي يريد الحرية بشروط ممكنة. لذلك يقول إن شهداء العشق هم أكثر بطولة من شهداء السياسة. شهداء العشق يطلبون المستحيل. أي البراءة المطلقة. وشهداء السياسة يريدون حرية ممكنة ويريدون السلطة أيضاً.

يكتب الرواية كبديل عن براءة مفقودة. كتب أربع روايات لم تقرأ بصورة دقيقة لأنها خارج رؤيا القطيع والشبه وفي مناخ ثقافي وأدبي أكثر فساداً وعفونة من المناخ السياسي. ذات القوى التي صنعت الخراب هناك/صنعته هنا.

(سنوات الحريق/الأعزل/المختفي: عام 2000/وعزلة أورستا: عام 2001) روايات تعري المخبوء والمسكوت عنه والمحذوف بعد أن شوهت الرواية العراقية الواقع والكتابة والخيال.. فهي إما إعادة صياغة لأيديولوجية حزبية أو إعادة صياغة لشروط السلطة. في الحالتين كانت تعبر عن سلطة ما وما تزال.

يعيش منذ عام 1991 في النرويج في بيركن. ومنذ عام 1993 اختار العزلة في بلدة أورستا. عزلة الذئب أو عزلة الشفق أو عزلة الندى على صخور الفجر. من أعماق وحدته يكتب. وكما تقول سيمون دي بوفوار أن الذين يكتبون من أعماق وحدتهم إنما يكتبون إلينا. إنها سيرة إنسان أعزل

لكنه سيكون المغنّي الأبهى في أيام مخبوءة في الجذور وفي احتفالات العشق والاختلاف.

رؤوف مسعد

من مواليد السودان 1937. نال الشهادة الابتدائية في السودان ثم انتقل إلى مصر حيث أنهى الدراسة الثانوية ثم ليسانس آداب - صحافة عام 1960. اعتقل ذلك العام بعد محاكمة عسكرية بتهمة الانضمام لتنظيم شيوعي وأفرج عنه عام 1964 نتيجة العفو العام. تابع دراسته في الإخراج المسرحي في بولندا ثم عمل في العراق في مؤسسة السينما والمسرح. بعدها عمل في الصحافة اللبنانية في بيروت وبعد الغزو الاسرائيلي على لبنان، عاد إلى مصر وأسس دار شهدي للنشر في عام 1990. قام بتصفية دار النشر وهاجر إلى هولندا للاستقرار وما يزال يقيم هناك مع عائلته..

أعماله: - إنسان السد العالي 1965 بالاشتراك مع صنع الله إبراهيم وكمال القلش، - لومومبا والنفق 1968 (مسرحيتان)

- يا ليل يا عين 1967 (مسرحية) صادرها وزير الثقافة الأسبق؛ ثروت عكاشة قبيل العرض، - القرد المفكر 1977 (مسرحية للأطفال) مسرح أوال.. البحرين، - صباح الخير يا وطن 1982 مذكرات عن الغزو الاسرائيلي للبنان، - أطفال السد العالي 1984.. للأطفال، - الراجل إللي أكل بعضه عن رواية "اللجنة" لصنع الله إبراهيم، - بيضة النعامة 1994 رواية عن السيرة الذاتية، منشورات رياض الريس، - صانعة المطر 1996 مجموعة قصصية.. المركز المصري العربي

- أورشليم أورشليم 1996 مسرحية. رفضتها الرقابة، - حبيبي.. يا متشائل مسرحية عن رواية إميل حبيبي (لم تُعرض)

- في انتظار المخلص (رحلة إلى الأراضي المحرمة)، - مزاج التماسيح: رواية عن العلاقة بين المسلمين والأقباط في مصر

- بانتظار البرابرة: حوار عن الإسلام المسلح مع نصر حامد أبو زيد، - السودان: قرون من القهر وستون عاماً من الحنين

- غواية الوصال: رواية.

زهدي الداوودي

من مواليد داقوق/العراق 1940. درس في دار المعلمين في كركوك، ثم عمل كمعلم ابتدائي في قرية مامه. بين عامي 1964-1966 سُجن في معتقلات كركوك، بعقوبة، الرمادي والحلة. بعدها درس التاريخ والفلسفة في جامعة لايبزك وحصل على الدكتوراه في فلسفة التاريخ عام 1976. عمل كمدرس في كلية التربية بجامعة الموصل بين عامي 1976-1979 ثم كمحاضر في جامعة قاريونس - البيضاء/ليبيا. بعدها عاد إلى جامعة لايبزك كأستاذ مساعد حتى عام 1992. واحترف منذ عام 1994 الكتابة والترجمة.

أولى محاولاته الأدبية - الشعرية بدأت في عام 1954 حيث نشر في صحف النديم وكركوك وصدى الشباب الطلابية. وفي تلك الفترة تعرف في طوز بموسى العبيدي وعبد اللطيف بندر أوغلو وآخرين حيث أصدروا مجلة سرية مكتوبة باليد باسم صدى الواعي. وتعرف أيضاً بقحطان الهرمزي الذي عرّفه في تنقّلاتهما الأسبوعية إلى كركوك بكلّ من أنور الغساني، مؤيد الراوي، يوسف الحيدري، فاضل العزاوي، علي شكر البياتي، فأسسوا حلقة تقوم ببعض اجتماعات سريّة ومنتظمة بمحاضر أطلقت على نفسها "جماعة أبناء الشقاء" وعرفت فيما بعد باسم "جماعة كركوك". انتهى تقليد عقد الاجتماعات السرية وكتابة المحاضر عندما اعتقل أنور الغساني وعلي شكر1956. بعدها اضطر أن ينتقل إلى كركوك لمواصلة الدراسة المتوسطة بعد أن تم فصله من ثانوية طوز بسبب

قيادته إضراباً طلابياً ضد حلف بغداد. وهناك تعرف على الشاعر الكردي أحمد دلزار.

في عام 1957 ترك كتابة الشعر والرسم متوجهاً إلى القصة والنقد الأدبي ثم ساهم في تحرير مجلة "شفق" مع عبد الصمد خانقاه. مع حلول ثورة 14 تموز 1958تعرف بكل من محي الدين زنكنة، جليل القيسي، سركون بولص وفلك الدين الكاكائي ثم انتمى إلى اتحاد الأدباء العراقيين فتعرف بكثير من الأدباء منهم محمد مهدي الجواهري، بلند الحيدري، عبد الوهاب البياتي، حسين مردان، سعدي يوسف، عبد الرحمن مجيد الربيعي، ياسين النصير، صادق الصائغ، علي الشوك.

من مؤلفاته: - الإعصار: مجموعة قصصية، - رجل في مكان ما: رواية، - الزنابق التي لا تموت: مجموعة قصص، - رحلة إلى بابل القديمة: ترجمة عن الألمانية، - أسطورة مملكة السيد: لايبزك، - أطول عام: رواية، - زمن الهروب: رواية.

كما أن له أربعة كتب باللغة الألمانية.

سلام إبراهيم

من مواليد 1954 ديوانية جنوب العراق. حصل على دبلوم علوم زراعية - جامعة بغداد 1975. اعتقل أربع مرات بين 1970-1980، دون أن يكون منتمياً لحزب ما. عاش تجربة الحرب العراقية الإيرانية كجندي على فترات متقطعة من عام 1981-1985، ثم التحق بصفوف الحركة المسلحة في كردستان 1985. قتل تحت ناظريه العشرات من الجنود في الجبهة والعشرات من الثوار في الجبل. أصيب في 5/6/1987 بقصف بالأسلحة الكيماوية بموقع - زيوة - الكائن على الزاب خلف مدينة العمادية العراقية على الحدود التركية العراقية. عاش تجربة معسكرات اللجوء في تركيا وإيران بين -1990، في أعقاب حملة الأنفال سيئة الصيت. يستقرّ منذ عام 1992 في الدنمارك بعطب في وظائف الرئة نتيجة القصف الكيماوي.

صدر له:

- "رؤيا اليقين" - بيروت. – "رؤيا الغائب" - دمشق. - "سرير الرمل" - دمشق. - "برازخ وأخيلة"- ألمانيا.

كتبه تدور حول تجربته الحية. يمارس النقد الأدبي باستمرار في الصحافة العراقية والعربية.

صبري هاشم

"في عدن مربيتي نشرت كتاباتي الأولى التي لم ترَ النور من قبل وفيها كتبت أجمل نصوصي. عدن المدينة التي اعتنت بطفولتي إنْ جاز القول وهي الصدر الحنون الذي عليه وضعتُ رأسي. عدن مدينة منحتني أماناً مفقوداً ودفئاً لذيذاً وفيها عشقتُ أجمل النساء فأنا ابن عدن بكل اعتزاز".

بهذه الكلمات يعبر الروائي العراقي صبري هاشم، المولود في مدينة البصرة عام 1952، عن بداياته.

نشر نصوصه القصصية الأولى خارج الوطن عندما ضاق هذا الأخير بأبنائه إلى أصغر حلقة، وتحديداً في عدن التي احتضنته مع عدد من المثقفين العراقيين المنفيين في أواخر السبعينات.

اعتقل من قبل سلطات بلاده في العام 1970 بسبب نشاطاته الطلابية، وبسبب اعتناقه المبكر للفكر الماركسي وكان لما يزل طالباً في المرحلة الأخيرة من الدراسة الثانوية. ثم اعتقل لمرات عديدة أخرى من الفترة 1975-1978 لنفس السبب، كتب خلالها مجموعة من القصص التي لم

تنشر إلا بعد هروبه من العراق مشياً على الأقدام باتجاه الكويت، عبر الصحراء التي تاه فيها سبعة أيام بعد افتراقه عن الدليل.

التحق من عدن التي وصلها عام 1979، بحركة الأنصار الشيوعية في شمالي العراق حتى 1983 ليعود إليها ثانية.

كتب خلالها وفي عدن تحديداً روايته الأولى "رقصة التماثيل" ومجموعة قصصية باسم "ليلة ترخم صوت المغني"، ونشر في هذه الفترة عدداً من القصص والدراسات النقدية.

بعد توحيد اليمنين بشهر واحد هاجر إلى ألمانيا في 1990. وفي هانوفر كتب روايته "خليج الفيل" التي تتحدث عن الحرب الأهلية التي وقعت في عدن في 31 يناير عام 1986 وعن الحرب التي وقعت في 1994.

في العام 1998في برلين أكمل عمله الروائي الشعري "الخلاسيون" والذي صدر في العام 2000.

في العام 2002 صدر ديوانه الشعري "جزيرة الهدهد"، ثم صدر في نفس العام ديوانه الشعري الثاني "أطياف الندى".

طارق حربي

ولد في الناصرية، العراق 1957. نشر أولى قصائده في جريدة الراصد البغدادية، ومجلة الطليعة الأدبية.

عاش الحرب العراقية الإيرانية من «ألفها إلى كيميائها، إلى مأساتها، إلى يائها» كما يقول، بين شرق البصرة وسربيل زهاب. وقد تعرض للموت مرات عديدة وكان لذلك أثر كبير على كتاباته الشعريّة.

بعد انتفاضة 1991، وجد نفسه مع ألوف اللاجئين في مخيم رفحاء. غادر المخيم بعد 3 سنوات إلى النرويج حيث يقيم حتى الآن.

نقل ثلاث مجاميع شعرية عن اللغة النرويجية، كما ترجمت نصوصه إلى الإنكليزية والإيطالية والنرويجية والفارسية. له أيضاً

- مجموعته الشعرية: حرب 80

- جمهورية رفحاء: مقالات في السياسة والأدب.

مؤيد الراوي

من مواليد كركوك - شمال العراق 1939. أنهى فيها دراسته الثانوية، ثم عمل في سلك التعليم بعد أن حصل على شهادة دار المعلمين.

اعتقل عدة مرات وسجن عام 1963 إثر الإنقلاب الدموي مدة عامين ثم فصل من الخدمة. غادر كركوك وعاش في بغداد حتى عام 1969 مشاركاً في الحياة الثقافية. ثم غادر العراق، بعد الانقلاب العسكري الثاني لحزب البعث، إلى عمان ثم إلى بيروت حيث مكث حتى عام 1980.

بعدها انتقل إلى برلين حيث ما يزال يعيش مع عائلته. ترجمت قصائده إلى الانكليزية والفرنسية والألمانية. صدر ديوانه الأول عام 1977 (احتمالات الوضوح)، وله ديوان ثانٍ بعنوان (وهم المدن،

وهم الأماكن).

يعتبر أحد رموز التجديد في الشعر العراقي الحديث بقصائده وآرائه النقدية.

يوسف أبو الفوز

مواليد مدينة السماوة 1956. لأسباب سياسية غادر العراق صيف 1979. والتحق بقوت الأنصار في كردستان العراق ربيع 1982 لمقاومة النظام الديكتاتوري، حتى حملة الإبادة المسماة بـ "الأنفال" في صيف 1988، حيث بدأت رحلته مع التشرد والهجرة. في رحلة البحث عن سقف آمن اعتقل في استونيا وقضى عام 1994 في السجون الاستونية. وهو مقيم في فنلندا منذ مطلع 1995.

صدر للكاتب: - عراقيون - مجموعة قصصية (عن تجربة الأنصار في كردستان العراق).

- في انتظار يوم آخر - سيناريو تسجيلي (عن معاناة اللاجئين العراقيين في روسيا) صدرت في السويد عام 1993.

- طائر الدهشة - مجموعة قصصية (عن ظاهرة الهجرة من العراق) عام 1999.

- الطائر السحري - (مجموعة طائر الدهشة باللغة الفنلندية ترجمة الدكتور ماركو يونتونين) صدرت عن دار LIKE عام 2000 في هلسنكي.

- تضاريس الأيام في دفاتر نصير - مذكرات (عن تجربة الأنصار في كردستان العراق) 2002. - أطفال الأنفال (شهادة عن معاناة الأطفال الأكراد خلال حملة الأنفال).

كتب مخطوطة: تلك القرى - مجموعة قصصية (عن تجربة الأنصار في كردستان العراق).- أشياء أخرى - مجموعة قصصية (عن الحرب).- رجل داهمه المطر - مجموعة قصصية.

الباب الثاني: قصة مخطوطة

قصة مخطوطة

محمود سعيد

روائي عراقي من مواليد 1939. تعرض للسجن عدة مرات في العراق تم ترك بلده وعاش في الخليج العربي وبعدها هاجر إلى الولايات المتحدة حيث يعيش حتى الآن.

له الأعمال التالية: - بور سعيد وقصص أخرى 1957 بغداد. - قضية قديمة: رواية أتلفت في انقلاب 8 شباط 1963.

- زنقة بن بركة: منعت في العراق سنة 1970. وبعد طبعها في الأردن عام 1993 فازت بجائزة وزارة الإعلام في بغداد.

- رواية "نهاية النهار": فازت بجائزة نادي القصة في القاهرة عام 1996. - شجاعة امرأة: قصة للأطفال فازت بجائزة الشيخة فاطمة عام 1999. - أنا الذي رأى: عن السجون في العراق، ترجمت إلى الإنكليزية،

- الإيقاع والهاجس: كتبت سنة 1986، منعت من النشر في العراق، صدرت سنة 1994 في سوريا.

- مجموعة قصصية "طيور الحب والحرب": القاهرة 1996. - الموت الجميل: رواية 1997.

- قبل الحب، بعد الحب: رواية 1999،- الضالان: رواية 2003.

يقول محمود سعيد في حديث شخصي في أحد مقاهي شيكاغو: كانت المرة الأولى التي أسجن فيها سنة 1961.كنت مدرساً في الناصرية. عينت قبل بضعة أشهر في ثانويتها، ولم تكن المدة بكافية لتكوين صداقات، أو تمكن لمعرفة الطلاب والمدرسين، وصادف مرة أنني عندما توجهت في الصباح إلى الثانوية رأيت المدير ومدرساً آخر متوجهين إليها، وما إن دخلنا حتى اندفع ثلاثة طلاب نحونا وهم يصرخون بانفعال وهيجان شديدين: أوقفهم عند حدّهم وإلا أوقفناهم بالقوة، كفى هذا التسيب. وخمّنت أن المدير يعلم ما لم أعلم. وأخذت أضرب أخماساً في أسداس، فمن هم الذي يجب أن يوقفهم؟ ولماذا كانوا يتجرؤون عليه بالصياح وهم طلاب؟ وعندما اجتزنا الممر رأيت مئات الطلاب مجتمعين في ساحة الثانوية الكبيرة. كان هناك نحو ستة عشر صفاً في طابقين على شكل زاوية حادة، بينما كانت الساحة تمتد حتى السياج الذي يبعد نحو مئة وخمسين متراً مكوناً الزاوية الأخرى التي تكمل المربع.

دخل المدير وسط الطلبة وسألهم لماذا هم متجمعون؟ لكني لم أسمع الجواب. ثم رجع مهموماً إلى غرفة الإدارة، وبعد بضعة دقائق سمعنا فوضى كبيرة وهياجاً هائلاً، فخرجنا لنجد معركة بين الطلاب. وقع ضحيتها ثلاثة من طلاب الصف المنتهي. بعدئذ جاء رجال الأمن، الشرطة، رجال الإسعاف. نقل الجرحى إلى المستشفى، ثم فوجئنا بدخول مدير التربية الذي طلب من المدير عقد مجلس المدرسين وطرد المتسببين في الحوادث. ألقى خطبة روتينية اتهم بها بعض الطلاب بالتخريب، والعمالة، والإهمال... إلى آخره. بعد نصف ساعة وافق مجلس المدرسين على طرد قائمة بخمسة عشر طالباً، تقدم بها أحد المدرسين. وكنت جالساً في الزاوية. وقع القرار الجميع، لكني رفضت توقيعه لأني لم أعرف أي طالب من المفصولين ولم أره في التحقيق. طلبت أن أرى الجناة المفصولين قبل التوقيع. قال المدرس الذي قدم القائمة: إن ثلاثة منهم في المستشفى. فأصابني ذلك بنوع من الصدمة. كيف يفصل تلميذ بتهمة التسبب في أحداث هو ضحيتها؟ كيف ينتهي مستقبله بينما هو جريح؟ وبعد أن جاؤوا بالطلاب الإثني عشر لم أر أياً من الطلاب الثلاثة الذين

هددوا المدير أمامي وأمام المدرس الآخر. رويت للمدرسين ماذا رأينا نحن الثلاثة في الصباح، وقلت إنني لم أرَ الحادثة، لكني أعتقد أن تدخل هؤلاء الثلاثة هو الذي سبب الحوادث، لأنهم كانوا قليلي الأدب، وعدوانيين.

فوجئت بأن المدرسين كلهم كانوا يخافون منهم، ومن بعد علمت أنهم "أي الثلاثة" بعثيون، وأنهم يتعاونون مع الأمن ويلفقون تهماً لمن يخالفهم الرأي من الطلاب ذوي الاتجاهات الأخرى كالشيوعيين وغيرهم، ولذلك فالمدير يخشاهم هو وباقي المدرسين.

طالبت بإعادة التحقيق وأن يمثل كل من يتهم أمامنا لنسمع قوله، فمن الظلم اتهام طالب وتدمير مستقبله من دون سماع رأيه. استمر التحقيق نحو أسبوع كامل انتهى بفصل الطلاب المشاغبين الثلاثة وثلاثة آخرين علمت فيما بعد أنهم من مؤيدي الحزب الشيوعي. وعلمت أيضاً أن سبب اجتماع الطلاب في الساحة كان إحياء ذكرى مؤتمر السباع الذي عقده الطلاب في سنة 1957 في ساحة السباع في بغداد والذي هاجمته الشرطة وأطلقت النار فيه وقتلت بعض الطلاب واعتقلت البعض الآخر.

ما إن رجعت إلى الفندق الذي كنت أقيم فيه حتى وجدت الشرطي ينتظرني لأخذي إلى الموقف. مكثت هناك نحو ثلاثة أشهر ثم أطلق سراحي بعدئذ من دون أي تهمة.

في سنة 1963 حدث انقلاب عسكري قضى على عبد الكريم قاسم واستعملت القوة فيه وقتل بضعة ألوف من المواطنين، واعتقل نحو خمسين ألفاً وفصل من وظائفهم مئات الألوف، امتلأت السجون، المواقف، دور السينما، الملاعب الرياضية، إلى آخره بالموقوفين.

كنت أحد الموقوفين، وفصلت من الوظيفة مدة أربع سنوات. مكثت في السجن سنة كاملة ويوماً واحداً. وفي هذه المدة رأيت مع غيري التعذيب والتجويع والخوف وأنواعاً أخرى من إهانات لم نكن نتصور قط أنها يمكن أن تحدث.

في مدة ثلاث عشرة سنة أخرى جرى توقيفي أربع مرات، مرتين على ثلاثة أيام، وأخرى أسبوع ورابعة بضعة أشهر وصفتها في "أنا الذي رأى"

ذهبت إلى الإمارات سنة 1985 ولم أعد إلى العراق حتى نهاية حرب الخليج الأولى سنة 1990، لم أهرب من العراق، ولم أكن مطلوباً لكني كنت أخشى تقارير الحزبيين، فما دمت أعيش خارج العراق فسأثير حسد وغيرة الآخرين. رجعت سنة 1991 بعد صدور قرار من الأمم المتحدة يفرض على صدام حسين إلغاء التهم عن جميع العراقيين المتواجدين في الخارج، لكن المضايقات بدأت بعد سنة واحدة فقط. لم يكن هناك طيران إلى العراق حسب قرارات الحصار المفروضة من الأمم المتحدة، لذا كنا نطير إلى عمان، ومن هناك نستقل السيارة إلى بغداد. مرت الرحلات إلى نهاية سنة 1 بسلام، ثم بدأ نوع من التعامل شديد الإيلام، فعندما وصلت إلى "طريبيل" الحدود العراقية الأردنية، وكانت الساعة نحو التاسعة ليلاً، طلب مني ضابط الجوازات أن أسير معه، فتح باب غرفة صغيرة، فيها كرسي واحد، وأمر بإنزال حقائبي من السيارة، وأغلق باب الغرفة. لم يطلبوا مني أي شيء. غير أن بقائي في الغرفة وحدي وما كان يجول في ذهني من شكوك حطم أعصابي، فأنا لا أعرف ماذا يريدون مني. وماذا سيسألوني. وبماذا سيتهموني. إضافة إلى أنني اعتدت أن أشتري في الإمارات والأردن مجموعة من الكتب أدخلها معي، كل مرة أذهب إلى العراق. كنت أحاول أن أدخل معي في السفرة كتاباً أو كتابين ممنوعين، إذ أن قائمة الممنوعات كانت لا حصر لها في عهد صدام، وفي تلك المرة أخذت معي ثلاث كتب، كتابان عن حرب الخليج بأقلام مثقفين أمريكان وكنديين يثبتون فيها أن صدام كان من مجندي الـ CIA. أما الكتاب الثالث فقد كان قصة شاب يشبه عدي، جنده عدي ليحضر في الأماكن التي يتوقع أنه ستكون خطراً على حياته. هرب الشبيه إلى أوربا. في الكتاب صوره مع عدي، ووصف لتصرفاته واعتداءاته على الناس. ولا يمكن أن أصور قلقي وخوفي

من أن يعثروا على هذه الكتب معي وبخاصة الأخير. فعمدت إلى وضعه تحت حزامي من جهة الظهر، تحت القميص. لكني نزعته بعد بضع ساعات لعلمي أنهم إن كانوا سيفتشونني فسيأمرونني بخلع ملابسي. وفوضت أمري للقدر، وأظلمت الدنيا في عيني، ووجدت نفسي في نفق مظلم لا نهاية له، وتوقعت أن يحكم علي بمدة طويلة إن لم أقتل تحت التعذيب. ثم حدثت المعجزة أنه سمح لي بالاستمرار بالسفر إلى بغداد. في فجر الليلة التالية "بعد 36 ساعة". لم يمسسني أحد، لم يوجه لي أحد أي كلمة نابية لكني كنت أسير كجثة محنطة، لم أرتح إلّا وأنا بين أذرع أهلي، لم أخبرهم بما عانيت، خوفاً من انهيارهم وتمزقهم.

أما المشكلة الكبرى فكانت تتعلق بعملي. علي أن أتردد على العراق، إذ كنت أتعامل مع تجار لا يستطيعون المجيء إلى الإمارات، وكان لزاماً علي محاسبتهم في بغداد وإلا ضاع حقي. إضافة إلى وجود زوجتي وابنتي في بغداد، وهما تحتاجانني، لذلك تكرر ترددي على بغداد وظلت المعاملة نفسها تتكرر، بل ازدادت إلى أسوأ إذ كنت أبقى محتجزاً في الغرفة المغلقة الصغيرة نحو يومين، أو ثلاثة. وقد أفادتني القراءة بعض الشيء لأني كنت أستصحب معي كتباً لا تثير سعار رجال الأمن، كالكتب التاريخية والروايات، وقصص حياة الفنانين. ثم تطور الأمر في بداية سنة 1995 اقتصر التوقيف أول الأمر على بضع ساعات فقط. الأمر الذي جعلني أطير من الفرح، لكني فرحتي لم تدم إذ فوجئت برجلين يطرقان الباب في حدود التاسعة صباحاً، أي في صباح اليوم التالي لوصولي بغداد، وعندما فتحت الباب قالوا لي إنهم من المخابرات، وإنهم يريدون أن يتعرفوا إلي فقط. فنزل قلبي إلى الأرض، واختلطت الأمور لدي، ولم أكد أتوصل إلى شيء قط. رحبت بهما وأنا على أعصابي، أتيه في غابة من الشك والقلق والريبة.

بعد شرب القهوة كرر أحدهما أنهما جاءا للتعارف حسب، ولعله استشف اضطرابي، أضاف: لا شيء معيناً يريدان طرقه. عرفاني بنفسيهما: النقيب..، الملازم الأول.. أنا أتمتع بذاكرة مثقوبة فيما يتعلق بالأسماء. أنسى الاسم بعد أقل من لحظة واحدة، لكنني أتذكر "عبد الزهرة" لأحدهما فقط حتى الآن. وربما لا أستطيع أن أنسى هذا الاسم لأن أحد زملائي في التدريس في إحدى ثانويات البصرة كان اسمه محسن عبد الزهرة، وكنا نناديه مازحين بعبد الوردة، وذلك ما لا يغيب عن ذاكرتي.

شكرتهما للزيارة وكنت كل مرة أصل فيها إلى بغداد أجلب معي ثياباً رجالية "دشاشيش" قمصاناً، جوارب، جلابات، تي شيرتات، ملابس أطفال.. الخ. لأوزعها على الأهل والمعارف والأصدقاء والفقراء، لأن الحصار كان ظالماً بشكل لا يمكن أن يتصوره أحد. ولم يؤثر على من لا دخل له فقط بل حتى على موظفي الدولة. فهذان اللذان جاءا لزيارتي لم يكونا بأناقة و"شياكة" ضباط الأمن "المدللين إلى حد الفساد" في فترة ما قبل الحصار، البذلة قديمة محكوكة تكاد تتآكل، القميص مرتق، الرباط قديم أكل الدهر عليه وشرب، الحذاء يكاد ينشق. قدّمت لهما لأسباب إنسانية فقط، بضع قطع مما اختارت زوجتي فارتسمت الفرحة في أعينهم، شكراني وذهبا ليخلفاني في حيرة قاتلة تهيم في معنى كلمة "تعارف" التي تعني ألف معنى ومعنى، وتقذف امرؤاً مثلي في صحراء الشك والريبة والضياع، فماذا يبغيان؟

أبعدت الموضوع من تفكيري. فليكن ما هو مقدر. لن أهتم. فالمقدر مقدر ولا طاقة لإنسان ما بدفع القدر.

ثم ظهر معنى التعارف في الرحلة التالية فقد جاء الاثنان نفساهما وقبل أن أقدم لهم القهوة والحلويات كما هي العادة عندنا قدّمت لهما هدية ثمينة هي قطعتا قماش جيد، تصلحان لتكونا بذلتين ممتازتين. وقبل أن ينتهيا من تناول القهوة طلب مني بشكل مؤدب أقدمهما رتبة، فيما لو أستطيع أن أقدم لهما معلومات عن شخص سامرائي حصل على إقامة في الشارقة، ذكرا لي اسمه. وعندما سألتهم عن عمره قالوا 27 سنة. أرادوا أن يعرفوا كيف استطاع أن يحصل على إقامة وهو عراقي، وهناك قرار صادر من دولة الإمارات برفض إقامة العراقيين؟

قلت لهما: إنني أنظر إلى من هو أصغر مني سناً كابني، أو أخي الصغير، وليس من المعقول أن أتجسس على ابني أو أخي. ذلك شيء لم أفعله طيلة حياتي، ولا أفعله الآن، ولن أفعله في المستقبل. امتقعا. ورجني خوف شديد، وظننت أنهما سيتركان الهدية في مكانهما عندما يذهبان، لكنهما أخذاها. فخفف ذلك من تحساباتي وقلقي.

في المرة التالية لم يحدث لي أي شيء في الحدود أيضاً، لكن ضابطي المخابرات عبد الزهرة وصاحبه هلّا في نفس موعدهما، في الدقيقة نفسها، وكنت نسيت الأمر كلية. أصبح استقبالهما طقساً مفروضاً في كل زيارة لبغداد، قدمت لهما ما ظننت أنه يرضيهما، وبينما كانا يحتسيان القهوة قال عبد الزهرة: ما رأيك بمن سيخلف الشيخ زايد؟

قلت له على الفور: إن نظام الإمارات ملكي، ومن دون شك فمن سيخلفه هو ابنه الأكبر الشيخ خليفة.

- وما شأن الخلاف مع شيوخ دبي.

ابتسمت، قلت له: إنني أقرأ جريدة الخليج يومياً، وأستمع إلى الأخبار ولا أظن أن هناك خلافاً بين إمارة دبي وإمارة أبو ظبي، ولو كان هناك خلاف لنشأ عند تكوين الاتحاد. لكن الشيخ راشد المكتوم حسبما سمعت كان بعيد النظر، ومتواضعاً ويؤمن بتطور البلد المستقبلي، وقد وضع كل إمكاناته في سبيل الاتحاد وتقويته، ولم يكن له طموح يتجاوز إمارة دبي.

قال لي: أنت عضو في اتحاد كتاب الإمارات وتعرف الكثير فلماذا لا تتعاون معنا؟

ضحكت، قلت له: كوني عضواً في الاتحاد لا يعني أنني أتمتع بقدرات فائقة، فكل مؤلف يستطيع أن يكون عضواً فيها، وهذا لا يعطيني امتيازاً لمعرفة أخبار خاصة بحكام الإمارات، وأنا عضو في اتحاد الأدباء العراقيين منذ سنة 1960 لكن أي حزبي يعرف عن شؤون العراق ما لا أعرفه.

وهنا فجر قنبلة ما زلت أحتار في فهمها إلى حد الآن، قال وبتوكيد شديد: هناك زملاء لك في الاتحاد من مواطني الإمارات نقلوا لنا أن هناك خلافاً شديداً بين العائلتين الحاكمتين في أبو ظبي ودبي، وربما يختصمان، لا بل يلجأان إلى السلاح عند وفاة الشيخ زايد، وقد تتفكك الإمارات بعد ذلك.

قلت له إن المواطنين يعلمون ما لا نعلم، ففي كل دولة هناك فئة مقربة تعرف ما لا يعرف غيرها، وربما كان من نقل لكم الخبر على حق. لكني أظنه خبراً كاذباً.

ثم سألاني أين وصلت المفاوضات على إنشاء أنبوب الماء من الباكستان إلى الإمارات. وكنت أسمع به أول مرة. كنت محدود العلاقات، ولا تتجاوز اطلاعاتي الجرائد والأدب، ولا أدري إن كان هناك أمر كهذا أم لا. لكنني أعرف غير واحد ممن هم محسوبون على الأدب والشعر من مواطني الإمارات من يرى في صدام صلاح الدين جديداً، وكانوا يترددون على العراق، ويحاربونني ويشوهون سمعتي بأقذر الوسائل والأساليب، لكنني كنت أهملهم ولا أعيرهم أي التفات. لذا صممت على أن أنقذ عائلتي وأسحبها من العراق. وما إن فتح باب قبول إقامة العراقيين حتى بادرت إلى الحصول على تأشيرة إقامة لهما وجلبتهما إلى الإمارات سنة 1995.

أثر ذلك الضغط القوي، والخوف من السلطة تأثيراً شديداً على صحتي، فقد اكتشفت أنني مصاب بذبحة صدرية، ونصحني الطبيب أن أجري عملية تبديل شريان في القلب في الحال. فأجريت العملية في نفس السنة.

بعدها هاجرت إلى الولايات المتحدة وما أزال مقيماً في مدينة شيكاغو كلاجئ سياسي.

قصة مخطوطة:

صباحاً غادرت بغداد "1981" إلى الأردن، قبل الثامنة بقليل، في يوم تموزي ساخن، مخلفاً ورائي أحب، وأعز الناس إلي، زوجتي، وولديَّ، وأنا أحلم لهم ولي بغدٍ أفضل، فقد وعدني أحد أقربائي الذين يعيشون في الجزائر أن يجد لي عملاً ما إن أصل الجزائر، وكنت خرجت من السجن قبل مدة قليلة، ورأيت هناك كيف ينتهي مستقبل، أو حياة من يسوقه سوء حظه، فكتبت ما رأيت وما سمعت على شكل رواية تسجيلية، قبل أن يمحو النسيان ما استقر في ذهني عن تلك الفترة، لكني لم أشعر بالأمان قط، كنت أسكن البصرة، والبصرة ساحة معركة طيلة أيام الحرب العراقية الإيرانية. تتساقط القنابل الفتاكة على المدنيين يومياً، وبشكل عشوائي، فتحصد أرواح الأبرياء، من شتى الأعمار، إضافة إلى من يتساقط في ساح المعارك من الشهداء. الأمر الذي يجعلني أعيش حالة قلق مستمرة خوفاً على عائلتي كل لحظة.

طوال تلك الأيام الرهيبة كان على العراقي أن يموت رغماً عنه! داخل السجن، خارجه، في الحرب، في المدن، في أي مكان من أرض العراق.

استشهد في الأسبوع الأول من الحرب ابن أختي: "وميض"، وهو فتى يتيم لم يتجاوز الثانية والعشرين، أكبر أخوته، وأول المتخرجين منهم، وأملهم بعد وفاة أبيهم، وحلمهم الأوحد في حياة أفضل. تخرج في الكلية العسكرية قبل أسبوع واحد من نشوب الحرب فقط، قتل قبل أن يتسلم أي راتب.

فارقت عائلتي والألم يحزّ في قلبي، والضباب يغشى عيني، وبخاصة أنني خرجت من السجن في تلك السنة، وأنا لا أتوقع ذلك قط، وبما يشبه المعجزة، لكن لا بد من التحرك، يدفعني للمغامرة شيئان مهمان، أولهما رغبتي بإنقاذ عائلتي من الواقع المظلم الذي يعيشونه تحت ظل الحرب، في تحقيق أملي الكبير في العمل في الجزائر، ذلك الأمل الذي أصبح حقيقة لثقتي الكبرى بقريبي هناك، وتأكيداته المتتالية! أما الشيء الثاني فرغبتي بطبع روايتي عن السجن، فلعلها تطلع العالم الخارجي على ما يحدث في العراق، وأظنني كنت أول من أشار إلى بعض ما يحدث في السجون.

معالم بغداد الساحرة تأخذ بلباب مشاعري، وصباحها يشلني من المتعة، فلم أجد في كل المدن التي رأيتها أحلى ولا أصفى، ولا أجمل من صباح بغداد.

بغداد منفتحة، واسعة الأفق، رحبة، تغمرك بالضياء، بالشعر، بالنخيل، بالبساطة، بالعراقة، بالطيبة، بالماء الصافي، بالزيتون، بالمتعة أينما اتجهت عيناك، يا لسحرك وأنا أفارقك يا أعزّ المدن، وأجملها، أنت المدينة التي أحب، علي وأنا في محاولتي هجرتها أن أستبقي في ذاكرتي ما أستطيع من معالمها، ربما لن أستطيع أن أعود إليها.

بعد إنهائي كتابة رواية "أنا الذي رأى" انتهزت مجيء العطلة الصيفية، "1981"، ذهبت إلى الأردن لغرض نشرها هناك باسم مستعار، كان "قلبي طيلة الطريق يدق" خوفاً من اكتشاف المسودة في الحدود، أقصى ما يخشاه أي عراقي، أن يضبط ومعه شيء مكتوب ضد الوضع السياسي القائم، من أراد أن يذهب "جلده للدباغ" فليضبط ومعه شيء مكتوب!

الطريق إلى الأردن طويل، طويل، نحو خمسمئة وستين كيلومتراً، "طريق الرطبة" هكذا كان يسمى آنذاك، وحيد الممر، ضيق، قديم، تآكل من كلا جانبيه، يتطاير الحصى متناثراً من تحت عجلات السيارة، في الوقت الذي تهتز، تتأرجح، و"تطس" بين حين وآخر، فـ"يختض" من في الداخل، يجبر على طرد النعاس إن تجرأ وغشى الأعين، ولأن الطريق ضيق فقد بات على من يسوق سيارتنا أن يهدئ من سرعتها عندما يرى أخرى قادمة، خاصة إن كانت شاحنة، وكثيراً ما كان يتوقف، حتى تمر.

سائق سيارتنا الأردني، لا يمكن أن ينساه من يرافقه، نحيف، صامت، في ثلاثيناته، وجه مليء

بحفر الجدري، فم واسع لا يفتر عن التدخين، يبصق كل بضع دقائق، يلتفت إلى اليسار، ويبصق من الشباك المفتوح، ولما كنت أجلس في المقعد الخلفي، وراءه مباشرة، فإن كثيراً من الرذاذ يرطب وجهي، ويثير حنقي، لكن ما العمل؟ لا أستطيع أن أتحمل رذاذ البصاق، ولا أستطيع أن أغفو من شدة قلقي.

في المقعد الأمامي شاب أردني في الخامسة والعشرين، أبيض البشرة، طويل القامة، نحيف، نظارتان طبيتان ثخينتان، متكئ على مقعده، مغمض العينين، لم يفتح عينيه، لم يفتح فمه قط، ربما كان تناول حبوباً منومة، ظل جامداً في مكانه، أهو نائم، مستيقظ! لا أدري، أما من كان قربي في المقعد الخلفي فأردني شيخ، وزوجته، جاءا يزوران ابنهما، كانا يتكلمان مع بعضهما، يتوقفان على محطات من ذكريات مشتركة، يبتسمان، يضحكان، يبدوان سعيدين، تلفهما غبطة غامرة، ابنهما طالب جامعة يدرس الاقتصاد في بغداد على حساب صدام حسين.

لا أستطيع أن أغفو، ولا أن أبقى صاحياً أزجي وقتي بأحلام اليقظة، لأن حنقي على السائق جعلني كالقنبلة أكاد أنفجر بين لحظة وأخرى، بينما خوفي من انكشاف المخطوطة، ومواجهة الواقع المخيف، الذي ينتظرني عند التفتيش، بين حدود العراق والأردن يشلني.

يرتفع شخير قربي، لم أميز من صاحبه! الشيخ الأردني أم زوجته البدينة، كلاهما غفا، مطمئناً، سعيداً، على آفاق سعادة مستقبل متخيلة، سيحققها ابنهما حين تخرجه، أي آفاق؟ ربما لا يدريان، أن ما يدرسه ابنهما "من اقتصاد موجه" تحت رعاية "حفظه الله" لا قيمة له. ولا يمكن أن يكون ذا بال في أي مجتمع. وبخاصة في بلد، ذي اقتصاد أعرج كالأردن، تشوهت فيه المبادئ الرأسمالية الأصلية، ورأسمالية الدولة معاً.

سمي الطريق بطريق الرطبة، لأن الرطبة "قرية حدودية" هي أول وآخر ما يراها المسافر إلى الأردن بعد الرمادي، إذ لا حاضرة غيرها على بعد مئات الكيلومترات، وحسبما علمت "بعدئذ" أنها سميت بالرطبة لأن جوها طيب، ومعتدل حتى في تموز، وبخاصة في الليل، لكني لم ألحظ ذلك الطيب عندما توقفت السيارة فيها، فقد كانت شمس تموز تسوط الأجساد بأشعتها اللاهبة. لكن ذلك المفهوم تردد ثانية بعد بضعة أشهر على لسان أحد سكان الرمادي، فأكد لي أنها في الربيع أشبه بالجنة، إذ تقع وسط مرج أخضر تحيطه جنات لا متناهية من زهور متنوعة الألوان، فأجبته إن معظم العراق يصبح جنة في الربيع.

توقفت السيارة بعد الظهر، في ساحة صغيرة غير مبلطة، تقع في عطفة صغيرة إلى اليسار من الطريق، أمام مبنى متواضع، لا وجود لرقعة تدل على أنه مطعم، يقعي أمامه وعلى مقعد خشبي صغير سوداني عجوز، ابيض فوداه، وتركا لمته سوداء صافية السواد، أمامه صندوق صبغ أحذية، أشار إلى حذائي المغبر، لكن قلقي على المخطوطة، وعدم راحتي طيلة الطريق من "تفال" السائق المجدر، جعلني أمشي كالمسرنم، لم أتنبه إليه، أو إلى بضعة سودانيين آخرين يكونون حلقة، غير بعيد عن المطعم.

افتقدت شهيتي، أمامي منضدة خشبية، قذرة، عليها آثار طعام سابق، لم يكن في المطعم أحد سوى شخص واحد، يتمدد على تخت في صدر المطعم، قرب شباك مفتوح، ربما كان صاحبه، أو أحد العاملين فيه، لاشك أنه اختار ذلك المكان ليتمتع بالتيار المار من الشباك، والخارج من الباب المقابل، بينما كانت هناك مروحة سقفية تلطف قليلاً من الحرارة في الداخل، بدورانها الخفيف.

لست أدري لماذا خيل لي أن منظر المطعم مألوف لدي، تبددت تلك الغلالة التي تلف المسافر فتجعله يحس بالغربة حينما يطأ مكانًا لأول مرة، لماذا؟ شيء من الألفة! ترى ما سببها؟ ألأن الحر فيه محتمل بعض الشيء؟ لا، ليس هذا السبب، أدرت عيني، عشرات اللوحات، مناظر طبيعية أوربية، أكثر من صورة لعنترة يقضي فيها على خصومه، صورة للمهلهل وهو يشق رأس مبارزه،

وسيفه ينزل حتى الصدر، صورة معركة، مدافع قديمة، سيوف ملطخة بالدماء، حراب مغروزة في الصدور، قنابل تنفجر، ضحايا متناثرون في أرض واسعة، أي فنان بارع؟ جنود عثمانيون وآخرون روس، وددت لو تقربت منها لأرى في أي معركة! لكن النادل السوداني أقبل، كان نحيفاً، طويل القامة، بشوشاً، صممت على أن آكل لكي لا أترك للجوع أن يمضني فيما تبقى من الطريق إلى عمان، حدقت بوجهه وأنا أتساءل مع نفسي كيف أصبحت الرطبة ملجأ للأخوة من السودان، وهي منفى العراقيين.

يتركون أغنى قطر في أفريقيا ويأتون إلى بلد ابتلي شبابه بحرب لا نهاية لها!

سألته عما يوجد من الطعام، فأجاب بمرح يطغى عليه الاستغراب من سؤالي، وكأن الذي يستطيع أن يصل إلى هنا يفقد القدرة على إلقاء الأسئلة، ثم علمت لماذا؟ دمدم السائق، ومن دون "تفال" بعبارة فهمت منها أنه كان هناك تقليد دائم في هذا المطعم، وجبة وحيدة أبدية، على الجميع القبول بها: "التشريب"، لم لا؟ "التشريب" وجبة عراقية ممتازة إن طبخت كما يجب.

نظرت إليه بود أثاره مرحه:

- أهي مضبوطة.

قهقه بنفس الصفاء، وهو يدقّ صدره:

- أنا الطباخ.

لم لا؟ على من يدخل المطعم أن يعلم أن الطعام جيد، لا يحتاج الأمر إلى سؤال، ما دام هو الطباخ فوجبة ممتازة واحدة أفضل أنواع الدعاية لأي مطعم! لابد أن تشريبه مشهور وإلا ما دق صدره بمثل ذلك الفخر.

أبهجتني لهجته، ابتسامته، أسنانه المشعة كاللؤلؤ، جاء صحن التشريب الكبير، شهياً، مرقة الطماطم تتلألأ بالدهن، لحمة كبيرة، بحجم الكف، الخبز منقوع بالمرق، الحمص، البصل، حبة "نوم البصرة" تطفو، رائحة البهارات تفغم الشهية! ترى أيطبخون التشريب في السودان أيضاً، أم تعلمها هنا؟ قلقي على المخطوطة صدّ شهيتي، لا بأس لأجبر نفسي، لأكل قليلاً من اللحمة، عضضت قطعة اللحم، "سرتة" عصية على القضم، كقطعة من مطاط صلب، بينما كان السائق المجدور قربي، يلتهم ما أمامه بلذة فائقة، شردت نظراتي، لمحت صباغ الأحذية، في ظل الجدار، عيناه الغائرتان ضائعتان في محيط عميق من الحرمان، لم أدرِ ما أفعل، اندفعت إليه، وبيدي الصحن، ناولته إليه، نهض قبل أن أصل إليه، فمددت يمناي إلى كتفه، ضغطت عليه، أجلسته في مكانه، وضع الصحن على صندوق الصباغة الذي لا أشك أنه استعمله منذ دهر في هذه القرية المنسية، الواقعة خارج حدود الجغرافية والتاريخ معاً، اكتفيت بشرب الشاي، وأنا أتوقع أن يزيد من إحساسي بالجوع، وعندما غادرنا المطعم أشار الأخ السوداني إلى حذائي، هاتفاً:

- مجاناً.

ابتسمت، هززت رأسي، رافضاً.

* * *

أينما وجهت نظرك فأنت في بيداء، جافة، تخضر في الربيع، لكنها تيبس في الصيف، لا يبدو لك سوى بعض الصخور، والحصى، ونباتات مكمودة اللون، قحلاء، أكبرها حجماً العاقول، بينما ينتشر في يمين وشمال الطريق، أشواك متنوعة أخرى، وأكمات من حشائش مصفرة، كادت الشمس أن تحرقها، ووديان عميقة تشق الأرض بين الحين والآخر.

معي حقيبة واحدة فيها ملابسي، والمخطوطة نيران تحرق عيني، يدي، أضلاعي، قلبي، أين أضعها؟ في الحقيبة! الحقيبة ستفتش، خارج الحقيبة! أين؟ بيدي؟ سيسألونني عنها، أين إذن؟ حدقت في أرجاء السيارة، قطعة مطاط توضع تحت الأرجل، لا أحد يتنبه إلى ما يوضع تحتها! لأضعها هناك، لكن ماذا لو رفعها المفتش؟ سيتنبه رغم أميته إلى أنها مهمة، وإلا ما وضعتها هناك، ستكون إذاً الفاجعة!

ما العمل؟

منذ مفارقتي بغداد، وأنا أفكر في الموضوع، ينهشني القلق، نعم أنا غبي، وإلا كنت وضعت المخطوطة في مكان أمين قبل أن أستقل السيارة، أما وقد استقللتها فقد سبق السيف العذل! علي أن أستقر على حالة ما! لكن كيف؟ المخطوطة في دفتر مدرسي متوسط، تعمدت أن أكتبه في حروف صغيرة على صفحتي الورقة كي لا يأخذ حيزاً كبيراً فيصعب إخفاؤه، وضعته في كيس كاغد أصفر، اللون الأصفر جذاب، علي أن أخرجه منه، لم لا أضعه تحت قطعة المطاط؟ يا لك من أحمق، سبق وأن انتهيت إلى أن وضعه هناك كارثة، لم لا أضعه أمام السائق على لائحة عرض البيانات؟ لكن يجب أخذ رأيه! يا للحمق! ربما يكون مخابرات عراقية!

بدت من بعيد بقع سود! أهي الحدود؟ أهو التفتيش؟ يا للمجهول! لماذا تبدو الأمكنة المأهولة سوداء من بعد؟ ألهذا سمي العراق بأرض السواد؟

أين أضع المخطوطة؟ لم أستقر حتى توقفت السيارة! أمام مبنى من طابق واحد، ذي بضعة غرف، لا تزيد على الثلاث، بصق السائق المجدور لأول مرة كما ينبغي، فتح الباب، تفل وهو يحني رأسه في فتحة السيارة، ثم رفعه، التفت إلينا، ابقوا في مكانكم، لا تخرجوا حتى يكمل التفتيش.

قدم جندي، في العشرين، ضئيل القامة، نحيف، شعر يميل إلى الصفرة، أحول، عينان خضروان، بيده بندقية مشرعة الحربة، تقدم نحو السيارة بجدية مقدسة، فتح له السائق صندوق السيارة الخلفي، توقعت أن يساعده السائق في فتح الحقائب لتفتيشها، لكنهما جاءا بعد لحظة، فخمنت أنه لم يفتح أي حقيبة.

فتح الشرطي الباب الأمامي، طلب من الأردني ذي الزجاجتين الطبيتين أن يترجل، انحنى فلمعت حربة البندقية الروسية، وحديد فوهتها الأسود، في"داخل القمرة"، كانت معلقة في ظهره، ويبدو أنه اعتادها كجزء منه، لا تضايقه عندما يتحرك، دق بأصابعه على باب السيارة من الداخل، ثم أعاد نفس الدقة على لوحة قياس العدادات الأمامي، ثم انتقل إلينا، نحن الجالسين في المقعد الخلفي، فتح الباب، توقف. ربما لأنه رأى الكهلة الأردنية، اعتدل خارج السيارة. علا وجنتيه قليل من الاحمرار، ابتسم ابتسامة ضئيلة، وقصيرة، كانت شفتاه رقيقتين جداً، بدا متعباً، مثقلاً بالهم، باعتداله بدت بندقيته المشرعة الحربة، أطول منه، لوى رأسه، لم يقل شيئاً، كان المجدور يراقبه، التفت إلينا، أشار إلى المبنى:

- اذهبوا بأجوزة السفر.

طغت علي فرحة لا تصدق، هرعت نحو الغرفة، لم يكن أمامي سوى الأردني الطويل، توسمت من حركاته أنه يكثر من التردد في هذا الطريق.

لم أرَ موظف الجوازات، الشباك صغير جداً، يدان عاريتان، قميص أبيض نصف كم، دفتر طويل عريض، أشبه بدفتر حسابات، فتحه على صفحة تبدأ بحرف الميم، لابد أنه لكثرة ما تصفحه يجد ما يريد بأسرع من البرق، طوى الصفحة، دمغ الجواز، رماه نحوي، أي فرحة! لأتصرف الآن حسب هواي، تقدم الأردني الكهل وزوجته نحو الشباك، خرجت منتشياً، لا حد لسعادتي، أنقذت المخطوطة من بين فكي الأسد، لكن جوعاً قاتلاً قرص معدتي، نظرت إلى الساعة، الرابعة والنصف، أي أنني لم

أذق أي شيء منذ غادرت البصرة في الثامنة من مساء البارحة، أي منذ أكثر من عشرين ساعة.

* * *

رفضت أن أجلس في نفس المكان، تجهم التفال: مال القضية يا أخ؟ أشبعتني بتفالك يا أخ، ليأخذ غيري نصيبه! قهقه من كل قلبه. "حسناً، لا "تزعل" التفت نحو الشيخ، عمو لا بد من التبادل في الأمكنة، لتجلس أمي ورائي. التفت نحو العجوز: ما رأيك أمي. يبدو أن الزوجين لم يسمعا ما قلت، وافقا حالاً، غمرني ارتياح عميق، أغمضت عيني لأول مرة، لم يعد يهمني ارتجاج السيارة، لم يعد يهمني طول الطريق، فمسافة العشرة آلاف كيلومتر تبدأ بخطوة، لكني مازلت جائعاً.

أشار السائق إلى مركز شرطة مهجور: "انظروا، من هنا تبدأ حدود الأردن" لم أفهم ما قال، وعندما طلبت منه توضيحاً، أخبرنا بأن الرئيس صدام حسين، أعطانا هذه المسافة، أشار إلى مركز الشرطة، هذا كان للعراق، وأصبح لنا، مسافة أكثر من عشرين كيلومتر، فيها نفط، ومن هنا حتى مركز جوازات الأردن، أهداها للملك حسين. تساءلت: "مقابل ماذا؟" تفل السائق، ضحك: وقوفه مع العراق ضد إيران! كانت الحرب قد بدأت قبل أقل من سنة، وكنا سمعنا أن صدام أعطى للسعودية حدوداً جديدة، وسمح للكويت أن تستثمر النفط من داخل العراق، ومنح تركيا امتيازات لخرق الحدود متى شاءت، لكننا لم نسمع أنه منح الأردن جزءاً من العراق، لكن السائق الأردني بدا متأكداً، فالتصقت عيناي بالمركز العراقي، تأملته، كان بالفعل لا يختلف عن تصميم أي مركز حدودي عراقي!

بالرغم من أن المطعم الأردني الذي دخلته أشبه بالكوخ، ويفتقد أي حميمية، إلا أنني شممت رائحة الشواء، فطلبت "تكة"، وجلست وأنا أكاد أتقلى من الجوع، حتى إذ جاءت التكة، لم أستسغها! لم أستطع هضمها، أهي لحم حصان؟ لا أدري، ثم علمت أن المطعم العراقي في الرطبة يتسوق لحومه، ولوازم طبخه من الأردن، لأن قطع خمسين كيلومتراً أسهل من قطع خمسمئة! أخيراً اكتشفت أن حسام الدين أشبه الناس بأخيه! لكني أشبعت نفسي ب"الحمص بطحينة"، وكانت جيدة بالفعل.

* * *

طلبت في صباح اليوم التالي من كاتب الفندق أن يدلني كيف أجد ضالتي، لم يكن رأى قط من طلب منه أن يجد له شيئاً بمثل تلك الغرابة! دار نشر!

أشار إلى الصحف، هنا تجد كل شيء، قلبت عيني في الإعلانات المبوبة، أخيراً وجدت دار نشر وطبع وتوزيع، موقع الفندق الذي نزلت فيه مثالي، أنزل بضع عشرة درجة فأجد نفسي في الساحة الهاشمية، من موظف الفندق تعلمت منه أشياء كثيرة، كما يتحكم الهاشميون بالشعب الأردني، تتحكم الساحة الهاشمية بالعاصمة عمان، منها تنطلق سيارات "السرفيس" إلى جميع أنحاء العاصمة، ومدن الأردن، في الطريق قرأت لوحات تدل على مسميات تثير السخرية، التعليق، العراك لو كتبت في العراق.

مكتب الكهل على الطريق بين الساحة الهاشمية وجبل عمان، رقعة تتسع لأكثر من مئتي مكتب، في نهاية درج إسمنتي، تنتهي كل درجة منه بإطار من حديد، يلتف حول نفسه بضع مرات، يتفرع شتى الفروع، لكن الجيد فيه وجود إشارة للمكتب الذي تقصد، فلا تتيه في غابة المكاتب الفأرية الضيقة تلك.

قابلني كهل في الخمسين، صافحني، معرفاً نفسه وبطريقة مهذبة: أبو كمال..كلبدار. صافحته، لم

أفهم معنى كلبدار قط. لم أسأله، ربما يعتقد أنني أتدخل في شؤونه إن سألته! لحظت هنا ما لم أجده في العراق، أو في أي بلد آخر، الأردنيون كالأوربيين تجاوزوا عقدة معاني الأسماء، ودلالتها. رأيت لوحات: المحامي باسم الفار، علي الكسيح، سليمان خصاونة..الخ. لو حدث هذا في العراق لجر ألف عراك، مماحكة، ربما قتل! لكن هنا، الأعصاب باردة، ربما تأقلموا تحت حكم حنيك باشا لعدة عقود..لا أدري.

أردت أن أنهي مهمتي على أسلم وجه.تمعنت في محدثي، قصير القامة، نظارات طبية، قميص رمادي أدكن مخطط بالأسود:

هلا أعطيتني نبذة عما في الكتاب؟

ابتسمت: لماذا نبذة، هاك اقرأه. ضحك: لماذا أقرأه؟ أنا ناشر، لا علاقة لي بالقراءة، أنا أقرر أهذا يربح أم لا! كدت أنفجر! تمالكت نفسي، في الأقل أمامي إنسان صريح، يقول ما يشعر به. لا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يلخص رواية، مهما كان عبقرياً! الرواية لا تلخص قط، الرواية تعبير، طريقة أداء، أسلوب! كيف تلخص؟ استجمعت كل قابلياتي: إنها عن السجون في العراق! أحنى الكهل رأسه. ظننته لم يسمعني، كدت أعيد عليه العبارة، لكنه نظر إلي بجد: أهو مع السجون في العراق، أم ضدها؟ رددت بلا شعور: أيوجد إنسان عاقل يقف مع السجون؟ ضحك من كل قلبه: كيف لا؟ أتريد أن تسود الجريمة! تصور بلداً من دون سجون، كيف ستسود الجريمة، الفوضى! السجون قصاص، ألم تقرأ قول الله: ولكم في القصاص حياة! ماذا أقول لهذا الذي خلط كل الأوراق، دائماً أجد نفسي عاجزاً عن رد مثل هؤلاء الناس، الذين يختلط عندهم الجهل، بالخبث، بالدهاء. رددت: لهذا طلبت منك أن تقرأ الرواية، لتقرر.

- أتشرب قهوة؟

كان سؤاله علامة لفض اشتباك بين قوتين، إحداهما لا تملك غير المستقبل، وأخرى مشدودة للماضي، لابد من الاستجابة:

- نعم.

الغرفة صغيرة جداً، لا تتسع إلا لمنضدة صغيرة، مع كرسي خيزارن واحد، جلست عليه، ربما لم يكن يتوقع أن سيستقبل غير واحد، بأي شكل من الأشكال، أما المطبخ فكان عبارة عن فراغ منحوت في داخل الصخر، لا يتجاوز طوله متر في نصف متر، وضع فيه منضدة، مصممة على قدر الفراغ، يستقر عليها "هيتر" كهربي، مع فناجين، ولوازم قهوة.

جاء بصينية القهوة العربية، تفوح بالهيل، استنشقت الرائحة الطيبة، تلهفت لتذوقها من كل قلبي، تذوقت الطعم المتميز، في الأقل بدأ يومي في الأردن وأنا حر، يختلف عن آخر يوم لي في العراق، تبدد الضغط الذي سببه الخوف من اكتشاف المخطوطة.

ليس لي غير انتظار ما يفوه به هذا الْ كلبدار، كان يرشف القهوة، ينظر أمامه. أدركت أن المنظر جميل، نحن على ارتفاع أربعة طوابق، أمامنا الطريق إلى جبل عمان، صاخب، مزدحم، في الجهة الثانية يرتفع سفح جبل ثانٍ، طرق فوق طرق، أبنية فوق أبنية، أناس قادمون، آخرون يقاطعونهم، منظر فريد لا تراه في مكانٍ آخر.

فرض احتساء القهوة طقساً يجلله الصمت، رشفت بهدوء، طعم السائل اللذيذ ينعشني، تساءلت مع نفسي: أهو يحسب كم سيكلفني الكتاب؟ لا يريد أن يصدمني بالمبلغ الكبير؟ يفكر بأسلوب لطيف يقلل من أثر الصدمة! أم تراه يفرض علي هذا الصمت ليلعب على أعصابي! لا يهمني، ليفعل ما يشاء، سأنشر الكتاب بالرغم من كل المصاعب!

قرب وجهه مني، سألني: أتستطيع الذهاب إلى سوريا؟ تفاجأت: لماذا سوريا بالذات؟ ابتسم: سؤال فحسب! ردد مرة ثانية: أتستطيع الذهاب إلى سوريا؟ "نعم" "في أي وقت" ستنشر كتابك هناك، لا هنا، هنا لا تستطيع أن تنشره، ولا تقدمه إلى أي جهة حكومية!

أدركت أنه ينصحني! صمت، تناول فنجاني القهوة، نهض بخفة جعلتني أخمن أنه كان يريد أن يتخلص مني بأقرب وقت. تركني. نهضت. سار معي ليدلني كيف أتخلص من غابة ممرات الأدراج الإسمنتية الصغيرة، وفروعها.

* * *

في نحو الثانية عشرة والنصف توجهت إلى ساحة المرجة، في دمشق، قررت أن أتغدى في مطعم شعبي عبارة عن فتحة دكان متواضع، مع مناضد خشبية صغيرة جداً لا تتسع إلا لثلاثة أصحن، الباقلاء، "كاسة" معدنية للبن، صحن فيه بصلة فوقها قرص خبز ساخن، اكتشفت هذا المطعم في الستينات، وظللت أقصده يومياً، حين أتردد على دمشق، هو وبضعة مطاعم أخرى تقدم ما يعجبني: الصفيحة، ونوعاً نادراً من الكباب، المشوي، والمبخر معاً، أما آخر أكلاتي المفضلة "في دمشق" فالباجة! الشيء المريح أن كل تلك المطاعم كانت في المرجة.

ذهبت لتناول الشاي في مقهى تشرين، لا أحد يقدّم الشاي على الطريقة العراقية هنا! لكن لا بأس، فهم في الأقل لا يفسدون طعمه بـْ"المارمية"، كما في الأردن.

تذكرت طفلي، زوجتي، أول يوم لي في الغربة! وأول مرة أغيب عنهم بعد خروجي من السجن! عندما ودعتهم رأيت في أعينهم خوفاً من مجهول لا يستطيعون التعبير عنه! أي غابة شائكة تشكل الأحاسيس! علي أن لا ألين. هم بخير، لأفكر في مهمتي، نشر الكتاب، لم أستعن بأي شخص ليريني أين أتوجه! لكن لم العجلة، مازلت لم أقض في دمشق سوى بضع ساعات، أحسست بالنعاس، علي أن أقيل بعض الوقت، لعلي أجد "عصراً" شَركة نشر ما.

- مرحبا أستاذ.

صحوت، من يعرفني هنا! التفت، شاب في الثامنة عشرة، ممتلئ، شعر أشقر، عينان صفراوان، وجه مألوف، يقف على بعد منه آخر في نفس العمر، لكنه أنحف، مع أنف طويل، عينين سوداوين، بدا الثاني أكثر إلفة للعين، لكن من هما؟ تاه الذهن.

- ألا تعرفني؟

ابتسمت: الوجه مألوف، لكن مع الأسف، أنا ضعيف في الأسماء.

درستني في البصرة، ثانوية الجمهورية.

قهقهت: كيف استطعت الهروب، ونحن في ظل الحرب؟

- قصة طويلة! وأنت ماذا تفعل هنا؟

- عندي كتاب أريد أن أنشره هنا!

أدركت مدى النشاز في وضعنا، استدركت: تفضلا، اشربا الشاي.

أومأ إلى صاحبه، تقدم هذا على استحياء، جلسا، جاء الشاي، توقعت أن يعرفني على نفسه، لكنه لم يفعل، لم يذكرني باسم صاحبه أيضاً، حتى أنه لم يذكر في أي سنة درسته، أو في أي صف! ربما نسي، ربما تعمد ذلك، لا يهم، ربما هذا أفضل! من يدري! علمت أن ذويهما ما زالوا في العراق،

غبطت شجاعتهما، شجاعة أهاليهما، إنها لبطولة مثالية أن يتركوا شباباً بمثل هذا العمر يقتحمون المجهول، يبنون شخصياتهم بعيداً عن أهاليهم، في أرض غريبة، يجربون شتى الطرق لينقذوا أنفسهم من حرب عابثة! من مجتمع لا يسوده سوى قانون الغاب، هؤلاء من يجب أن نفخر بهم.

- أستبقون هنا في سوريا.

قهقه الشاب:

- سوريا؟ ماذا فيها؟ سنتجه إلى لبنان، نقدم طلب لجوء إلى هيئة الأمم المتحدة، ثم ننتظر حتى يلبى طلبنا، ربما ينصحوننا أن نذهب إلى اليونان، قبرص، لكن النهاية مضمونة، قبولنا مضمون، إن هي إلا ضياع بضع سنوات من العمر.

ابتسمت: قرار ممتاز، ضياع بضع سنوات خير من ضياع العمر.. أتمنى لو كنت أدرك ذلك عندما كنت شاباً في نفس عمركما.

- عم تتكلم في كتابك، أستاذ؟

- السجون.

ضحك الاثنان بغبطة:

- أتستطيع نشره هنا؟

- جئت لهذا الغرض.

- أتجلس هنا في هذا المقهى كل يوم؟

ابتسمت: وصلت دمشق قبل ساعتين فقط.

ضحكا:

- لم ترَ شيئاً بعد!

- أهناك ما يجب أن أرى؟

- نعم، الست زينب.

- وماذا هناك.

- آلاف العراقيين، المهجرين.

لاح في ذهني، شيء ما، ربما أجد هناك من يعمل في النشر، من يدلني.

- أهو بعيد من هنا؟

- لا مطلقاً.. سيارة سرفيس من هنا، ربع ساعة فقط.

صافحاني وهما ينهضان، أكد الممتلئ:

- سنراك هنا إذاً.

- بالتأكيد.

* * *

لا يعرف كثير من الشعوب القيلولة، لكننا نحن العراقيين مرضى بها، حتى نظام الدوام عندنا أخذ في اعتباره القيلولة أمراً لا بد له، أنهى الدوام الحكومي في الثالثة بعد الظهر، وفي الصيف في الثانية. السومريون كانوا يفعلون ذلك قبل أكثر من ستة آلاف سنة، كما كشفت إحدى الصحائف السومرية الأولى. الأوربيون يعملون حتى السادسة مساءً، يبدأ العمل عندهم في التاسعة وكذلك الأمريكان، وبقية الدول التي تعيش في مناطق باردة أو معتدلة، يأخذون ساعة راحة ثم يستمرون حتى السادسة مساءً.

ولهذا فإن أنظمتنا وبالرغم من تخلفها حققت أكثر الأوضاع إنسانية في العمل، فنحن الدولة الوحيدة في العالم التي تعمل فيها الدولة سبع ساعات يومياً، بدل ثماني ساعات، كما في بقية الدول المتقدمة. وحينما تبنت دول العالم يوم العمل ذي خمسة الأيام، أي أربعين ساعة في الأسبوع، كنا نحن في العراق نتمتع وبالرغم من طبيعة الحكم الديكتاتوري المقيت، نتمتع باثنتين وأربعين ساعة عمل. كان العمل يبدأ عندنا في الثامنة وينتهي في الثالثة في كل الدوائر الحكومية، وأحياناً في الثانية بعد الظهر.

جو دمشق معتدل إلا أنني أحسست بحاجة لأقيل بعض الوقت، وعندما استيقظت عصراً، كان الوقت في حدود الرابعة، توجهت نحو المقهى لاحتساء الشاي، فلا يقظة من القيلولة بالنسبة لأي عراقي من دون شاي، مقهى تشرين شبه مليء، صخب الزبائن على أشده، ضجيج مرح، أعصاب مشدودة تفرج عن كبتها بالصراخ، تزجي الوقت بلعب النرد، الدومينو، الورق! توقفت، في بلادنا يمنع لعب الورق في المقاهي! هنا لا. جميع المناضد مشغولة. جالت عيناي في الأرجاء. هناك بعض الكراسي شاغرة قرب بعض اللاعبين، واحدة قرب اثنين يلعبان النرد، وأخرى قرب اثنين مشدودين إلى رقعة شطرنج.

توجهت نحو الثانية، سمحا لي بالجلوس، شيخ ناطح الستينات، وشاب أنيق لم ينهِ ثلاثيناته، رشفت الشاي ببطء ورقعة الشطرنج تفرض وجودها علي! كما لو كنت أحد الرسيلين، عليّ أن أفكر معهما قبل أي حركة، أن أتتبع كيف سيندحر أحد الملكين! إننا نشعر بالنقص لا يعوض إلا بموت الملوك، حتى لو في قطعة شطرنج! لماذا نتمنى من كل قلبنا أن ينتهي الملك! أهي قضية أعصاب؟ الإنكليز على النقيض، أعصابهم باردة! لا يهمهم ذلك، فيهم ملوك أتعس من ملوكنا بمليون مرة! فيهم ملك ساق سبعين ألف فلاح كجنود، وعندما انتهت الحرب، أقنعته حاشيته أن يبيدهم لأن الأرض التي كانوا يملكونها أعطيت لغيرهم، ولا مكان لهم في أي بقعة في بريطانيا، وفيهم من أمر بقتل كل من يسرق رغيف خبز، لكنهم أبقوا على الملكية، أما نحن فلا نطيق الملوكية حتى في الشطرنج. يجب أن نقتل الملك.

لحظت كتاباً مقلوباً على ظهره، بضعة أوراق تحت الكتاب، فأل حسن، هذا مثقف، ربما يعرف شيئاً عن النشر، اضطرب الشاب بعد بضع دقائق، ربما لم يستسغ أن يراقبه متطفل لا يعرفه! اقترح إنهاء اللعبة، انقبض قلبي، ربما يغادران، سأشعر بالوحدة، وضع الشيخ نظارتيه الطبيتين في جيب قميصه الأبيض، ذي الخطوط المتقاطعة بالأزرق. التفت إلي:

- من أين الأخ؟

فاجأني بسؤاله، شعر أبيض، عينان حيتان، ابتسامة ودودة:

- عراقي.

- أهلاً وسهلاً.

- شكراً.

- أتسكن في حي السيدة زينب؟

- لا، في فندق بغداد.

هناك بعض الأوقات نتكلم من دون تفكير، لست أدري لماذا أضفت: اليوم جئت.

- أتلعب الشطرنج؟

استعد لتنظيم رقعة الشطرنج، كأنه يتوقع أن أبادر للعب.

- نعم، لكني أحب أن أتفرج بعض الوقت ثم أذهب للبحث عن ناشر.

أحسست بأنه اهتز كأنه لدغ، لمعت عيناه:

- ناشر؟

بادرت بسرعة:

- نعم ناشر لكتاب..

- في أي موضوع..

- السجون في العراق، رواية تسجيلية!

حدّق بي بجد:

- أمعك مخطوطة؟

- نعم.

- بخط يدك؟

- نعم..

- أيمكن أن تطلعني عليها؟

- نعم، أستطيع جلبها الآن، الفندق قريب.

- لا، لنلتقِ في الغد هنا، العاشرة صباحاً.

مدّ يده معرفاً:

- عبد الرحيم الشلبي.

- محمود.. لكن أعندك معلومات عن شركات النشر هنا؟

هزّ رأسه بثقة:

- بالطبع.

ابتسمت: رب صدفة خير من ألف ميعاد.

ابتسم هو أيضاً:

- إنها الحياة.. تعال غداً، سنتكلم في الأمر.

غادرا، وأنا أشيعهما حتى اختفيا.

*   *   *

لم يخطر في بالي أنه سيتخلف قط، قرّ في داخلي أن الشلبي سيلتزم بوعده، شيء ما في سلوكه، طريقة كلامه، صوته، يبعث على الثقة، رأيته وحده ينتظرني في المقهى:

- وحدك!

- للشباب أعمالهم.

ابتسمت، لم يضيع أي لحظة، مد يده نحو المخطوطة، قرأ بضع صفحات منها، أرجعها إلي:

- ما قرأته جيد، يصلح للنشر، لكن الخطوة الأولى للنشر هي أن تكتبها على الآلة الكاتبة، ستختصر الكثير، سيخلو الكتاب من الأخطاء، وهو أمر أهم من المهم.

- ما الخطوة الثانية؟

- لا تعجل، كل شيء في أوانه!

- مجرد معرفة.

- أن تحصل على موافقة اتحاد الكتاب العرب.

- لماذا؟

- أمر روتيني! لا غير، لا ينشر شيء في سوريا من دون موافقة الكتاب العرب.

ابتسمت: يعني الرقابة.

تلفت حواليه وهو يضحك: أصبت.

- حظي سيء مع الرقابة، استولوا على روايتين لي، ومنعوا أخريين.

- لا تيأس.

- لا يأس للمضطر.

*   *   *

بدا لي أمر كتابة المخطوطة على الآلة الكاتبة شبه مستحيل، لم أفكر في هذا الموضوع قط:

- كيف أكتبها على الآلة الكاتبة؟

- الأمر سهل جداً، عندي "طابعة" سأعيرك إياها، ستنتهي منها خلال ثلاثة أيام.

- لكني لا أعرف كيف أكتب على الآلة الكاتبة.

- لا يحتاج الأمر إلى علم، سأدلك الآن إلى ما يستطيع أي إصبع أن يحرك من أحرف، ستبدأ ببطء لكن ستنتهي الكتابة في بضعة أيام.

قال ذلك، ثم مدّ يده إلى صندوق صغير، كان موضوعاً قربه على كرسي آخر، فتحه، أخرج آلة كاتبة صغيرة، وضعها على المنضدة. "ضع أصابعك هنا"، وضعت أصابعي حيث أمرني، "انظر" هذا الإصبع يتحكم في هذه الأحرف، و..

وجدت الأمر صعباً جداً، لكني أقدمت لأن في الموضع شيء من التحدي وإثبات الذات! لكني

نجحت في كتابة الرواية على الآلة الكاتبة في أقل من خمسة أيام، كنت أعمل أكثر من عشر ساعات يومياً، وكنا نلتقي في المقهى كل يوم بعد الثامنة مساء، وأحياناً، نذهب إلى السينما، نتمشى، وعندما انتهيت من كتابتها، قرأتها عليه، ليصحح الأخطاء التي وردت فيها، حدق بي في فرح:

- أصبح الآن لك كتاب.

احتفلنا بشرب البيرة على حسابي، في بار قريب إلى الفندق، وعندما لم يعجبني طعم البيرة الحامض، طلبت منه أن نذهب إلى مكان آخر، فذهبنا إلى بار ممتاز على طريق دمر والهامة، احتسينا فيه القليل من العرق.

- أتدري أن سامر ظنك مدعياً.

التفت إليه: -من سامر؟

- صديقي الذي كنا نلعب الشطرنج أول مرة التقيتني فيه.

- لماذا؟

- ظنك مدعياً، سخر يقلدك: أريد نشر كتاب! بهذه السهولة.

ضحكت، لم أعلق. لم أجد أقوى من عبد الرحيم على تحمل نكبات الزمن، فبالرغم من مواهبه المتعددة، إلا أنه لم يصب من حظوظ الدنيا شيئاً، كان يجيد الفرنسية كإجادته العربية، وفي خلال الفترة القصيرة التي قضيتها في دمشق، مع الشلبي، مررت بمحطات مهمة كما يمر القطار في طريق طويل تجاوز نصف قرن من حياته.

أيعرف المرء أستاذاً قرأ له، ولم يقرأ له؟ لو طرح علي شخص ما هذا السؤال قبل أن ألتقي الشلبي، لقلت إنه يسخر مني، أو يطرح عليّ "حزورة". كنت قرأت كغيري من العراقيين الكثير من الكتب المترجمة.

الكتب المترجمة التي تصل إلى العراق نوعان، نوع أنيق، أبيض الورق، مجلد، أو صلب الغلاف، غالي الثمن، كالأخوة كرامازوف، الجريمة والعقاب، شارع السردين المعلب، الشيخ والبحر..الخ، أما النوع الثاني فكان ذا ورق أسمر، "جرائد" غلاف عادي، رسوم فاقعة، رخيص، يباع بنصف ثمن الأول أو أقل. مترجمو النوع الأول معروفون: سامي الجندي، منير بعلبكي..الخ، أثبتوا مقدرة على تنفيذ ترجمة ممتازة تركت تأثيرها الدائم على القارئ العراقي.

أما مترجمو النوع الثاني فلم يهتم بهم غير قرائهم، ولأنهم كثر، فلم تعلق بأذهاننا أسماؤهم!

قرأت أحدب نوتردام، الفرسان الثلاثة، القناع الحديد، الأخوة باردوليان.. عشرات القصص المترجمة عن الفرنسية، لكني لم أحتفظ باسم المترجم، كان اسم المترجم يبدأ: الدكتور فلان، وكان هناك الكثير من الدكاترة مما لا تحتفظ به ذاكرة.

حينئذ عرفت أن الشلبي هو مترجمها، أما لماذا لا يكتب اسمه الحقيقي على الترجمة فلذلك سبب قوي.

عبد الرحيم الشلبي مثال حي على اضطهاد السلطة لمثقفي الفكر العربي في معظم بلدانه، على إهمالها، على تقزيمها مبدعيهم.

درس قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى في فرنسا، عرف الكثير من مشاهيرها، زامل قسماً منهم، لم ينهِ دراسته لنشوب الحرب، لكنه أجاد الفرنسية، أصبح مترجماً من الطراز الأول، واتخذ الترجمة وسيلة للعيش.

عندما ينهي ترجمة رواية يذهب إلى بيروت، يعطي المخطوطة المترجمة مكتوبة على الآلة الطابعة إلى دار نشر معينة، اعتاد التعامل معها، ينتظر بضعة أيام، يكون فيها المسؤول عن دار النشر قد تعاقد مع أستاذ في إحدى الجامعات، ثم تنشر الرواية باسم المؤلف الفرنسي، وترجمة الدكتور فلان، الذي يدفع لدار النشر المبلغ المتفق عليه، فيسلمه بدوره للشلبي، من دون أن يدري الدكتور أن الشلبي هو المترجم.

الشلبي راضٍ عن هذا الدور، أما ما يحدث بعدئذ من مفارقات فلا يثير غير غرور بسيط لدى الشلبي مقرونٍ بالرضا. صاحب دار النشر يحترم الشلبي كثيراً، يدعوه لقضاء السهرة معه، معظم الأيام التي يقضيها في بيروت. استصحبه مرة لحفلة في مناسبة أقامت الجامعة فيها احتفالاً، تلك الليلة غصت القاعة بالمدعوين، ابتعد مضيفه عنه بعض الوقت، وجد نفسه أمام شخص أثر عليه السكر مثله، جذبه من ساعده، عرفه بنفسه، لم يفطن الشلبي لاسم محدثه.

إنني سعيد. هتف الشخص "أنا أيضاً سعيد"؟ ابتسم الشلبي: إن ذكرت لي سبب سعادتك فسأذكر لك سبب سعادتي؟

ـ لم لا. صدر لي اليوم ترجمة رواية لي من الفرنسية.

ـ ما عنوان الرواية.

ـ الأخوة..

ـ أهنئك..إنه لأمر يستحق الاحتفال.

ـ وأنت ما سبب سعادتك.

ـ نفس الموضوع؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنني سعيد لنفس السبب، صدور الرواية.

قهقه الدكتور:

ـ يالك من مجامل!

ـ بل أقصد ذلك من دون مجاملة.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها من اشترى الكتاب الذي ترجمه!

ـ ماذا أجبته.

ـ بماذا أجيبه، صمت، أمر شائك، مربك، تتشابك فيه المشاعر، ثم تقبلت الأمر كظاهرة تحدث في الحياة، حيث تزدهر الغابة التي نعيش بالأحاسيس الإنسانية.

* * *

كنت أود أن أنشر كتابي في لبنان، غير أن الشلبي عارض الفكرة:

ـ عليك أن تدفع ثمن النشر في لبنان، لا يوجد نشر مجاني هناك، سيكلفك نحو سبعمئة وخمسين دولاراً.

ـ أملك مثل هذا المبلغ!

- وبطاقة الجزائر؟

- عندي ألف وخمسمئة دولار.

- لا يكفي، عليك أن تقطع بطاقة الجزائر، وأن تبقي معك في الأقل خمسمئة دولار، أن تحتاط للرجعة! من يدري ماذا سيجد؟ هل ستستدين من قريبك في الجزائر؟

- بالطبع لا..

- إذن عليك أن تفكر في العواقب، لا تعجل.

في صباح اليوم التالي، حملت المخطوطة إلى اتحاد الكتاب العرب، موظف التسجيل في اتحاد الكتاب العرب في الخمسينات، حنطي، نحيف، ذو نظارتين طبيتين. ما اسمك؟ أعطيته الاسم الذي قررت أن يكتب على الغلاف: مصطفى علي نعمان. أبقيت الجواز في الفندق. كي لا أحمل ما يكشف هويتي، سجل الكتاب في دفتر مبوب، مع الاسم. طلب مني أن أجيء بعد يومين اثنين فقط. لم أتوقع مثل تلك السرعة. في العراق يعطونك أسبوعاً في الأقل. فأل حسن. سألني مجاملاً قبل أن أغادر: ما تحصيلك العلمي؟ "الزراعة" ابتسم: "لا علاقة للزراعة مع الأدب" ابتسمت بدوري: "كلاهما زرع وحصد" قهقه: صحيح.

لست أدري لماذا أحسست بالارتياح لأنه لم يطلب مني أن أثبت شخصيتي بأي هوية! لم أشعر بالأمان قط، بالرغم من تطمين الشلبي: "هنا لا يهتمون إلا بمن يهدد مصالحهم بالقوة! ما دمت ليس من هؤلاء فلن يهتموا بأمرك". كنت أعد الساعات، وحينما انتهت مدة اليومين، طلب مني أن أنتظر على مقعد مريح. اتصل بالتلفون. جاء موظف أسمر، متوسط القامة، أصلع، نظارتان طبيتان أيضاً. مدّ يده معرفاً: "محمد بو خضور" صافحته: المخطوطة بيده، جلس إلى يساري. بدا محرجاً بعض الشيء. بعد بضع ثوانٍ من التردد أخبرني بأن الرواية صالحة للنشر، وليس عندهم مانع بنشرها على حسابهم، لكن هناك أمران علي أن أغيرهما. تحفزت، بادرت للسؤال: ما هما؟ هنا أيضاً يختلف الأمر عن العراق، هناك يفتحون المخطوطة ليروك أدق التفصيلات، العبارات، الكلمات. وضعوا تحت كل ما لا يريدونه خطاً أحمر، وعليك أن تغيره، أحصيت أكثر من مئة وخمسين خطاً أحمر تحت ما لا يوافقون عليه في مخطوطة رواية: زنقة بن بركة، مدوا الخط تحت كلمة واحدة في بعض الأحيان، تحت جملة في أحيان أخرى، تحت فقرة في ثالثة، تحت صفحة كاملة في رابعة! إن كنت سأغير كل ذلك فماذا يبقى من الرواية؟ علق علي مكي قبل أن يقتلوه: لماذا لم تطلب منهم أن يكتبوا الرواية بدلاً عنك؟

أولاً: حذف كل ما يمت للشذوذ النوعي في السجن، هذه أشياء تحدث في كل سجون العالم، ولقد أشرت إليها في بضع صفحات من الرواية! فكرت طويلاً، قبل أن أجيبه، ما كتبته عن الشذاذ أمر يجب إطلاع العراقيين عليه! يجب معالجته، هناك أطفال أبرياء يوقعهم القدر بأخطاء لا رغبة لهم فيها ولا دافع، فإن وضعوا في سجن الأحداث ليلة واحدة اعتدي عليهم، وأصبحوا منحرفين رغماً عنهم، ومنهم ذلك الطفل السنجاري، اليتيم، ذو الثانية عشرة، الذي عهدت أمه به إلى صاحب محطة بانزين، في منطقة نائية، على الحدود، فاعتدى عليه وهو نائم، لكن الطفل انتقم منه في اليوم التالي، قتله وهو نائم أيضاً، ثم سلم نفسه للشرطة، فأودع الموقف فترة من الزمن في انتظار نقله إلى سجن الأحداث. وجود طفل في موقف يثير سؤالاً مهماً حالما تقع عينا أي شخص عليه: لم أنت هنا؟ لا يعرف ابن الثانية عشرة غير عالم الطفولة التي يعيش فيه. الطفولة صراحة، نقاء، طيبة. أجاب بصراحة عما حدث له. كان يظن أنه أصبح رجلاً بانتقامه الرجولي من مغتصبه، ولم يعلم أن اعترافه الصريح للآخرين إقرار بأنه فقد شرفه وإلى الأبد، وأنه أصبح حلالاً لكل طامع دنيء. فكيف يستطيع طفل لا حول له، أن يمنع رجالاً من الاعتداء عليه مرة ثانية؟ في الموقف يسود نظام الغاب بأبشع صوره! يستطيع أي مجرم قوي أن يعلن سيادته المطلقة، لا تتدخل الشرطة فيما يحدث بين

الموقوفين، حتى لو قتل أحدهم الآخر، لن تنجد الضعيف! في الموقف اعتاد الطفل العدوان، أصبح "رغماً عنه" موطئاً لكل من فقد إنسانيته، وامتهن ضميره، وبات حيواناً بشعاً.

رؤية مثل هذا الضحية يفتت القلب، من يبقى في موقف التسفيرات بعض الوقت يرى بعضهم، يسفرون من مكان إلى آخر. كتبت عنهم في الرواية، لعلي أطلع الآخرين على مأساتهم، فلعل وعسى أن يعالج المسؤولون فيما يعالجون هذه النقائص في المستقبل!

محمد بو خضور.. ينظر إلي ليرى تأثير كلماته فيّ! لم أجبه، سألته عن الثانية، حدّق في المخطوطة مرة أخرى، توقعت أن يكون الأمر مهماً، رفع رأسه:

حذف كل ما يتعلق بصدام حسين وعائلته، ودور الكويت في إيصال البعث إلى الحكم، وما يسمى برشوتهم للبعث لقاء الاعتراف.

تساءلت: أتسمعون أجهزة الإعلام العراقية..

- نعم.

- لماذا إذاً؟

توقعت أن يكذب علي، أن يخدعني بالمثاليات، كأن يقول: إننا نلتزم بأخلاق كذا..، بمبادئ كذا..الخ، لكنه لم يفعل، كان في غاية الصراحة: لا أحد يدري، ربما نتصالح في الغد مع النظام العراقي.

فكرت أنهم ربما يفكرون أن النظام العراقي يشكل عمقاً استراتيجياً لهم! ربما يحتاجونه في المستقبل، يسترضونه بتقديم بعض التنازلات عند الحاجة، بعد تأميم النفط في السبعينات طالبت سوريا برفع عائدات رسوم مرور أنبوب النفط، في أراضيها، لم يستجب العراق. قطعت العلاقات، وانقطع مرور النفط. ربما يأتي يوم تقبل فيه برسوم العائدات السابقة. عذرتهم. نعم. إنها السياسة! اللعنة عليها. أنا لا أصلح للتعاطي بالسياسة.

سلمني المخطوطة:

- أنتظرك في الغد، العاشرة صباحاً، إن قررت فلا تتأخر عن الموعد.

كان ذلك نوعاً من الضغط، يحمل في طياته تهديداً مبطناً، لكني لم أجرؤ على سؤاله ماذا سينتج إن تأخرت! ربما يفسر سؤالي على أنه استفزاز!

انسحبت شبه ميت، جرذياً مسلوقاً بسطل ماء ساخن.

* * *

ترك لي عبد الرحيم الشلبي ورقة عند استعلامات الفندق يخبرني بأنه سيذهب اليوم إلى لبنان، ليقدم مخطوطة جديدة للطبع. لم يذكر كم سيبقى هناك! هنا امتياز آخر يتنعم فيه السوريون. امتياز لا مثيل له في العراق. زيارة لبنان متى شاؤوا، من دون تصريح رسمي!

أحسست بالوحدة. لم يكن عندي من أستشيره! من أتبادل الرأي معه! فكرت طويلاً، لم أكن أملك المال اللازم لنشر الرواية على حسابي في لبنان، ولا أستطيع نشرها كما هي في سوريا، ما العمل؟ وقفت على بردى، فوق جسر صغير، نهير صغير، أشبه بساقية صغيرة، في العراق يسمون أمثاله: نبعاً، ساقية، شريعة، هنا نهر، يعطونه أكبر من حجمه، يضخمونه! يساوونه بالفرات، دجلة، الزاب الصغير، أو الكبير! المهم، مهما كان صغيراً فقد استطاع ابتلاع ما انتزعت من أوراق الرواية!

غيبها، بحيث لم يعد لها وجود، كنت معتاداً على أن أتخلى عما أكتب في وطني! وها أنا ذا أتخلى عما أكتب خارج الوطن، لكن لا بأس! فما تبقى كافٍ لفضح بعض ما يجري في سجون العراق. بقيت أمامي مهمة صغيرة علي أن أجري بعض التغيرات كي لا أخل بسياق الرواية.

بعد تصفح محمد بو خضور لما تبقى من المخطوطة، نظر إلي بجد:

- بقي لنا طلب واحد!

حدقت به وأنا أبتسم:

- كنت أظنكم انتهيتم من الطلبات!

- انتهينا، والطلب الأخير لا علاقة له بالمخطوطة.

كدت أسأل: بماذا إذن؟ لكني أحجمت! ربما منعني ما لحظته على وجهه من انفعال! لا بل قلق! لابد أن هناك أمراً خطيراً وإلا ما بدا كذلك! دق قلبي بأشد من الطبيعي! سأرفض كما رفضت في العراق إن طلب حذف أشياء أخرى! ستتشوه الرواية!

- أتعمل معنا؟

فرحت، دائماً أستعجل الأمور، ها هو يدعوني للعمل معهم، ربما بإحدى الجرائد! المجلات، وزارة الإعلام! ربما يغنيني ذلك عن الذهاب إلى الجزائر، ابتسمت:

- في أي مجال!

مدّ رأسه إلى الأمام، كأنه لم يفهم سؤالي! أغمض عينيه:

- في الحقيقة، أعني المخابرات.

جمدت! اختلطت الأمور عليّ:

- ماذا؟

- أقصد الحقل الأمني.

لابد أنه لحظ انكماشي، انفعالي الشديد، ردد:

- اسمعني، هناك عشرات العراقيين يدخلون سوريا يومياً، لا نستطيع أن نصنِّفهم، لا نعرف من منهم الجيد، أو الرديء، لابد أن هناك الكثير من المدسوسين، لا بد من وجود عراقيين يساعدوننا.

هززت رأسي: لا أستطيع، لو كنت أميل لمثل هذا العمل ما كتبت مثل هذا الكتاب.

نهضت، مددت يدي لأتناول المخطوطة التي كان يقبض عليها بكلتا يديه، لكنه لم يعطني إياها. مشى أمامي، قلقت أشد القلق، ماذا لو أخذها! كيف أستطيع انتزاعها منه؟ كان هناك منضدة معقوفة على شكل بار طويل، قرب درج يصعد إلى طابق أعلى، أمام الباب الرئيس، ولم يكن هناك غيرنا، وكانت هناك علبة خاصة لتحبير الأختام، عليها ختم واحد، تناوله. دمغ أعلى الصفحة الأولى بحبر أزرق لازوردي: لا تطبع في سوريا، وإن طبعت خارج سوريا لا تدخل إلى سوريا.

كان ذا فراسة قوية بالتأكيد، لماذا إذاً حضر مهر المنع وحده! ناولني المخطوطة وأنا غير مصدق على سلامتي أو سلامتها، خرجت لأغرق في حزن كثيف! ها قد فشلت في تحقيق أول مهمة لي! لم يبقَ سوى التوجه للجزائر، لتحقيق المهمة الثانية! علي أن أعمل هناك لتوفير مبلغ أستطيع به نشر مخطوطتي هذه، مع بقية رواياتي! من يدري! لعلي أستطيع نشر كل نتاجي في الجزائر، على حساب

وزارة الإعلام هناك، رب ضارة نافعة! ربما كانت الرقابة عندهم أفضل، أهون، أقل تطرفاً. أو ربما لا يوجد في الجزائر أي رقابة! هم أكثر قرباً من فرنسا من أي بلد عربي! لا بد وأن يتأثروا بهذا المركز الحضاري المهم! من يدري!

* * *

جلست في المقهى لعلي أرى عبد الرحيم راجعاً من لبنان، لعلي أجد صديقه لاعب الشطرنج، سأتكلم معه بالرغم من أنه سخر مني! ربما لعبنا الشطرنج! ربما ألقى من يساعدني في انتشال قلبي من حمأة أحزانه! يا لخبثك يا محمد بو خضور! أي مهنية قذرة تتمتع بها! لماذا حملتني على تمزيق تلك الصفحات؟ ما كان ضرك لو ذكرت لي شروطك دفعة واحدة كأي إنسان نظيف! أأنت رجل أدب أم أمن؟ بعد بضعة سنوات قرأت إعلاناً "في جريدة سورية" عن ديوان شعر له! يا للمهزلة! تذكرت سامي مهدي، حميد سعيد، عبد الرزاق عبد الواحد، بقية الشعراء المداحين، شعراء قادسية صدام، لو كان محمد بو خضور هناك لبات واحداً منهم، أو لو كان أولئك هنا لفعلوا مثلما فعل هو، لكل زمن ورده وشوكه معاً.

لم أهضم لماذا حذف كل ما يتعلق بصدام، وعائلته! علي أن أتذكر وأعيد كتابة تلك الصفحات، لكن كيف أكتبها؟

كثيراً ما جربت أن أعيد كتابة بعض الفقرات كما هي فلم أفلح، أي بعد نظر يملك هؤلاء الحكام؟ إنهم عباقرة في الحفاظ على كراسيهم، أغبياء في الحفاظ على مصالح شعوبهم، أسود على شعوبهم، فئران أمام الأعداء!

حاولت أن أستعيد كتابة ما مزقت لكني لم أستطع، انتظرت عبد الرحيم بضع ساعات في مقهى تشرين، وحينما لم يرجع توجهت نحو شركة الطيران، كأني آلة لا تحل ولا تربط. قطعت تذكرة إلى الجزائر، وعندما غادرت الفندق تركت رسالة للشلبي، لخصت فيها بأسلوب أشبه بالبرقيات كل ما حدث لي، ودعته، على أمل أن نلتقي يوماً ما، ذلك أنني لم أطلب منه عنوانه كي أراسله في حالة افتراقنا، فقد كنت أظن أن موعد مغادرتي سورية لم يحن بعد.

* * *

قطعت لي تذكرة الجزائر، موظفة شابة، بيضاء، يكاد إهابها يشف عما في داخله، شعر أشقر، عينان زرقاوان فاتحتان كسماء صافية. اللعنة! أيوجد مثل هذا الجمال الرقيق في الكون، ويبدو أنها اعتادت إذهال المراجعين المساكين، فقد استثمرت سيطرة جمالها عليهم، كانت تكتفي بنظرة متعالية، تحصنها من تدخلهم، ثرثرتهم، تعليقاتهم، نظرة مصحوبة بابتسامة شحيحة ساخرة.

لاح أمامي شعور يحذرني من حرية مفاجئة، لم أحسب لها أي حساب، يمكن أن تضيعني في بحر عينيها الزرقاوين! تذكرت زوجتي، يا لضعف الإنسان! يهزه الشوق ولما يكد يفترق، تمنيت لو كانت معي!

توقفت طائرة "اليطاليا" في روما نحو ساعتين، وعندما نزلت في مطار الجزائر فصل الجزائريون عنا، ذهبوا إلى أول قاعة إلى اليسار، بينما اتجهنا وكنا أربعة أشخاص وطفلاً إلى قاعة أخرى، في القاعة شباكان يتيمان، أعطيت جوازي للموظف. سألني كم أحمل معي من عملة صعبة، وكم سأبقى في الجزائر؟ وما إن سمع إجابتي حتى طلب مني أن أقف بعيداً عن الشباك، أشار:

- هناك.

التفت... رأيت رجلا ذا نظارتين طبيتين، وطفلا، في سن الثامنة تقريباً، على صدره رقعة مقوىً بيضاء مكتوب عليها اسمه، واسم مستقبله باللغة الفرنسية.

بعد بضع دقائق جاء أحد مضيفي طائرة "اليطاليا" ومعه جندي جزائري، تكلما بالفرنسية، أشاروا إلينا، فصرخ الجندي بنا: هيا إلى الطائرة! لم نصدق آذاننا، توقفنا عن الحركة، أردنا أن نعرف السبب؟ لكنه صرخ بنا: ياللا.. أولاد الكلب.. أخذ يدفعنا بقوة، دفع الطفل فسقط على الأرض، أخذ يبكي. أنهضته، ربت على رأسه. تكلم الرجل الثاني، ذو النظارة الطبية، بلهجة ضائعة بين الشامية والجزائرية:

- لكن عليش..

- أبن القحبة..

سكت الرجل، خشية أن يسمع إهانة أشد، كان متوسط القامة، في نفس طولي تقريباً، يرتدي حلة قهوائية، ورباطاً أزرق، بينما كان الطفل يبكي منفعلاً، وهو يتكلم بالفرنسية، ويشير نحو الجزائر، يردد ببا، ببا.

ثم جاء مسلح آخر، شاب في عشريناته، أخذ يباري الأول بالشتم، أشبعنا سباباً بالدارجة الجزائرية والفرنسية معاً، يتطاير الشرر من عينيه المتوحشتين، وجه غدارته في وضع الرمي إلينا، طلب منا أن ننحشر في زاوية القاعة، ووقف على بعد متر منا، يخنْزر بنا، ولا يتوقف عن شتمنا، فرجع الجندي الأول وما زال الانفعال يسيطر عليه، لكن مع كثير من الرضا.

بعد نحو ساعة أعلن في المكيرفون أن طائرة "اليطاليا" جاهزة للتوجه إلى روما، فجاء مضيف الطائرة، تكلم مع الجندي بالفرنسية، فأخذ هذا يسوقنا أمامه نحو الخارج، وعندما أشرنا إلى حقائبنا الملقية قرب حزام الطائرة صرخ بنا مع شتيمة كبرى، أن نتركها في مكانها، لأن هناك من سيهتم بها.

لم يسمحوا لنا بركوب الباص مع بقية الركاب، جاءت سيارة مسلحة أقلتنا، نحن الثلاثة، الجندي، مضيف الطائرة، سألنا الأخير: مافيا؟ أجبت نعم! رئيسنا في روما. ظللنا في السيارة حتى صعد جميع الركاب، عندئذ سمحوا لنا بالصعود، لحظنا أن أجوزة سفرنا بيد مضيف الطائرة، وعندما طلبنا منه أن يسلمها لنا رفض، ولم ندرِ ما العلة! بينما كان الجندي مازال متحفزاً لإطلاق النار، أخذ يدفعنا وعيناه المتوحشتان تندلعان ناراً، وقلبي يدق لأني أفكر في خطأ لا إرادي، بسيط، يرتكبه لنصبح جميعاً في خبر كان.

أشار ببندقيته نحو السلم، ثم بصق على الأرض وراءنا.

* * *

حنّت على الطفل إحدى المضيفات، مسحت دموعه، قبلته، أجلسته قربها في الطائرة شبه الخاوية، بينما كنت أقلب أخماساً في أسداس، أسأل نفسي لماذا عوملنا مثل تلك المعاملة؟ لماذا لم يسمحوا لنا بدخول الجزائر! ما السبب؟ كيف يعامل طفل صغير مثل هذه المعاملة!

راجعت السفارة الجزائرية قبل سفري، قابلت الموظف المختص، لست أدري أكان قنصلاً أم لا! طلبت منه أن يمنحني تأشيرة دخول. ممتلئ الجسم، في الثلاثين، في عينيه خضرة بسيطة! ضحك، وكأني رويت له نكتة: تأشيرة دخول للجزائر؟ أين تظن نفسك ذاهباً يا سيد؟ الجزائر بلد كل العرب، المسلمين، شعوب العالم الثالث؟ هذه إهانة. ثم أكمل باللهجة الجزائرية، بعبارة: محناش قواويد..

ثم قهقه، خجلت، بادرت:

أجلكم الله..أنتم أشراف.

إذن فلماذا عاملنا هؤلاء الأشراف هكذا؟

اللعنة على اللغة! كيف سيتصل هذا الطفل بأهله! كنت قلقاً عليه إلى أقصى حد، أما آخر مرة رأيته فيها فكانت بعد وصولنا مطار روما، قادته إحدى المضيفات إلى مركز شرطة.

الرجل الثاني أردني، أستاذ في جامعة الجزائر، ما زال على عقده سنة، أخبرني بأن مثل هذه المعاملة مألوفة، وأنها طالت بعض زملائه، لكنه لم يكن يتصور أنه سيتورط بها.

زوجته في الجزائر، أولاده، معه موافقة الجامعة الجزائرية على سفره لمدة أسبوع، بطاقته المرجعة! كل شيء عادي، لكن غير العادي هذه المفاجأة، علمنا بعدئذ أنه لا يحق لنا مغادرة مطار روما ما لم ندفع ثمن الرجوع من الجزائر حتى دمشق.

ظللنا في مطار روما يومين، وكان علينا أن ننتظر خمسة أيام أخرى لكي يحين وقت "اليطاليا" للرجوع إلى دمشق، فتعرفت فيها على شاب ليبي، وسيم، أنيق، يقيم في روما، كان ينتظر طائرته إلى استوكهولم، ليقضي هناك يومين يعود بعدها إلى إيطاليا، أعطاني رقمه في روما، واقترح علي أن أعمل مدرساً في ليبيا، وأنه سيساعدني في ذلك، وطلب مني أن أتصل به ليرتب الأمر: "اعتبر نفسك مقبولاً منذ اليوم." لا تتردد، لكني لم أفكر في الأمر بجدية.

زميلي في الإبعاد من الجزائر طلب مني أن نذهب إلى عمان على طائرة "عاليا" الأردنية، بدل الانتظار خمسة أيام في المطار لكي يحين وقت الطائرة السورية، وافقت، لكنه رجاني أن أقرضه ثمن التذكرة، وسيدفع لي هناك. وعندما أحصيت ما تبقى لي وجدت المبلغ ينقص ثمانين دولاراً، فتوجهنا إلى موظف الخطوط الأردنية، وشرحنا له الموقف. فوافق بشرط أن يدفع المبلغ في مطار عمان، وإلا فلن يسمحوا لنا بمغادرته.

جاء نفر من أهالي الأردني لاستقباله، وقبل أن نتجه إلى مركز عمان، سلمني المبلغ، وكان قد وضعه في ظرف رسالة. افترقنا. ذهب هو مع مستقبليه في سيارة خاصة، بينما طلبت من سائق سيارة الأجرة أن يوصلني إلى كراج دمشق. وعندما أحصيت ما عندي وجدت المبلغ ينقص عشرين دولاراً، ولست أدري أكان ذلك خطأً عفوياً أم متعمداً.

* * *

رأيت الشلبي أمامي في مقهى تشرين، يدخن الغليون، مستغرقاً في قراءة الجرائد، لمعت عيناه، اختلطت الفرحة، المفاجأة، الاستغراب، معانٍ أخرى، كلها ذابت في حرارة العناق:

- ظننتك في الجزائر.

- حتى أنا نفسي كنت أظنني سأبقى في الجزائر.

في المدة القليلة التي قضيتها في دمشق، كان الشلبي ورقة اليانصيب التي فاجأني بها الحظ، الشيء الوحيد الإيجابي الذي صادفني، وأنا أغوص في حمأة ظلام الأنظمة العربية، وتعسفها، وحينما أنظر إلى رحلتي الخائبة في كل المعاني أشعر بالألم عميقاً: فقدت جزءاً مهماً من مخطوطتي، وفقدت معظم ما كنت أحمله من نقود، فقد فشلت في تحقيق كلا الهدفين، لم أجد عملاً في الجزائر، ولم أنشر روايتي، وها أنذا بلا حول ولا طول، ولم يبقَ أمامي سوى الرجوع إلى العراق، بلا شيء، ومن دون حتى خفي حنين.

كان متلهفاً لسماع قصتي، وينفعل لكل تفصيلة.

- أكنت خرجت في مظاهرة لتأييد استقلال الجزائر؟

- لا.. لم تقم عندنا مثل تلك المظاهرات! كان عبد الكريم قاسم يزودهم بين مدة وأخرى بحاجتهم إلى السلاح، ويتبرع لهم بمبالغ ضخمة، وأرسل لهم مرة سرب طائرات هدية بعد الاستقلال، كان تأييده يعني استمرار دعم الجزائر.

- لا تندم على ما ضاع، ستجد فرصة أخرى في المستقبل. إن كتابك يهم كلا الطرفين المتناقضين.

- ماذا تعني بالطرفين المتناقضين.

ابتسم ابتسامة كبيرة، وهو يملأ رئتيه بدخان غيلونه:

- المؤيدون لصدام، المخدوعون به، كشفت لهم ما سيجعلهم يرتدون عن تأييده له بعد الاطلاع على كتابك، والناقمون عليه في نفس الوقت، فلقد أثبتت لهم أن وعيهم لحقيقة النظام صائب، وأنهم على حق، وسيصبح كتابك بمثابة جائزة لهم، لعمق وعيهم، فلا تندم.

ابتسمت بدوري:

- لا، لن أندم حتى ولو لم أجد أي فرصة.

ثم جاءت فرصة النشر على حسابي الخاص أيضاً في سنة 1995، أي بعد أربع عشرة سنة، فقدمت المخطوطة وأنا متردد، هناك غير سؤال يرن في أذني:

أما زال ما فيها من معلومات يهم الآخرين؟

أما زالت تستهوي القارئ؟

أنا الذي رأى، أول رواية تتناول ما يحدث من عسف وظلم في العراق، وسجلت فيها ما رأيته مما يحدث في السجون العراقية.

نعم هناك أشياء أفظع مما ذكرت، كُشفت بعدئذ وبخاصة بعد سقوط صدام ونظامه، لكن لروايتي "كما أعتقد" ميزات تفردها عما كتب من قبل ومن بعد على كثرتها:

هي أول مصدر يذكر إعدام الأطفال. المقابر الجماعية. تشير إلى النشاط الكيماوي في العراق. إعدام أسرى الحرب الإيرانيين، وسحب دمائهم، والتمثيل بهم. تتكلم عن والد صدام.

أثرت بي فترة التوقيف كثيراً، وحينما سقط النظام انهمرت علي ذكريات أخرى لم أدونها، ولست أدري لماذا؟ وأخذت بعض الشخصيات التي رأيتها في المواقف تتبدى لي من جديد بكل ثقلها، وتذكرني بأقوالها وتصرفاتها، وبخاصة الملا الذي التقيته في الموصل ولا أعرف سوى لقبه، وصابر، والشيخ محمود الظاهر، وسعدون، والعبيدي، والخصيبي، وتمنيت لو بحثت عنهم بعد خروجي، وأخذت ألوم نفسي كثيراً، لا بل ألعنها، لأني لم أتحرَّ عنهم، وأعرف مصائرهم.

استطعت بعد نحو خمسة عشر عاماً أن أنشر مخطوطتي، وضعت لها اسماً مستعاراً: "مصطفى علي نعمان" لأنني إلى حد ذلك الوقت لم أستطع إنقاذ أهلي وإخراجهم من العراق.

الآن أعيد طبع هذه الرواية بعد أن زال كابوس صدام وزمرته، وأتساءل مع نفسي: أسيأتي يوم يستطيع أي عراقي أن ينشر عملاً أدبياً يستحق النشر، من دون وساطة، أو توصية من حزب، أو هيأة سياسية، حتى لو لم يكن يملك تكاليف عملية النشر؟

نحن على أبواب قرن جديد للبشرية، ألفية جديدة، ووضع جديد للعراق، زالت الديكتاتورية، وتفتحت آمال كبار، وطفق الناس يحلمون بغدٍ أفضل، ويوم جديد تعم فيه الديمقراطية على ربوع

الوطن، فهل ستتحقق آمال الكتاب، في إيجاد فرصة للنشر، فرصة تَقرأ فيها كتاباتهم، ووضع يزدهر فيه الأدب والشعر، لأنه يستحق أن يُقرأ ويزدهر لا لسبب آخر!

رأيت بلداناً عربية تشجع كتابها، وكتاب غيرها لكنها لا تطيق نقد أي كان حتى ولو بكلمة واحدة! تسمح لكل كتب العالم، لكنها تمنع أي كتاب يسيء بجملة واحدة لنظام الحكم، لا بل بكلمة واحدة، بلمزة واحدة.

ورأيت بلداناً عربية لا تقيم وزناً، أي وزن في عملية النشر إلا للفلوس، فمن لا يملك الفلوس لا يستطيع نشر أي شيء!

ورأيت بلداناً عربية ما زالت تعيش في ظلال القرون الوسطى، فمازال الأدب الذي يزدهر فيها أدب مدح وذم!

فمن الملام في تقريب شاعر يجيد المدح؟ المسؤول الذي سمح لمثل ذلك الرقيع أن يمدحه بما ليس فيه أم الشويعر الذي استبدل كلماته بحفنة من المال؟

أقول ذلك وأتساءل:

متى تصبح الدول العربية بلداناً سوية؟ وهل سيأتي مثل ذلك اليوم؟

الباب الثالث: فرج بيرقدار

فرج بيرقدار

ولد الشاعر السوري فرج بيرقدار في حمص عام 1951. وفي بداية السبعينات بدأت ميوله الأدبية واليسارية تتضح ليصدر في منتصفها كراساً أدبياً مع بعض المبدعين الشباب كان من بينهم الراحل جميل حتمل ووائل السواح وبشير البكر ورياض صالح الحسين وغسان عزت وموفق سليمان. هذا الكراس الأدبي كلف بيرقدار ثلاثة أشهر من السجن عام 1978. بعدها نشر ديوانه الشعري الأول "وما أنت وحدك" عام 1979 ثم الديوان الثاني "جلسرخي" سنة 1983 قبل أن يتفرّغ للعمل السياسي الذي سجن بسببه عام 1978 بتهمة الانتماء إلى رابطة العمل الشيوعي، لفترة قصيرة ثم اعتقل من جديد في 31 آذار 1987 بتهمة الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي. أحيل بعد ست سنوات من اعتقاله إلى محكمة أمن الدولة العليا بدمشق (وهي محكمة استثنائية) فأصدرت حكماً بسجنه خمسة عشر عاماً مع الأعمال الشاقة والحرمان من الحقوق المدنية والسياسية. جرت حملة دولية واسعة للمطالبة بالإفراج عنه، شارك فيها مئات الكتاب والفنانين العالميين، والعديد من الشخصيات الحقوقية والسياسية، بالإضافة إلى المنظمات المعنية مثل: اللجنة العالمية لمناهضة التعذيب، منظمة "صحفيون بلا حدود"، نادي القلم العالمي، منظمة العفو الدولية..الخ. إلا أن السلطات السورية لم ترضخ لضغوط الحملة إلا بعد انقضاء قرابة أربعة عشر عاماً من الاعتقال، قضاها مابين فروع الأمن وسجن تدمر الصحراوي وسجن صيدنايا العسكري، إلى أن أطلق سراحه في 16/11/2000. هرّب أصدقاء فرج ديوان "حمامة مطلقة الجناحين" من داخل السجن على ورق السجائر فطبع سنة 1997 وترجم إلى العديد من لغات العالم. وبعد إطلاق سراحه أواخر سنة 2000 إثر حملة دولية نشر ديوانه الرابع "تقاسيم آسيوية". شارك في العديد من اللقاءات والمهرجانات الشعرية، مثل مهرجان جرش لعام 2001، مهرجان يوم الشعر الهولندي في أمستردام 2002، مهرجان "دنيا" في روتردام 2002، مهرجان الهجرة في أمستردام 2003، مهرجان أنتويرب في بلجيكا 2004. كما أقام العديد من الأمسيات والندوات في دمشق وعمان وبيروت وبرلين وكولونيا وباريس وديجون وجنيف ولندن واستوكهولم وبرشلونة. شارك في المؤتمر الخامس لنادي القلم العالمي في برشلونة 2004. ودعي للإقامة في ألمانيا ثمانية شهور في ضيافة مؤسسة هاينرش بول عام 2001، كما دُعي من قبل مؤسسة (شعراء من كل الأمم) للإقامة في هولندا لمدة عام.

أعماله الأدبية:

- وما أنت وحدك، شعر 1979.

- جلسرخي/رقصة جديدة في ساحة القلب، 1981. وهي مكرسة لروح الشاعر الإيراني الشهيد جلسرين الذي أعدمه جهاز السافاك البهلوي؛

- حمامة مطلقة الجناحين، 1997. هُرّبت قصائد هذه المجموعة من السجن مكتوبة على ورق السجائر، ونشرت بعد خمس سنوات من تهريبها، وهذا ما جعل طبعتها الأولى مليئة بالأخطاء المطبعية والفراغات الناجمة عن عدم إمكانية قراءة بعض الكلمات.

قام الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي بترجمتها إلى الفرنسية تحت عنوان آخر "لا حيّ، لا ميّت"، ونشرها عن دار الدانتي.

فازت في عام 1998 بجائزة هيلمان هومت التي يمنحها نادي القلم العالمي بالتعاون مع منظمة هيومن رايتس ووتش.. ويعكف الآن شاعر أميركي على ترجمتها إلى الإنكليزية، حيث ينتظر

صدورها في الولايات المتحدة قريباً.

- تقاسيم آسيوية، 2001 عن دار حوران بدمشق.

بالإضافة لأعماله الشعرية، المخطوط منها والمطبوع، كتب فرج بيرقدار عدداً من الأعمال النثرية المخطوطة التي تصور أبعاد التجربة الإنسانية في المعتقل، لعل أبرزها كتاب "خيانات اللغة والصمت" الذي كتبه في سجن صيدنايا ونشر الملحق الثقافي لجريدة النهار اللبنانية أربعة فصول منه.

صدر عن فرج بيرقدار كتاب في باريس بعنوان «من أجل فرج بيرقدار» شارك فيه خمسة وثلاثون كاتباً وإثنان وعشرون رساماً عربيًا وعالميًا منهم محمود درويش، عبداللطيف اللعيبي، تريستان كابرال، فانسيس دومنيك، يوسف عبدلكي.

حصل فرج بيرقدار في العام 1998على جائزة هيلمت/هامت التي تمنحها مؤسسة ثقافية أميركية، تحمل الاسم نفسه، بالتعاون مع منظمة Human Rights Watch لكتاب معتقلين على خلفية آرائهم ومعتقداتهم. وفي العام 1999 حصل على جائزة American Pen Center، وهو الفرع الأميركي لاتحاد الكتاب العالمي المعروف باسم International Pen Club. كذلك جائزة "الكلمة الحرة" الهولندية (ترعاها منظمة "نوفيب" الهولندية) في دورتها السابعة والعشرين للعام 2004.

(جائزة "الكلمة الحرة" تمنح للشعراء والمبدعين الذين تعرضوا للاضطهاد في بلدانهم أو خارجها، والذين قضوا فترات تحت التعذيب في السجون... أو الذين منعوا من نشر أعمالهم الأدبية في أوطانهم. وجاء في بيان لجنة التحكيم: "هذه المرة تمنح الجائزة إلى الشاعر السوري الشجاع فرج بيرقدار الذي قضى أربعة عشر عاماً في السجن، والذي ما زالت أعماله ممنوعة في بلاده").

مخْتارات شعرية

آيتان

ليست كأي فراشة خفقت
لتوقظ قلبَهُ
ناقوسةٌ من جلّنارْ.
ليست سواهُ
فهل يقول لها:
كفاك فراشةً زرقاءْ
وكفى حنيني
أن يكون بلا ضفافْ!!

* * *

الظلّ متّكئ على الأشجارْ
والذكرياتُ على التعبْ.
لا أنتِ أطلالٌ فأبكيها
ولا الشعراء مثلي عندما يبكونْ.
رُدّي عليّ الريح
بعد مرورها بالقمحْ.
الريح سيدة الحقولْ
الريح سيدة الخيولْ
الريح.. سيدة القصبْ.

* * *

ليست كأي حمامة هدلت
لتخضلَّ السماءْ
ألله يا امرأتي!
ألله يا ابنتنا!
ألله إن غزالتين طريدتين
تقبّلان بآيتين من الندى

روحي وتبتعدانْ.
يا برقُ
كن ظلاً لخطوهما.
يا أفْقُ
خذ قلبي وضُمَّهما
فلربما.. يتأخر الطوفانْ.
دمشق/فرع فلسطين 1987

حكاية

كان يا ما كانْ.
حدّثني زمنُ بن زمانْ.
أنَّ النار دليلْ
فتزوَّدْ ما يكفي منها
لطريق وعْرٍ وطويلْ.

*　　*　　*

حاولْ مهما الليلْ
فإذا دقّ اليأسُ عليك البابْ
لا بأسْ
إنهضْ
واكتب فوق الجدرانْ
من غير شروحٍ أو تفصيلْ:
السيِّدُ يأسْ
أبلغْ مولاك السلطانْ
أن الزنزانة ليست أضيق
من قبرِهْ
أن الزنزانة ليست أقصر
من عمرِهْ
هذا..
إن قَبِلتْ أرضٌ جيفتَهُ

محفوفاً بالأقدام

ومحروساً بالنسيانْ.

فرع فلسطين/نيسان 1987

هديل

هديلكِ يتعبني في المساءْ.

إذن.. أتعبيني.

كخمر القصيدة إذ تهدلين

وبي منكِ

ما يستحثُّ الخيولَ على الدمعِ

ما يثقل الطير أجنحةً

ما يليه الغناءْ.

هديلك أرجوحةٌ

والمدى ضيِّقٌ

ضيِّقٌ في الغيابْ.

فهل شجر القلب يكفي

إذا انكسرتْ ريحُنا

وانكسرنا مع الريح؟

هل شجر القلب من دمنا

أم سرابْ؟!

سؤالٌ يراودني نيزكاً نيزكاً

وردةً وردتينِ

تنامان فوق ذراعي

فينسرب الفجر أزرقَ

كي يستحمَّ الندى

كي أراهْ.

ومن أجل هذا السؤالِ الغزالِ

وما سوف يأسرنا

في شِباك الجوابْ

ومن أجل أن لا تضيق السماءْ.

سأطلق سرب حمامٍ غريرٍ
وأفتح أبراج روحي على غدها
فإن أغرقتني هديلاً
غرقتُ
وإن أيقظَتْني
سأترك نافذة الحلم مفتوحةً
وأنامْ.
فرع فلسطين/1987

عواء

لم يكن غيرنا
جثة تتدلّى غداً
وأنا.
لا المدينة أمٌّ لتوقِفَ موتي الطويل
ولا نجمةٌ لأصير ابنها.
من على الباب؟
هل جثتي معكم؟!
لست أسمعكم جيداً
حسناً حسناً
إنها..
ربما جثة الطالب الجامعيِّ الذي فوقنا.
كانت الريحُ أنشوطةً
والحيادُ السمائيُّ
والنهرُ..
من يطرق البابْ؟
منذ ألف خراب لكم
نحن لسنا هنا.
أغلقَ الخوفُ آخرَ نافذةٍ
في هدوء الجبلْ.
قلتُ أسندُ ظهري

إلى حجرٍ أو جدارٍ
فما كان غير السهول
سأعوي إذن..
ربَّ ذئبٍ على السهل يسمعني
فيجيب.
لنبكِ معاً أوَّلاً
ذئبُ يا ذئبُ
إبك معي ثانياً
ليست الأرض زنزانةً
غير أنك مستفرد وحزينْ
وأنا ليس لي طائر أزرقٌ
وهوى بيننا!!
يومها..
لم يكن يا صديقي
سوى جثةٍ
تتدلَّى
غداً
جثةٌ.. وأنا.

محاذاة شعرية للرقص

أجل..
وحده ينبش الروح
يخلعها من زنازينها الجسديةِ
حتى إذا بلغَتْ عريها
شابهتها النيازكُ
وانهمرتْ في فراغ الشروط
لتشترط المُطْلَقَات.
أجل..
من حضوراته أن تغيب
فتبصرهُ

يستوي فوق مجد العروش
ولا غيره يوقظ الأرض
لا سرَّ أوضحُ منهُ
ويربكني أنه الغامض الفردُ
أشهد أن الضلالة مؤمنة معَهُ
ثم أشهدُ
أنَّ الطيور خلاياهُ
مَنْ وحده كلُّ هذا سواهُ؟!
أناديه من حافةِ الكون:
هل أُمَّةُ النهر أنتَ؟
فيستنكف الغيب
أم سُربةٌ من وعولٍ
إذا نفرتْ ليس لي جسدٌ؟!
لكأن النجوم شظاياك
وامرأتي كلَّ حين تجمِّعها
مثلما جمَّعتني.
أنا داخلٌ فيكَ
حتى يكون السراب
أنا خارجٌ منكَ
حتى أرى لا حدودكَ
يا مطلقَ الضدِّ
يا مطلق الارتهان
أحاذيك بُدَّاً
وأترك للوحش قلبي
وللنار ظنّي.
أحاذيك بُدَّاً
وأترك للبحر غربته وانطفائي.
أحاذيك بدًّا
وأترك للأصدقاء اكتشاف القصيدة

صهيل

قفا.. وابكيا
ليس حزناً
على جثة من بقايا إله بعيد
إذن ليس حزناً
على طائر مثقلٍ بالفضاء
ولا تأخذاني
ولا تتركاني
لعل خراباً بلا لغةٍ صاحبيَّ
لعلكما ترجئان احتمالات موتي قليلاً
فزنزانتي جسدي
والقصيدة حرية طارئةْ.

* * *

نفضتْ نخلةٌ طَلْعَها
وهي تجهشُ:
مَنْ أعتريه إذا ضلَّ حادي البروق
ومن يعتريني؟
أيصعدُ؟
تتبعه الأرضُ
يهبطُ؟
لا بدَّ أنَّ السماء التي يبتغي
واطئةْ.

* * *

قلتُ:
هذي رؤايَ ونزفي يصدِّقها
ليس للنهر أن ينثني
دون هذا الرهان.
ولكنني عندما تهطل امرأةٌ

آخرَ الليل..
أنسى يديَّ على صوتها
ثم تعزب تاركةً لي قيودي
لأكتب شيئاً أخيراً
وهل من أخير سوى أنني
كلما اجتهدتْ بي طيورٌ مؤجَّلةٌ
شرِق الأفقُ
واعتكرتْ ساعةٌ من سرابٍ تغرغرتُهُ؟!
أيُّهذان..
رُدَّا عليَّ فضاءً صغيراً
فزنزانتي جسدٌ أقتضيهِ
وحريةٌ تقتضيني
وردَّا عليَّ سؤالاً
لأجوبةٍ بعثرتْها القبائلُ
أو بعثرتني عليها
ولا ضير..
إن غداً فائضاً سوف يجمعني
دمعةً دمعةً
كالقصيدة في مهدها
ثم يومضني فجأةً
كالقصيدة في أوجها
ويباركني بالنقيضْ.

* * *

آهِ يا أختُ
يا أمُّ
يا أيَّ عاشقةٍ
لو رأى اللهُ صورته في عناقاتنا
لتجلَّى
ولكنه لا يرى

غير أبوابها المقفلات،

وأغلالها،

والسماء مطأطئةً تحت أحذية الجندِ،

غيرَ سماءٍ مضفَّرةٍ

عرشها من دمٍ

شرعها من أسيدْ.

أهيَ الروح تشهق

من شجر في "الدجيل "*

يرنِّحه الوصفُ والقصفُ

ثم تَرُدُّ الشهيق دماً

في الرباطْ؟!

تلك مئذنةٌ طعنةٌ في الفراغْ

تلك ساريةٌ كعبها في التراب

و لا تنتهي في السماءْ

تلك جلجلةٌ..

ودمٌ يغسل النيلَ من مائهِ

بردى من كوابيسهِ

والفراتْ.

*   *   *

قلتُ:

هذي رؤايَ وها أنتما تشهدانْ.

جمرةً.. جمرتين.. ثلاثاً.. ويندلع الفجرُ

زرقتُهُ لا تَضِلُّ

صهيلاً صهيلاً ويكتمل الشوطُ

يعلن قسمةَ هذا الزمانْ:

كلنا ذاهبون إلى ما سيأتي

أجل..كلهم ذاهبون إلى ما مضى.

وسِّداني حنانَ جراحي إذن

وانهضا.

كتبَ الطفلَ بالبحر في رأس دفترهِ:
وقفا خطوةً
نزفا دمعةً
نـهضا.
سجن تدمر 1992

قصيدة الحزن

زرقةُ العمق هو الحزنُ
وعمقُ الزرقة الحزنُ
ونجمٌ راعشُ الدمعة في هذا الفضاءْ
لغة في ذروة الصحوِ
تُشِيْعُ الليل
من أجل اكتمال الأسئلهْ.
يجرح اللحظةَ بالحلم ويمضي
مثقلاً بالأنبياءْ
وصهيلِ الذكريات المقبلهْ.

* * *

زرقة العمق هو الحزنُ
وعمق الزرقة الحزنُ
وما لسنا سواهْ.
نحن في مرآتهِ
أم هو في مرآتنا؟
سِيَّان..
صمتُ امرأتي مِلحٌ على صوتي
الذي يأخذ معنى الجرح
واسم النهر
لكنَّ يديها ضفتايْ.
صمتُها سفح من الفيروز
كم يغتالني صوتي على قِبلتهِ ليلاً

ويرتدّ شهيداَ

فيرى ما لا أراهْ!

شفقٌ من وردةٍ يجرحها النسيان

هذا الحزنُ

أُمّي أمُّهُ

ريحٌ على آخِرِ ناي

تتهجّى النهر كي نجري

فيجري خلفنا صفصافُهُ الطفلُ

كترجيع الأذانْ.

قلتُ: يا أماهُ

من أكثر حزناً بيننا

أنتِ

أم النهرُ

أم البرقُ الذي بين يديّْ؟

همستْ لي

وهي تطويني على رمشٍ بَلِيلٍ:

بعدَنا يأتي الحمامْ.

بعدنا؟!

خضَّبها صوتي

فردَّتْ قمراً عن وقتِهِ

أحنتْ سماءين بكفيها

أرادت: يا بُنيّْ

بدأ الحزنُ بنا أسماءَه الأولى

وفاضْ

منذ بِيْدٍ تهدل الرملَ

على الذكرى

وذكرى تهدل الأسودَ

فوق الأبيضِ الخاشعِ

والأبيضَ فوق الأسودِ الشائعِ

كي تحرس جمراَ بالرمادْ.
منذ أشجارٍ تخطُّ الشعرَ والعمرَ
على كرَّاسة الأرضِ
أجل منذ اغترابٍ واغترابٍ
طالَ ما بينهما
شرحُ البلادْ.
منذ شرْقٍ دمُهُ شُقَّ
ليعطينا الشآمْ.
ولهذا نوجز الحنطةَ والحكمةَ
سطرين على رَيْشَى..
نعيد الخلقَ من أوِّله
كي لا ينامْ.

* * *

أيُّ روح
يخفق الليلةَ في أشرعة المطلقِ
أو فوق صواريهِ؟
لقد مرَّ القطا في البالْ
ويمرُّ الله في الحزنِ
تمرُّ امرأةٌ قصوى
يمر الصمتُ والمعنى
وقد مرَّ شراعٌ
أعلنَ الرحلةَ في يومٍ مطيرْ.
أيّهذا الطين
مَنْ يحصي ظنوني؟
لابنتي عينان من رجع الزغاريدِ
إذا كان المساءْ
ووشاحٌ من تراتيل الغمامْ
ولها أن توقظ الرؤيةَ والدمعَ
بعيني الضريرْ.

أسبلتْ هدبين أشهى من نعاسٍ
يسرق الطائرَ من بين جناحيهِ
وقلباً من يدَيْ أمي
وقيداً من يديّْ
وارتأت حلماً
على نيّة أن يبتسم الحزن قليلاً
فرأت أُمًّا
تداعى خلفها الماضي
أباً تجهد في ترميمه الأطلال
هذا ليلُهُ يَذهَلُ عن أنجمِهِ
ستةَ أعواد تدلّى شجرٌ منها
وخيلٌ وقصائدْ.
أيهذا الطينُ مَنْ غيركَ
لا يبدأ إلا في الختامْ؟!
آسِرٌ هذا الذي تضمره روحُكَ
والنبعُ
فيخضلُّ به العاشقُ
والصوتُ العراقي البعيدْ.
آسِرٌ يهطله الظلُّ رخيماً
فيضيءْ.
هكذا قال الأسير الإحتماليُّ
رآني ساهماً، أردفَ:
هل دقَّتْ يدُ الحزن على بابكَ؟
حَلَّ العروةَ الصعبةَ
عن ذاكرةٍ تلمع كالفضةِ:
تلك امرأتي حزني
فكم تأتي
وكم أمضي إليهْ!!
ليلُهُ البرقُ الذي يوقظ أسرارَ النبوّاتِ

ويتلوها مَطرْ.

كان في البدءِ

وكُنَّاهُ

فأَسْمُوْهُ إذن عزفاً

وأسموني وَتَرْ.

قلتُ: ما زلتَ على الضفةِ

والنهرُ يسيرْ.

كن مع النهر ترَ الحزنَ

كما الله يراهْ.

أمُّهُ تنأى وراء الشرفاتْ

شجراً يكتشف الريحَ

ويمتد عميقاً في تراب الروحْ.

كأسُهُ الغفرانُ ما يمكنُ

والطوفانُ ما يمكنُ

والشعرُ صداهْ.

كأسه أن يمطر الداخلُ

حتى يستوي الآثمُ والقديس

في هذا الرداءْ

وله نخبٌ من البركان

في البدِّ الأخيرْ.

سجن تدمر 1992

تشكيل أبجدي

- أ -

أنت لا تبدأُ

هذا أزلٌ يومضُ

أعني: أبدٌ ينبضُ

أعني أننا ظِلُّهما في الماء

هل تبصر ما أبصرُ؟

ها أنتَ إذن تضرب في اللجَّةِ
كالعاشقِ
والريحُ تواتيكَ
وها أنت غداً
فارفعْ سواريكَ وراء الغيب
لا تتركْ على الأفق، أو البحر، أو الطين
سطوراً للبدايات
وأكمِلْني على رسلكَ
أنتَ الآن لا تبدأُ
حاذِرْ..
كلُّ من يبدأ واهمْ.

- ب -

بعدُلم نكمل مراثي القرن
لم نشرح دماً
فاض من الشعرِ
ولا دمعاً من النثرِ
وما من شرفات، لنرى منها، سوانا
وسوانا نحنُ
هل يختصر الميِّت حياً؟
حسناً.. هل جرَّب الأسرُ
جناحين هوى الطائرُ
من بينهما حراً
فلم يكتشف المعنى بعيداً
عن معانيه التوائمْ؟

- ت -

تلك مرآةٌ
وهذي امرأةٌ
تنتصب المرأةُ

فلتنكسر المرآة والحاكمُ
والسرُّ الذي بينهما
تنتصب المرأةُ
كي نبصر ما قبلُ وما بعدُ
من الداخلِ والخارجِ
أغمضنا سماءً
وتوضأنا شروقاً
ثم صلَّينا على ركبتها حتى الضحى.
مرَّ السلاطينُ بلا أحلامهم
كانوا يجرُّون توابيتَ
نسمِّيها عروشاً
أنرى حقاً؟!
تساءلنا
وكيف انتصروا؟!
لم ينتصر إلا الهزائمْ.

- خ -

خمرة أوَّلها الظلُّ
ولا تقنعُ بالبركان
مشَّطنا لغاتِ الصحو
كي نرفعَ
كأسَ الشجر العاري/بقايانا
فمن يجمع ما يكفي
من الصمتِ الذي يُضمِر جمراً
لم نزل نقبضهُ؟
عُدنا ومشَّطنا حروفاً
حَذِلتْ أعينُها
حزناً على صمتٍ جليلٍ
طعنوا خلوتهُ..
يتَّهم الصمتُ جيوشاً

وقضاة.. ومريدينَ.. وألقاباً
ولا ينسى.
دَعْوهُ من تعازيم مواليكم
ومن عَقْدِ الرتائمْ.

- ذ -

ذاهلُ النيَّةِ هذا الغدُ
والأمسُ الذي يشهقُ
من آدمنا الأولِ
بل من دمنا الأول ذاهلْ.
دخل الليلك في معناهُ
والليلكُ لا معنى لهُ
مَنْ غيرنا؟
أيُّ حنينٍ يغسل الرؤيا من الصحوِ؟
أنا الخطوةُ ما تجرح في الأرض
اليبابِ
وأنا ريحٌ بلا سرجٍ
وأحلامي حمامٌ
كلما أرسلتُه قال سماءً
لتنامي يا ابنتي في ظلها حتى إيابي
لم أقل بعدُ سؤالي
لم أقل غيرَ ظلالي
لم أقل غير نشيدٍ فاجعٍ
كان ومازال يقاومْ.

- ن -

نخلةٌ ضلعي
وروحي فرسٌ سمراء
والذكرى خيامي.
فلمن أترك رَحْلي؟

ولمن أوصي بشوقي لسرابٍ
لم يخن صاحبَهُ يوماً
كما خانتْ أهاليها العواصمْ.

- ي -

- ينتهي؟
لا..
هو لا يعرف هذا الفعل
لا يَقْبَلُ تصريفاتهِ
يبحر فينا..
فإذا صار إلى الشاطئ
قال: اعتذروا لي منهُ
حولي زرقةٌ أوسعُ من أحلامكم
كان امرؤ القيس يغاويها فتغويهِ
انتهى الشاعرُ، أمَّا الشعرُ
قلنا: لا
وقلنا: سنحاول.
سجن صيدنايا/1999

زيارة

أخيراً..
وعلى غير ما لم تكن عليه
العادة
ابتسمت حبيبتي عن اسمها.
احتفل الكون بسماءين إضافيتين
ولبستْ الفراشات أجنحةً من
الحرية الخالصة.
شكراً.. قالت الغابات
وسرَّحتْ شعرَها بالريح.
شكراً.. قالت النوارس

ونفضتْ عن أجنحتها
تعبَ الهجرات الأولى.
شكراً.. قالت الأمواج
وهي تؤدي رقصتَها
على مقامٍ بحريٍّ عاشق.
تراكضت حقول القمح
وروَّضت الأحلامُ العواصف
ثم استوى الله
على عرشه من جديد.
أخيراً..
وعلى ما هي عليه العادة
غرغر صوتُ الشرطي
معلناً انتهاء الزيارة
فأغلقتْ نوافذُ السجن عيونها
واتّشحت الجدران
بلونٍ شديدِ الخجل.
سجن صيدنايا 26/1/1993/

بورتريه

قالت له اللعنة: كن
فكان.
عيناهُ
زرَّان من نحاسٍ متَّسِخ.
أنفهُ
شارةُ تعجُّب
مرسومة بشكل رديء.
فمهُ
على هيئة كاتم صوت
ولسانه في بيت النار.
على كتفيهِ

طواويسُ منفوخة بالهزائم

وفي ذمتهِ

ديون تتهدَّدُ بنوكَ الدم

بإفلاس فاضح.

يرعانا..

بقلبٍ ضرير

ويحرسنا..

بأسلاكٍ شائكة.

نواياه مفخَّخة

وابتسامته نذيرُ مجزرة.

حِكمتُهُ موت

وعدالته جهنَّم.

عذراً.. سأتوقف

إني أشعر بالغثيان

ربما هو ليس كذلك تماماً

بيد أنهُ..

سجن صيدنايا/شباط/1993

وَهْوَهات

ها أنا وحدكَ

في هذا العماء الفاغر

المجنونْ.

هاأنا وحدك، والموتُ جميعاً

بضواريهِ.. وعرَّافاتهِ.. والمخبرينْ.

ربما أفضي

إلى أقصى احتمالاتي

لكي تفضي إلى الحلم

الأخيرْ.

فاشتعلْ حتى تراني

واكتملْ حتى أراكْ.

وردتي بين حريقين

وتنخوني

لعلِّي أوقظُ الحكمةَ في هذا

الخرابْ.

ولقد حاولتُ

حتى آخرِ الوردة والنارِ

فكيف استفردوا صوتي

وصمتَكْ؟!

هل توكأتَ على سيفٍ مؤجَّلْ

أم تبدَّلت غياباً بغياب؟!

* * *

هاأنا وحدكَ ما أنتَ سوايْ

لم أكن قبلي، ولكنك بعدكْ.

سفحَ الظلُّ دمَ الشمس على الأفقِ

وفحَّ الليل

فحَّ الليل

كم تأخرتَ..

تغيَّرتَ..

وما كنتَ لتعرى، لا تؤاخذني، وأكفانكَ

عندكْ.

* * *

مسَّدَ الحارسُ بالشوك عصافيركَ

والدولةُ أهدت لك موتاً

إحتياطياً

وما يكفي من العتمةِ

كي تذهبَ

فاذهب.

أنت أدرى بجنون الموت

إذ يندلع العزف
وترتجُّ أساطيركَ
هذا جسدٌ آخرُ في الساحةِ
هل تسألني من "طرطش" اسمَ الله
والعرشَ دماً؟
لا وقتَ..
هذا جسدٌ آخرُ
من يأخذه مني
ومن يأخذني منهُ
ومن يشهد أن الموت
يتعبْ؟
مسَّدَ الغامضُ بالأسلاك والكفرِ
فضاءاتكَ
حاولتُ كثيراً
وبكى نجمٌ على أفْقِ القصيدهْ.
قلتُ حاولتُ كثيراً
ولقد مسَّدتُ بالليلك ليلكْ.

* * *

شرِق النـهرُ بدمع امرأةٍ
كان ابنُها أعذبَ مما تشتـهي
وانكسرت أحلامـها في الليل.
كان الله في سابع نومٍ
وابنـها أيضاً
فمن روَّعهُ قبل أذان الفجر؟
من يا أختهُ
يهدي إليك الآن من قامته نخلاً،
ومن ضحكته غيماً،
وأفقاً من يديهْ؟
شرِق النـهرُ بدمع امرأةٍ

تشبه أمي
مثلما تشبهني أنتَ
وأنت الآن وحدكْ.

*   *   *

شرَّدتكَ البيد
يا "ضَوَّا" عليك الليل
والنُوَّار أظلمْ.
وطوتكَ الريح
يا صلَّى عليكَ التيه
والنسيانُ سَلَمْ.
فإلى أين سأمضي بمواعيدكَ؟
لا أسأل عن أمكنةٍ
سجني مكانٌ
غير أن الأزمنةْ
جُرِّدتْ من حقها بالسفر الحرِّ
ومن حق المكانْ.
يبستْ في معطفي
سبعُ غماماتٍ وذكراكَ.
أتبكي؟!
مالحٌ دمعكَ
والشاعر في مرمى القصيدةْ.
إنه يكتبها
أو لأقلْ تكتبهُ
أو يكتبانْ:
ربما تحمل لي ورداً ولكن
دُلَّني..
بعدكَ مَنْ يحمل وَرْدَكْ؟
ليلنا تطفو مراثيهِ
على البحر الطويلْ

وأرى وجهيَ فوق الموج

أم وجهك هذا؟!

مالحٌ دمعكَ

فأْذَنْ لي بأن أغمِضَ عينيَّ قليلاً

وقليلاً

وقليلاً.

بعدُ لم أُسلِمْ جهاتي

لقضاء الرمل.

خلفي زمنٌ يخجلُ

من أكذوبة الجغرافيا.

شكراً لعصفور بنى أفقاً

على النافذة الأخرى

وطارْ.

آهِ يا كاسر ظهري

ظلكَ الآن غدٌ محترقٌ

أنشر أمطاري عليهْ

وأناديكَ بما في الروح

من وهوهة الخيلِ

فهل تسمعني؟

إني أنادي:

أنا لا أبحث عن قبر جماعيٍّ

ولكن.. عن بلادي.

سجن صيدنايا/شباط/1993

تشخيص

العاشق بنصف قلب

لأنه أهدى النصف الآخر

إلى الحب.

الجلاد بقلبين

الأول:

ليكره الآخرين إلى النهاية

والثاني:

ليكره نفسه إلى النهاية

ويحدث أن يتعب أحياناً

فيُضطر إلى العمل

على قلب واحد.

سجن صيدنايا 1993

الطْريق

أخذتُ معي وتراً

وكتاباً

وسيفا

ويمَّمت شطرَ الذي ليس يظهرُ

إلا ليفضحني

ويقول: اشهدوا

كلما نَشَزَتْ

طعنةٌ بين جنبيهِ

كيف يميل إلى طعنة بعدها

وهو يُضمِر ثالثةً ستليها

لينسى جراحاً أشدَّ

وأخفى.

*   *   *

أخذتُ معي حزن أمي

وأحلامها

وتركتُ ورائيَ قلبي

يكفكف خطواً شجيَّ التقاسيم

خطواً شهيدَ مقامين

(أعني الهوى والنوى)

ويعود إلى أهلهِ

قبل أن تَظلِم العين

هل كان يبكي؟

سلامٌ على وجدهِ

كلَّ بينٍ وبينْ.

إلى أين هذا الصهيل الذي

في دمي؟

والقتيل الذي في فمي

والدليل الذي لانبوَّةَ أوجع منهُ

وهذا الطريق إلى أينْ؟!

طويل إلى آخر اللهِ

يمضي ولا يتلفَّتُ..

ما أشبهَ الجمر بالجمرِ

والكفرَ بالكفرِ

والشمرَ بالشمرِ

يحتزُّ رأس الحسينْ.

أخذتُ معي وطناً أسوداً

كفناً أسوداً

وبروقاً ملفَّعةً بالسوادْ.

أخذت معي ظلمةً لاتغيبُ

وأسئلةً لا تجيبُ

ويمَّمتُ شطري

بأجنحةٍ..

من صدىً جارحٍ

تتناوح فيه السفوح

بأشرعةٍ

من ظلال المناديلِ

يشعلها كلَّ يومٍ

وداعٌ جديدْ.

بمئذنةٍ

لا تميل ولاتستقيمُ
كأنَّ خطايَ خطاياي
طوبى لمن لم يكن أبداً
يا بلادي التي أمطرتْ ما تشاءُ
دماً أخضراً
ودموعاً
ومغفرةً
وهْيَ تضمر سجناً ومنفى.

* * *

حديثٌ إلى الصمت
هذا الطريقُ..
حديثٌ من الصمت
يؤنسه شجر ضارعٌ
وطيور مسافرة باتجاه الظنونْ.
كأن الخطا شكل إيقاعهِ
إنه يذهب الآن
مكتفياً بالحنين إلى عابرٍ
أسمر الحلم
معشوشب القدمين
يرى في الطريق طريقاً إلى نفسهِ
أو صديقاً
يودِّعه عند أول مفترقٍ
ليكونا طريقين..
ما الفرق بين الذهاب وبين الإياب
إذا كان للظلمات التي لا ترانا
نشيجٌ من البرق؟!
ما الفرق بين الحضور وبين الغياب
إذا كان للشكِّ هذا اليقين؟!
أخذتُ معي أُمَّةً من رمادٍ ورملٍ

وخيلٍ وليلٍ

وخمرٍ وأمرٍ

ويمَّمتُ شطر الزمانْ.

أخذت معي سعَفاً وطيوراً

وشوكاً على نيَّة الورد

ورداً على نيَّة الشوك

بضعَ قصائدَ كي أُربك الموت

خرساءُ كلُّ القصائدِ

إن لم تَقُلنا

وعمياءُ إن لم تر الحيف حيفا.

* * *

لماذا إذن لا أقول الذي ينبغي

أن يقالْ؟!

أليس الطغاة طغاةً؟

بلى..

والمواعيد زرقاء

تدنو سماواتها ثم تنأى

ولكنها لاتغيبْ.

أليس النخيل نخيلاً؟

بلى..

والجنون قليلٌ

يحاول ألاَّ يرى

فيرى ما تحاول "زرقاءُ" جاهدةً

أن تراهْ.

أقولُ

وماقلتُ غير الذي لا أريدْ.

لقد كان شرح القصيدة من قبلُ

أدنى.

لقد كان نهر الحقيقةِ

أصفى.

*   *   *

- وبعدُ.. إلى أين؟
أسأل ظلاً شبيهاً بظلي
يجيبُ:
- إلى موعد لا يجيءْ.
- وبعدُ..؟
- إلى آخر الرقصِ
- لاأستطيعْ
فإني أجرُّ ورائي إلهاً قتيلاً
وعشرين مرثية تشبه الأهل
والأنبياءْ
- ضعفتَ إذن
وستمضي إلى غيرك الآنَ
- لا أبداً.. بل أحاولُ..
- حاول إذن فوق ما تستطيعْ.
- وكيفْ؟!
- كما تفعل الريحُ
- قُلْ غير هذا!
- كما يفعل النهرُ
- تطلب مني محالاً
- كما يفعل الحبُ
والحلمُ
واليأسُ
لا تستثرني
(تجهَّمَ، واربدَّ، واصطكَّ)
يكفي..
أقول كما يفعل الموتُ
والموتُ

والموت..
- أمااااااااه..
ليتك لم تلدي هذه اللعنة الغامضةْ.
لمن يلجأ الآن هذا الوحيدُ العديدُ
القريبُ البعيدُ
الغويُّ الرشيدُ
لقد كان تيهاً بألف طريقٍ
محيطاً بألف مضيقٍ
رأى ما رأى
من نجوم الضحى والعماءْ.
رأى الأصدقاء دليلاً وراء دليلٍ
إلى أين يا أيها الأصدقاءُ؟
ومن أين لي أن أعيد الجهاتِ
إلى سمتها؟!
ليت ما بيننا لم يكن
ليته لايكونْ.
دعوا للمكان زماناً ولوكاذباً
ودعوا للكمان
ولو وتراً يشبه الجرح
لا شيء لا ينسل الروح
في ما تغنِّيه تلك التي..
هل أقول: ابنتي؟
أحدٌ بينكم قال لي
ذات كأسٍ مقدَّسةٍ:
كلُّ ورد جميلٌ
وكلُّ جمال حزينْ.
بماذا أودِّع هذا الخريفَ
بماذا أبدِّد ما بعده من فصولْ؟
ثلاثون أغنيةً

أربعون بكاءً

وخمسون من ولولات الثكالى

مضت أو ستأتي.

فما الفرق بين النشيد وبين النشيج

ومالفرق يا (متنبِّي) زمانكَ

بين الأماني وبين المنونْ؟

لو انك كنت مكاني

لو انك كنت تراني

لقلتَ بأن النُّهى

شأنها لن يكونْ

غير هذا الجنونْ.

أخذتُ معي شجراً

وسحاباً

ونايا

ونزفا.

أخذت معي قمراً ذاهلاً

آيةً من كتاب الينابيع

أضرحةً ورؤىً وكوابيسَ

تشبه ما ليس يشبه شيئاً

ويممت شطر البعيد البعيدْ.

صديقُ طريقي أنا

وطريقي صديقي.

ولا أسأل الغيب شيئاً

فما بيننا

ليس ينقص عن مستحيلٍ

وليس يزيدْ

عن حريق يرى في جهنَّمَ

تزجيةً لزمانٍ عجوزٍ

وتجربةً، ربما صعبةً،

لصغير يَشقّ على دمهِ
أن يخطَّ البيانَ الأخيرْ.
إذن سوف أقطف عنقود قلبي
كما يشتهي.
سأحاول نفسي
لأعرف إن كان لا يستحي الله
من عجزه وقيودي.
لأقترف الحلم حتى تمام الحياةْ.
لأهتك سرَّ الكثيرين
ممن يعيشون موتى
وممن يموتون أكثر من مرةٍ
ويظلون أحياء
دون الخلود قليلاً
وفوق معاني الشهيدْ.
أجل سأحاول نفسي إلى
منتهاها
لعلي أراها
أرقَّ ظلالاً وأحنى
لعلي أعود إليها
أبرَّ وعوداً وأوفى.

* * *

أقولُ
وما قلتُ غير ظنون الطريق الذي
يتعرَّج في داخلي.
ليته كان درباً إلى الحقلِ
أو شارعاً في المدينةِ
أو بعضَ شِعبٍ ليؤنسني فيهِ
ما فيه من موحشات
فماذا يقول الطريقْ؟

كأني أخذت معي وردة
تستحمُّ بما يشبه الصلوات
يرتِّلها مطرٌ ودمٌ وبكاءْ.
كأني أخذت معي قدراً غامضاً
وسراباً بليلاً
وما ليس حلماً تماماً
وما ليس يأساً تماماً
وما ليس حالاً
وما ليس وصفا.
سجن صيدنايا 2000

وقت من حجر

بيدٌ إلى بيدٍ
تشيِّعها
بيدٌ إذا كشفتْ فعن
بيدِ.
لكأنها حِيَلٌ
بغيرِ يدٍ
ويدٌ تحاولُ دونَ
تأييدِ.
قالوا: أصخْ
فصرختُ: أصعبُ ما
في الولولات صدى
الزغاريدِ.
الوقتُ من حجرٍ
وحالكَ إنْ
رقَّت فمن صمِّ الجلاميدِ.
يا بأس...
يا دنيا موزَّعةً
ما بين رعديدٍ ورعديدِ.

أأفيضَ من هلعٍ
على عطشٍ
وأغيض من قلقٍ
وتسهيدِ.
هي جمرةٌ تغفو
فيوقظها
قلبي وتحرسها مواعيدي.
هي ألف قبَّرةٍ
إذا نفرتْ
فالشمس بعضٌ من
مقاليدي.
تدمر/1989/

غرغرة

كلانا انحنى.
بعد أن أكملتْ قوسها القزحيَّ
بكت وردتين وقالت:
لقامتكَ الآن أن تكمل القنطرةْ.
كلانا تبدّل حزناً بحزنٍ
فقلتُ: أنا الشعر
قالت: أنا النهر
قلت: أنا الناي
قالت: أنا القبَّرة.
فردّوا إذن موتكم عن
ضريحي.
تأخرتُ سبع مراثٍ
على نيّة الريح
ليس لكي ترجعوني إلى
غمدكم.
إنَّ لي آية تصعدُ السفح

رؤيا تراودني

ترهف النصل بين ضلوعي

وتمنحني

سدَّة المغفرة.

صيدنايا/1993/

إيمان

هل يكذب الصفصاف

إن قال له النهرُ:

من الأنثى التي تعطي الندى

يدها؟؟

هل يكذب النعناع

والحزن الخريفيُّ

وهذا القصب المجروح؟؟

آمنّا

بما يمكن أن يبلغه القلبُ

أنا والريح آمنّا

وصحنا ملء سمع الريح:

يا غدها.

/صيدنايا 1994/

نزف منفرد

أمشي

كيمام مرتعش قلبي.

قلبي وخطايْ.

أمشي

والظل صدايْ.

فابتعدي بضع غماماتٍ

كي أدخل من جهة

الأمطارْ.

كي أكمل نزفي
منفرداً
وأعيد إليك الناي.

*   *   *

من ألف بكاء وأنا
تستقبلني
وتودعني
الريح.

*   *   *

يتعبني هذا الطائرُ
هذا الليلكُ
هذا الشعر وإيقاعات
النارْ
يتعبني أنك أنت بكايْ.
وأنا وحدي
وحدي
وحدا ا ا ا ا يْ!!
لو عدتُ
ولم أعرف أحداً
لو عدتُ
وكنتُ أنا أحداً
أيكون سواي؟!
/صيدنايا 1994/

ما بعد منتصف الهذيان

نام الحراس جميعاً
فتبسَّطنا في الهذيان
كما لا بدَّ لهذي الوحشةِ
أن تنْزفهُ في آخرة

الليل.

قال صديقي:

لو كان الله امرأةً

كم كنا أحببناهْ

أخذتني الحيرةُ

حتى شهق الضوء على الجدرانْ.

وانشقّ سؤال من أقصى نهر

في الروحْ:

ما الله إذن؟!!

/صيدنايا 1995/

نـأي

وما الفائدة؟

كبر الطفل نشيداً

وثلاثين نبياً

ودماً حراً على قوس

الغيابْ

تاركاً خطوته الأولى

كبرق فاغرٍ

أو راية خفاقةٍ

أو طعنة ذاهبةٍ حتى

السحابْ.

كبر الطفل وما زال غريراً

بجناحين أسيرين

وريح واعدة.

/صيدنايا 1996/

ذهاب

زمن مطفأٌ

وجهاتٌ مغلَّقةٌ

وإله قتيل.
إذن أيُّ شيءٍ
سوى قوّة اليأس
يدفع جدران هذا المكان؟
وأيُّ دم فاضحٍ
يشخب الآن
بين القصيدة والكفر
والغيم والرمل
والحلم والمستحيلْ؟!
لا أقول لكم
أمهلوني دماً... أو غداً
فالهوى ذاهب أبداً
بي ومني إليّْ.
كل ما كان
ما كان.
أعرفه عدماً عدماً
غير أن الذي سوف يأتي
سيأتي.
وما من دليل لديّْ.
ولكنّ رجع صداه
يلملمني
ويظللني
ويبللني بالندى والظنونْ.
بحليب الرؤى
وغمام النبوِّة
والوهوهات التي نزفتْ
فوق ما تستطيع الخيول
بلى... فوق ما تستطيع
وقد شرِقتْ بالدموع

وبالحمحمات
ومزَّق أعناقها
أن بيداءها
لا تردُّ الصهيل.
/صيدنايا 1997/

رجل وامرأة

ثمة امرأةٌ
من رفيف الفراشات
ضحكتها
ولها من حنين الينابيع
دمع كثيرْ.
ثمة امرأةٌ
ليلكٌ في المساء
ولكنها في الصباح تميل
إلى الياسمين.
ثمة امرأة غيرُها
رجل غيرُهُ
وطيور تسافر بينهما
موعداً موعداً
وسماءً سماءً
وقد أجهشتْ في قوادمها الريح
فاشتعلتْ
كنداء أخير.
/صيدنايا 1999/

كتابات نثرية

"خيانات اللغة والصمت"

فيما يلي فصل من كتاب بعنوان "خيانات اللغة والصمت"، أنجزه الشاعر داخل سجنه، وهرَّبه مكتوباً على ورق السجائر.

"دوائر ذات شهيق متصل"

آخ يا تدمر..

في أواخر عام/1978/التقينا للمرة الأولى. كنا يومها بضعة أصدقاء، يجمعنا الشعر، والحنين إلى ما لا نعرف، ومقدار ليس قليلاً من البراءة والمستقبل.

في ذلك المدرَّج المشرف على أمومة التاريخ.. عمَّرنا سهرتنا، وكان القمر زنوبياً إلى حد الفتنة.

وها نحن الآن وبعد حوالي عشر سنوات نلتقي ثانيةً.. لكن هذه المرَّة بدون الشعر، بدون ذلك القمر الزنوبي الفاتن، وربما بدون المستقبل.

تدمر هذه المرَّة.. تاريخٌ رمليّ وجغرافيا متحرِّكة.. دم يطغى ويتدافع دوائر دوائر..

دوائر فاجرة ذات شهيق متّصل، تبتلع في طريقها الآثار والنخيل، النَّاس والمدن، وحتى الزمن والأسماء.

تدمّر هذه المرة زمن آخر، زمن يسير على أربع، مغمض العينين، يعوي حيناً، ويموء حيناً وتتقطّع أنفاسه حين يبدأ تنفس المهاجع في الباحات.

لا أدري إذا كانت كل الباحات مثل باحتنا.. غير أن الوهوهات، والعواءات المقلوبة المتناهية إلينا من الجوار، كان لها نفس الملامح.. مطعونة بنفس الإيقاعات.

أجل.. التنفُّس في الباحة قطع أنفاس حقيقي، وفي بعض الأحيان قطع أنفاس نهائي.

ليس في هذا مجاز لغوي أو مفارقة شعرية.

لقد حدث ذلك في باحتنا أربع مرَّات على الأقل خلال عام واحد، أربع مرَّات أكيدة شاهدناها من ثقوب الباب، وفي أحيان أخرى كنا نشعر بكثافة الموت وهي تدق الأبواب، ولكن شبح الشرطي القريب من "الشرّاقة" الفاغرة في السقف، كان يحول دون اقترابنا من ثقوب القلق والفضول والمعرفة.

حين تنقطع أنفاس أحد السجناء بشكل نهائي، في فترة التنفس أو بعدها بقليل، كان يكتفي رئيس المهجع بدقّ الباب.

بالطبع لا داعي لأي تساؤلات حول سبب الدَّق.

ثمة أمور بديهية بالنسبة إلى السجناء، ولاسيما القدامى منهم، فالدق على الباب يعني في الغالب وجود حالة موت، ذلك أنه لا يمكن أن تسمع أي دق على الأبواب خارج هذه الحالة ومرادفاتها..

للحق كان الطبيب يأتي مع شرطيين أو ثلاثة، ومن وراء الباب يسأل صوت ما عن سبب الموت، ويكون الجواب أي شيء سوى الحقيقة.. لأن إعلان الحقيقة يمكن أن يكلِّف المهجع المعني ضحية جديدة في اليوم التالي.

مرة.. أعلن أحد السجناء في المهجع المقابل إضراباً مفتوحاً عن الطعام.

حاولوا جاهدين أن يتفاهموا معه..

تعبت الأحذية والقبضات والعصيّ.

أثناء التنفس.. أثناء توزيع الطعام.. وفي الليل عبر الشرّاقة الفاغرة في السقف.

أحياناً كانت أمواج الهستيريا الذئبية تنعقد وتفور، وهي تمارس انتقاماً مجروحاً بالعنانة ومختوماً بالموت، لكن ما تلبث تلك الأمواج أن تتكسَّر على سدّ الأجساد البشرية التي تخرج من المهجع كقطيع مذعور، وتدخله كقطيع مذعور، وتصطفُّ أثناء التنفس كقطيع فقدَ إيمانه بالجدوى الإنذارية التي يمثلها الرعب.

بين موجتين أحضر الشرطي فأراً ميتاً.

ربما كان ينوي إطعامه لذلك السجين المضرب عن الطعام، ولكن حالة السجين على ما يبدو، لم تكن قابلة لغير الموت. لهذا كان الفأر من نصيب سجين آخر، كان هو الأقرب إلى الشرطي.

كنا حينها أكثر من عشرين عيناً تتوامض متقاطعة وهي تتزاحم على ثقوب الباب.

أدخل الشرطي فأره في فم السجين، وأمره أن يبتلعه ابتلاعاً بدون أي مضغ.

حاول السجين في البداية قليلاً قليلاً.. ولكن في منتصف الطريق، بدأت عضلات وجهه تتقبَّض وترتجف.

لو أي شيء غير هذا الفأر الميت!!

لو كان مسلوخاً على الأقل!!

أدار السجين رأسه بحركة لولبية بطيئة وهو يضغط على العنق.

كانت يداه.. كأنما تشدَّان شيئاً ما، ولكن بدون جدوى.

باعد قدميه.. أوتباعدتا وهو يوازن حركته مخالفاً ما بين دفع عنقه إلى الأمام، ونتر يديه إلى الخلف.

أن يبتلع الفأرُ إنساناً.. يبدو لي أسهل من أن يبتلع الإنسانُ فأراً!!

عاد السجين يمطّ عنقه، بينما كان جسده يتلوَّى وينحني هابطاً إلى نقطةٍ تمكنّه من الانتفاض مجدَّداً، فيقمح برأسه على طلقاتٍ متتالية، ومع كل طلقة يخطف يديه إلى الخلف، ويستعيدهما بلجلجةٍ واضطراب، ليخبط بهما في أكثر من اتجاه، مثل غريق يبتلعه الهواء.

سكن للحظات بدا فيها مستنْزَفاً إلى آخره..

- يا ابن... إياك أن تمضغ.

يلكزه الشرطي في خاصرته.

- قلتُ لك أن تزلطه زلطاً إلى النهاية.

فجأة عاد السجين يحاول، وقد أطبقت كفّاه على عنقه، وراح يضغط حيناً ويمسّد حيناً بحركات متشنجة ومتواترة.

بين كل حركة وأخرى تنفلت يداه وهما تلوبان على شيءٍ ما في الفراغ، ثم يعيد المحاولة وتنفلت

يداه..

أين يقع مفترق اللّه مع الإنسان

مفترق الأرض مع السماء

الحياة مع الموت..

أين؟!

- لا تحرِّك فكيك.. قلت لك زلطاً.

هزَّ السجين رأسه عدة مرات، كما لو أنه يريد أن يرسل إلى الشرطي إشارات سريعة من الموافقة والاستعطاف، ثم تابع تحالفه مع جسده في أكثر من وضعية تتيح له التحايل على قضائه الداهم.

إنه يحاول بأكثر من يديه ورأسه وقدميه..

يحاول بكل ما آتاه الله من قوة اليأس وإحساس الطريدة بالاستفراد..

لم يزل يحاول..

مرة.. اثنتان.. ثلاثاً.. أربع..

سقط على ركبتيه.

- إنهض يا كلب.. قلت لك انهض.. ترفض الأمر العسكري؟ بسيطة.. إذا بقيت حياً نتحاسب.

نهض السجين. دار دورتين في المكان وهو يدقُّ صدره بقبضتيه، ثم ما لبث أن بدأ ينتفض ويترنَّح، إلى أن بلغ أقصاه، وبدا واضحاً أن ضريبة إعلان عجزه، لن تكون أكثر سوءاً من الاختناق، فن-زل على ركبتيه مردفاً رأسه إلى الخلف، وهو يشير بيديه مستغيثاً يطلب الماء.

كان الجزء الأخير من ذيل الفأر، لا يزال متدلياً عند زاوية الفم.

آخ يا تدمر آخ..

لم أكن أنوي الدخول في هذا الاستطراد المرهق.. ولست مقتنعاً الآن بالتراجع عنه، ولم يعد لدي القدرة على العودة إلى تفاصيل ما تعرّض له ذلك السجين، المضرِب عن الطعام، خلال أربعة أو خمسة الأيام اللاحقة.

أعتقد أن بإمكانكم مساعدتي، أو على الأقل تفهُّم وغفران عدم قدرتي، وربما عدم رغبتي في استكمال ما بدأت.

لقد حاولوا جاهدين أن يتفاهموا معه.

تعبتْ الأحذية والقبضات والعصيّ، ولكنه..

هل يكفي القول، إن ما تعرَّض له ذلك السجين منفرداً، يفوق ما تعرَّض له المهجع مجتمعاً؟

ومع ذلك فإن المسكين.. لم يمت!!

فقط أصبح مجنوناً.

أصبح.. مجنوناً.. فقط.

الساعة الآن الثالثة والنصف صباحاً، وقد مضى على انتقالي إلى هنا، أعني إلى سجن صيدنايا، أكثر من عامين، فما الذي أخذني الآن إلى تدمر؟

لعله الحديث الذي دار في أول السهرة، بيني وبين أخي، حول العام الذي زرته فيه عندما كان يعمل مدرِّساً في تدمر.

كنا يومها بضعة أصدقاء يجمعنا الشعر، والحنين إلى ما لا نعرف ومقدار ليس قليلاً من البراءة وال..

حوار

السجن.. يا إلهي! هل يكفي أن أقول إنه حليف للموت؟

حاوره فاضل الفاضل

- هل السجن كما يبدو لك وخبرته خمسة جدران كتيمة، أم أنه زمن راكد ورطب، أم أنه الحنين المسور بالبنادق، أم هو الطاقة الإنسانية منْزوفة في العتمة؟

- هو كل هذا وغيره أيضاً، هو مكان لا زمان له. إنه مكان مضاد. كما يمكن لك أن تقرأه على أنه شهيق من الجمر وزفير من الرماد. وهو، من جهة أخرى، زمن حجري عاطل ودنِس وغير أخلاقي، زمن تؤرخه في الأيامِ الأولى على الجدران.. وفي الشهور اللاحقة على الذاكرة. ولكن عندما تصبح السنوات قطاراً طويلاً متعباً من الصفير ويائساً من المحطات، فإنك تحاول شيئاً آخر يشبه النسيان.

بالطبع ثمة قراءات متعددة للسجن، ولكن مهما تعددت هذه القراءات، فإن من حقها وواجبها، جميعاً وبدون استثناء، أن تحيل إلى فلسفة واحدة وحيدة هي الحرية أعنى الحياة.

أما السجن فإنه، يا إلهي!! هل يكفي أن أقول إنه حليف للموت؟

- الطفل ينمو بتقليده لعالم الكبار.. السجين يستحضر ويقلد عالماً خارج الأسوار.. هل تشرح لنا هذه الآلية وما وظيفتها؟

- ببساطة لأن السجن غير قادر وغير قابل بطبيعته أن يشكل للسجين مرجعية آمنة أو مقنعة، وبالتالي يبقى الخارج بالنسبة إليه المرجعية الأم.

ولأن شروط السجن لا تتيح له التعامل مع مرجعيته الأم بصورة طبيعية، فإنه يلجأ إلى التواصل معها عبر الحلم أو الوهم أو التقليد، حين يدخل السجين إلى الزنزانة أو إلى المهجع، لا يرى أمامه غير جدران عارية، وعليه أن يؤثث هذا المكان المضاد المعادي على نحو صداقي ما، يضمر شيئاً من الألفة أو الحنين أو الإحالة إلى ما كان قبل الاعتقال.

بعضهم يصنع خزانة ثيابه من سحاحير الخضار، بعد سرقتها أو طلب الإذن بحيازتها، وبعضهم يصنعها من تنك السمنة، وبعض آخر من الكرتون المقوى لعلب الزيت وغيره.. في البداية ربما يصنعها بدافع الحاجة أو الضرورة، ولكنه لاحقاً عندما يهدأ أو يستقر، يبدأ بتجديدها لتكون على أقرب نحو ممكن من طراز ما، يتخيله أو يعرفه في الخارج، ولكن ضيق المساحة المخصصة لكل سجين وشح بعضِ المواد الأولية وانعدام بعضها، يفرض عليه تصغير حجمها، فتبدو خزانة بائسة ممسوخة شكلاً وحجماً، وكذلك يفعل مع طاولة الكتابة مثلاً أو سفرة الطعام أو الكرسي. تراه يتحايل على أطباق البيض الفارغة، يجمعها ببطء ويركبها طبقاً بعد آخر، إلى أن تصبح كافية لبناء كرسي بارتفاع ثلاثين سنتيمتراً، وبعضهم يبالغ في الأمر ويمكن أن يصنع كرسياً بارتفاع ستين سنتيمتراً. لا أعرف كم مئة طبق يحتاجه كرسي من هذا الحجم؟! بالطبع الزمن فائض إلى حد لا تعرف ماذا يمكنك أن تفعل به.

وحتى الأسرّة التي يمكن أن تحتاج إلى جمع أخشاب السحاحير لمدة عام أو عامين، لماذا يجمعها السجين؟ أليس في أحد الوجوه من أجل إقناع نفسه أنه مازال على اتصال بمرجعيته في الخارج، من خلال إحساسه بأنه ينام على سرير كما ينام الكثيرون من خلق الله؟ وأياً كان شكل وحجم وارتفاع هذا السرير، فإنه يكفيه منه الاسم، بحيث يستطيع أن يقول (نمت في سريري، وجلسنا على سريري،

وملعون أبو سريري)

وإن لم يحاول السجين محاكاة مرجعيته السابقة فليس أمامه إلا الاستسلام والإقرار بأنه أصبح سجيناً أبدياً وغير قادر على استعادة حريته حتى بعد الإفراج عنه.

وبالمناسبة فإن الشق الأول من سؤالك يثير في ذهني واقعاً مقلوباً مفاده أن السجناء، ومعظمهم من الرجال والكهول، يميلون إلى تقليد عالم الصغار، ولا أدري إن كان ثمة حاجة نفسية لذلك، أم أن واقع السجن يحول السجين إلى عاطل وطفيلي ومتطلب ونزق ومحكوم بتفاصيل يومية تافهة وزمن مترهل وأبله وقليل الكثافة، إذ ليس في حياته من جديد يعيده إلى نفسه سوى الزيارة التي ينتظرها مرة في الشهر وربما في الشهرين أو الثلاثة.

- ولكن كيف يبتدع السجناء علامات وسلوكات للتمايز عن بعضهم في مثل هكذا مكان ولماذا؟!

- بعض السجناء يرتدي قميصه وحذاءه، خارج الضرورة والأعراف، من فتح الأبواب صباحاً وحتى إغلاقها في المساء، وبعضهم يرتدي ثيابه الرسمية فترة التنفس فقط، بالطبع إذا استثنينا الزيارات فإن السجن لا يقتضي أكثر من ارتداء بيجاما.

بعض السجناء يحاول التمايز بطريقة تدخينه، وبعضهم بالمبالغة في كمية السجائر التي يحرقها، وهناك من يتمايزون بطريقة تعاملهم مع أمراضهم وآلامهم عبر نزوعات تدميرية مرعبة، وتلمس أحياناً ابتداعات عجائبية تتعلق بالمبالغة في القراءة، أو مقاطعتها مقاطعة تامة كنوع من الاحتجاج الداخلي على شيء ما، أو باختيار عناوين أو مواضيع لا دافع إليها غير التمايز. كذلك الأمر بالنسبة إلى الرياضة مثلاً حيث تتحول إلى ميدان للتمايز بين ذاك الذي يمارس الجري ساعات طويلة وذاك الذي يقرر أنه لن يخرج من مهجعه حتى لممارسة المشي أو التعرض إلى الشمس في باحة التنفس. بعضهم كان ينفذ تمرين "المعدة" على سبيل المثال حوالي ألف مرة بشكل متصل. أحدهم يثبت أنه قادر على تدجين عصفور "دوري" بل إنه درّبه على سرقة السجائر من علب الآخرين بمنقاره، وغيره يربي قطة ويعلمها أن تؤدي بعض الحركات الرياضية، وآخر يرعى بضع بزّاقات بحنان فائض، ورابع يدافع بذكاء وشاعرية عن ذباب الصيف البليد بوصفه كائنات لطيفة وشفافة.. إلخ.

ولكن لابد لي هنا من الإشارة إلى أن دوافع التمايز في هذه الأمور تختلط أحياناً بمسائل أخرى ليس سهلاً تحديدها أو القبض عليها، فقد تكون تزجية للوقت، وقد تكون بفعل الإحباط أو تعويض الانكفاء عن الواقع والآخر، وربما تكون اعتراضاً إنسانياً مبالغاً فيه على واقع وحشي مبالغ فيه.

- قصيدة "زيارة" في مجموعتك "حمامة مطلقة الجناحين" تحرّض سؤالاً وهو: ماذا تعني الزيارة للسجين. كيف يحياها قبلها وحينها وبعد أن تنتهي ويعاد إلى المهجع؟

- تختلف الحالة كثيراً بين سجين وآخر، لا يمكن لردود فعل سجين لم يزر غير مرة أو اثنتين خلال عشرين عاماً أن تتقارب مع ردود فعل سجين يزار شهرياً أو كل بضعة أشهر.

كذلك يختلف الأمر بين من تأتي زيارته مفاجئة وبين من يعرف توقيتها مسبقاً، ولهذا دعني أحاول التركيز في حديثي عما تعنيه الزيارة بالنسبة إلي.

أقول دعني أحاول لأني لست واثقاً من قدرتي على رصد نفسي وردود أفعالي ومشاعري بين زيارة وأخرى، وإن كان ثمة جوانب ثابتة تتكرر في كل زيارة. عندما تدخل الزيارة في مدارها المتوقع خلال أيام، أشعر أني قلق متوتر ومتقلب المزاج، ومع ذلك أبدأ بتهيئة نفسي لمواجهة لحظة إبلاغي من قبل الشرطي بأنه عندي زيارة.. ولكني كنت أفشل دائماً، إذ أجدني معوماً ومشتتاً وذاكرتي غير قابلة للتنظيم. لذلك صرت لاحقاً أسجل على ورقة كل ما أريد التحدث فيه أو السؤال عنه، ومع ذلك أعود من الزيارة لأكتشف أني لم أر أو لم أنتبه لبعض الفقرات التي سبق وسجلتها،

فأنقل ما نسيته إلى ورقة أخرى ثم أبدأ بإضافة الأسئلة الجديدة التي تتناسل وتتراكم إلى حد لا يكفي زمن الزيارة القادمة لطرحها كلها.

كانت تمر لحظات، وغالباً في بداية الزيارة، أشعر فيها أن السماءات تنحني وأن الله يبتسم. ولكني في لحظات أخرى أشعر أن الزيارة هي الصحوة الجارحة والأكثر تأكيداً لمدى وعمق غيابي.. وقد شعرت في بعض المرات بنوع من الخجل.. نعم كنت أخجل من تصرفات بعض العساكر ومن إحساسي بالعجز ولا سيما أمام أمي وابنتي، ولكني أعود لأتواطأ مع نفسي وأهلي والزيارة، فما من بديل آخر يلبي ما تلبيه أو يجعلني على علاقة مباشرة مع الحياة.

وحين أعود فإنني غالباً ما كنت أعود منهكاً راغباً في النوم أو البكاء منفرداً، ولكنني عاماً وراء عام بدأت أدرب مشاعري على التبلد فور خروج أهلي من غرفة الزيارات.

نادرة هي الزيارات التي كانت تحمل أخباراً سارة للمُزار أو للآخرين، ولكن عندما يحدث فإنك ترى المهجع مكتظاً بالزملاء المهنئين. أما عندما لا تكون هناك أخبار مهمة تضيف جديداً إلى مستنقع السجن، فإن المهجع يعود إلى وحشته خلال دقائق، ويعود الإحساس بوطأة انتظار الزيارة القادمة.

بعض السجناء كان يتعاطى مع الزيارة بوصفه طفلاً وبوصفها عيداً، يرتدون من أجله ثياباً جديدة وينتظرون منذ الصباح الباكر وهم يرقبون الخارج بين فترة وأخرى من النوافذ العالية، حتى إذا حضرت زيارتهم أخذوا بالتلويح والإشارات وربما رفع الصوت ببعض الجمل، رغم ما يترتب على ذلك من مخاطر إلغاء الزيارة أو إغلاق الأبواب على الجميع.

بعضهم يعود من الزيارة التي تمتد إلى حوالي نصف الساعة، فيتحدث عنها لمدة عشر ساعات، وأحياناً يستكمل الحديث في اليوم التالي مع تعديلات هنا وهناك، وبعض آخر يعود من الزيارة متجهماً باستمرار وليس لديه من رد على أسئلة السجناء سوى جواب واحد يتكرر "ماشي الحال" تاركاً الظنون تأخذ المهنئين في مذاهب شتى، وهناك من كانوا يعلنون أنهم لا يرغبون أن يزورهم أحد بعد عودتهم من الزيارة!!

عموماً أجمل الزيارات هي تلك التي يكون فيها زوار ملائكة، أعني الأمهات والأخوات والزوجات والبنات. وجود المرأة أكثر قدرة على منح الروح طراوتها وخضرتها المقاومة لجفاف الحياة ومرارتها في الداخل. ولكن بوصفك خضت التجربة، فإنك ستوافقني إذا اختصرت معنى الزيارة بالقول: إنها خروج من الجحيم إلى النعيم لفترة من الوقت ثم العودة إليه.

- غياب المرأة المادي في السجن يحوّلها إلى حضور وجداني، تخييلي وحلمي، تصبح معادلاً للحرية ونفياً لواقع السجن. أرغب أن أسمع تجربتك الوجدانية حول هذا، وهل أثّر هذا التركيز الحلمي على العلاقة الواقعية مع المرأة بعد خروجك من السجن؟

- أبدأ من خاطر لطالما راودني داخل المعتقل، وقد كثّفته في المقطع التالي:

لا شمس هنا/ولهذا أجدني عارياً/من الظلال/ولا امرأة أيضاً/ولهذا أجدني عارياً/من نفسي/

بالطبع تتعدد وجوه المرأة وحضوراتها في السجن على نحو لا يستطيعه الكلام إلا أصداء، ولا يستطيعه الصمت إلا ظلالاً. فبالنسبة إلي.. وحده الشعر كان يمكن له أن يشرف على ذلك الفردوس المفقود، ووحدها صلوات الأمل كان يمكن لها أن تجعل الزرقة أكثر قابلية لتجلي الرحمة والأنوثة.

السجن ذكورة افتراسية قصوى، والحرية أنوثة رحمانية قصوى. لا داعي لاستخدام لفظ الشبّاك إذا كانت لفظة النافذة تنوب، لا داعي لاستخدام لفظ الليل إذا كانت لفظة الليلة تنوب، وكذلك الأمر بين الفرشة والفراش، والخمرة والخمر والبطانية والغطاء، والسنة والعام، والعنق والرقبة.. إلخ.

باختصار تصبح تاء التأنيث هي الحرف الأجمل في دنيانا. لم يكن يشغلني كثيراً غياب المرأة أو حضورها كجسد. المرأة هي المرأة أماً وأختاً وابنة وحبيبة وصوتاً وقصائد وملائكة، وما من قداسة جعلتني أحتمل الأسر أكثر من اثنتين: أمي وابنتي. واحدة في آخر الغروب والثانية في أول الشروق، وأنا بينهما طائر الصمت والدموع بمنقاره المحني وجناحيه الضارعين.

بدون المرأة.. بدون أطيافها وأصدائها أو رائحتها على الأقل، لا يكون الرجل إنساناً، أعني لا يكون إنساناً كامل المعنى.

غياب المرأة في السجن، وبالتالي كثافة حضورها، يمنح السجين شيئاً من صفاتها، ورغم ذلك يبقى السجين مهدداً بوطأة الزمن وقطار سنواته الطويل، ولهذا شيئاً فشيئاً يشعر بالتخثر، وربما يتبدد على نحو ما، روحاً وأحلاماً وذاكرة، حتى لا يتبقى منه سوى مساحات جرداء محروقة ومسورة بما تيسر من اللعنات والتوابيت والأسلاك الشائكة.

الظلال الوحيدة التي يمكن أن تحميك في هذا الوضع هي ظلال المرأة.

أظن أنه لولا السجن لما خطر في بالي ولا كان بإمكاني أن أقول: أنت أدرى بأن أعز النساء/ جميع النساء.

أجل تصبح المرأة في السجن معادلاً رمزياً وإنسانياً وفنياً للحرية، بل تصبح الحرية هي المرأة. أما عن أثر هذا التركيز الحلمي على العلاقة الواقعية بالمرأة بعد خروجي من السجن، فإن الأمر مازال أشبه بنص مفتوح على آلاء لم أكن أدرك أعماقها أو أشعر بها من قبل، ولم يكن ممكناً لي أن أرمم نفسي بدون المرأة أو بدون ما تنطوي عليه من علامات لها الكثير من مواصفات القداسة.

- عقدة الخبز، أعني النفور منه، عقدة تتفرد بها.. كيف تكونت؟

- تربيتي الريفية علمتني أن الخبز نعمة مقدسة منحها الله لعباده، فإذا وقعت قطعة منه على الأرض توجّب عليك رفعها وتقبيلها ووضعها على جبينك بمنتهى الخشوع والاعتذار، وبغض النظر عما إذا كنت بحاجتها لاحقاً أم لا. وقد ظلت علاقتي بالخبز كعلاقة جميع الريفيين، الذين لا يشبعون بدونه، إلى ما بعد اعتقالي ببضعة شهور. كانوا في الفرع يقدمون لنا خبزاً لا يمكن تقديسه أبداً، بل لا يمكن اعتباره خبزاً أخلاقياً.

كنت أستغرب كيف ينجحون في تصنيع خبز على هذا القدر من الإهانة والازدراء؟! كان يخطر في بالي أنهم لو أقاموا مسابقة لأسوأ الخبازين، لما استطاع الفائزون أن ينتجوا خبزاً أسوأ. بدأت أشعر أن الأمر مخطط وأنهم يريدون إذلالنا وترويضنا نفسياً.

ذات مرة اتفقنا في المهجع، وكنت عضو لجنة فيه، أن نحتجّ على ما يُقدّم إلينا من عجين ملفوح بنار سيئة النية. لم تستجب الإدارة فكررنا الاحتجاج مرات عديدة، وفي النهاية قررنا عدم إدخال الخبز ما لم يحضر مدير السجن ويرى الخبز بأم عينه، فاعتبرت الإدارة هذا السلوك تمرداً جماعياً. كانت أمورهم على الأرجح مرتبة، إذ ما كدنا نعلن رفضنا لإدخال الخبز حتى حضر مدير السجن مع سرية من أسوأ عناصر الفرع.. حاولوا إخراجي من المهجع، فقلت إني لا أخرج إلا بحضور الضابط المناوب، غير أنهم قرروا إخراجي بالقوة. أعتقد أن ما تلقيته من سياط ولكمات كان أفظع وأبشع بكثير من جولات التحقيق المتعلقة بالمطبعة والبيوت والمواعيد. أخيراً منحني الله نعمة الإغماء، وتم سحبي خارج المهجع مع أربعةٍ رفاق آخرين لينتقموا منهم عبر شبحهم بالكلبشات فوق قضبان حديدية متقاطعة تشكل حاجزاً فاصلاً قبل نهاية الكوريدور.

بعدها صاروا يحضرون لنا كمية أوفر من الطعام وخبزاً منتقى على الأغلب، ولكني لم أعد أمتلك القابلية لأكله، وربما زاد في الحالة أن بعض أسناني وأضراسي قد تكسر وتخلّع، ولم يعد سهلاً علي

المضغ. أما الآن ورغم ترميم وضع الأضراس إلا أن نفوري من الخبز مازال قائماً. أحاول أحياناً بضع لقيمات وفي داخلي ما يشبه أصداء السياط وظلال الإهانة ومالا أدري.

- السجن السياسي يُحمَّل دلالة وقيمة هي كالعلاقة المتوترة بين تحقق الرغبة وبين كبتها. نقرأ هذا فيما يُكتب.. ونلاحظه في الحياة اليومية، حين يلتقي من عانى هذه التجربة مع غيره.. لماذا؟ وكيف تفسر هذه العلاقة الما تحت الوعي؟

- عندما يطغى قانون القوة العارية على حساب قوة القانون المحتجبة، يصبح جميع المواطنين برسم الاعتقال أو الانتهاك، إن لم نقل اغتصاب كينوناتهم مادياً ومعنوياً، ويغدو اعتقال فلان دون فلان كما لو أنه مسألة مصادفة أو نيابة قربانية، الأمر الذي يلقي على السجين السياسي ظلالاً فيها الكثير من ملامح الشفقة حيناً والإكبار حيناً وربما القداسة في أحيان أخرى، وبالتالي الكثير من ملامح البطولة التراجيدية. يحدث هذا بصورة خاصة بعد أن يخوض السجين السياسي التجربة ويخرج منها. أما قبل خروجه فإنه بالنسبة إلى الآخرين ضحية تثير فيهم الخوف والتعاطف وربما اللوم، بوصف اللوم دفاعاً عن أو تبرئة للذين لم يخوضوا التجربة بفضل المصادفة وحسن الطالع، وهذا لا يلغي بالطبع مفاعيل الغياب ودلالاته وهواجسه وإضفاءاته.

إذن دعني أقل: ثمة احترام ورهبة وإعجاب من جهة، وثمة شعور بالنقص أو بالذنب من جهة أخرى. الآخر يرغب في المواجهة والخروج منها سالماً أو منتصراً، ولهذا فإنه يُسقط عليك ما يتناقض في داخله من رغبة المواجهة والعجز عنها في آن معاً، وبالتالي فهو يريدك وينظر إليك ويحققك مثلما يراك في داخله، فيحمّلك مالا يستطيعه، وربما يطالبك أيضاً بما لا تستطيعه، إذ ليس أمامه من سبيل إلاك، لتعويض عجزه من ناحية والتصالح مع شعوره بالذنب من ناحية ثانية. السجين السياسي بالنسبة إلى الآخر شكل من أشكال المطهر الرمزي، والآخر بحاجة إليه مادام قد نجا من الاعتقال أو تنصّل منه أو جبن وتراجع حتى غدوت أنت في المقدمة. يكاد الأمر يكون تطبيقاً حياً لنظرية أرسطو في قراءته لتجربة المسرح اليوناني وأبطاله الذين يخوضون صراعاتهم مع قوى الخير والشر في معركة، صحيح أنها غير متكافئة، ولكنهم يخوضونها بشرف إلى النهاية، وعلى نحو يفضي بالمتفرج إلى نوع من الإسقاط والتمثّل وبالتالي التطهّر، وقد يشبه الأمر في مجتمعاتنا، المتشابكة الأديان والطقوس الإيمانية، نوعاً من الفداء الإنساني الأكثر أصالة، كما في سيرة السيد المسيح الذي ناب بآلامه عن الجميع، ففداهم وخلّصهم من شرورهم وآثامهم ونقص إيمانهم، وقد يشبه الأمر حالة رمزية تستحضر مأساة الحسين بن علي (فما أشبه الكفر بالكفر/والجمر بالجمر/ والشِمر بالشمر يحتزُّ رأسَ الحسين).

هكذا أقرأ سؤالك على هذا النحو العمومي ومن زواياه القصوى عبر قراءتي لنفسي قبل الاعتقال، وكيفية رؤيتي للسجناء السياسيين حينها، كما عبر قراءتي أو سماعي لآراء ومواقف وتعليقات الكثير من معارفي بعد خروجي من السجن. ومع ذلك هناك زوايا أخرى أقرب أو أوضح أو أبسط، يمكن أن نرى من خلالها من يرغب في أن يتماهى معك وبأكثر من معنى، وهناك من ينسجم مع نفسه في موقفها منك إلى الحد الذي يمكن أن يتحول فيه إلى سجين سياسي وتصبح عندها أنت الآخر، كما أن هناك من يعتبرك ضحية مجانية أو قضية خاسرة ولا شأن له بك، فيداك أوكتا وفوك نفخ.

ولكن في النهاية يبقى السجين السياسي يمثل همًّا عاماً أو قضية عامة، بخلاف السجين القضائي، ومن هنا تنبع أهميته أو قيمة تجربته التي تقارب رغبة الآخر في تحقق هذه التجربة عبر السجين السياسي وعلى نحو رمزي.. ذلك أن النحو الواقعي ينطوي على العديد من عوامل الكبت لا التحقق.

- هل ترى بأن تجربتك السياسية خدمت شعرك؟ أم العكس؟ وماهي العلاقة بين الشعري

والسياسي في نصوصك وفي حياتك؟

- سؤالك يبدو لي كما لو أنه ينطلق من بدهيات، في حين يبدو لي الأمر مزدحماً بالالتباسات وربما بالنقائض. لا أدري.. قد تكون تجربتك في السجن وتعايشنا معاً قبله وخلاله وبعده، قد سمحا لك بالتقاط مسائل معينة استدعت منك طرح هذا السؤال.

إذن سأحاول معك الآن تقصي ما يمكن تقصيه على صعيد الشعر والسياسة في تجربتي معهما.

ينبغي علي أن أشير أولاً إلى أنني وردت السياسة كشاعر ولم أرد الشعر كسياسي.

في الحقيقة لم أكن مقتنعاً وربما لم يكن ممكناً لي أن ألعب دوري كشاعر وكسياسي "حزبي" في الوقت نفسه، وأنت تعرف أن العمل الحزبي أقصاني عن كتابة الشعر لمدة ست سنوات، ولم أعد إليه إلا في السجن.

قد أكون لعبت هذا الدور بصورة ما، بعيدة وعامة، في مراحل سابقة ولاحقة للعمل الحزبي المباشر، ذلك أنني منذ زمن طويل أحد المهتمين بالسياسة كهم وكهاجس عام، يمكن أن يغطي مساحات واسعة قد تمتد من وردة العاشق إلى مقصلة الجلاد.

بهذا المعنى وكشاعر، كتبت قصائدي بمفردات اللغة، أما كسياسي فقد حاولت كتابة قصيدة الحياة بمفردات الواقع. وإذا كان هناك بعض الظلال المتداخلة ما بين الشعر والسياسة، فيمكنني القول إن تجربتي السياسية خدمت شعري أكثر مما خدم شعري تجربتي السياسية.

لم أكن مقتنعاً بتوظيف الأدبي لصالح الحزبي على نحو إرادي مباشر، ولكن من حيث أدري ولا أدري، علّمتني تجربتي في العمل الحزبي وفي سنوات التخفي وحتى في سنوات الاعتقال، أن أتحرر من أسر الذات، وأن أرى هموم الناس وقضاياهم وأحلامهم وآلامهم على نحو أكثر ملموسية، وأعبر عنها على نحو أكثر وضوحاً وانحيازاً. فإذا كان شعري منحازاً إلى الكرامة لا إلى الذل، وإلى الحرية لا إلى الأسر، وإلى الحب لا إلى الكراهية، وإلى الحياة لا إلى الموت، أقول إذا كان ذلك يعني أن شعري خدم تجربتي السياسية فلا بأس.

هكذا أرى العلاقة بين الشعري والسياسي في نصوصي وفي حياتي جناحين للطائر نفسه أو للشاعر نفسه.

ربما ساعدني الشعر على التخفيف من قسوة ملامح السياسي، مثلما ساعدتني السياسة على التخفيف من فوضى الشاعر ومبالغاته في الذاتية واستغراقه في لعبة اللغة والعبث والهذيان.

بالطبع تراجعت هذه العلاقة بينهما خلال سنوات السجن لصالح الشعر أكثر فأكثر.

يبدو أنني في العمق غير قابل لأن أكون سياسياً بالمعنى الحزبي التنظيمي.

لقد بدأت حياتي شاعراً وسأكملها شاعراً، متأثراً بهذه الدرجة أو تلك بمجمل تجربتي في السياسة وفي السجن كما في ميادين حياتي الشخصية والاجتماعية.

أشعر أني كجسد وكروح أشبه نصاً مدروزاً بالأشواك والورود ومثقلاً بالغيوم والأجنحة.

- الشعر ديوان العرب والنحو منطقهم، هكذا قالوا، والديوان كما يمكن أن نعرّف، حيز للتواصل الإعلامي والمعرفي وللصراع ورسم الحدود والاستراتيجيات.. ألهذا استعارت السياسة لغة الشعر في تاريخ العرب وكيف جرى هذا التحويل؟

- لا أوافقك بأن السياسة استعارت لغة الشعر، وأعتقد أن أي قراءة لبرامج الأحزاب وجرائدها تنفي ما تذهب إليه. ولا يغير في الحال شيئاً إذا كان هناك زعيم سياسي ما قادراً على التحدث بلغة

تتمتع بقدر من السلاسة والجمال والفصاحة والطراء.

ما فعله السياسيون أو السلطات السياسية هو أنهم استعاروا الشعراء وأشعارهم، ولم يستعيروا لغتهم. ولا أظن أن واحداً كسيف الدولة مثلاً، استعار في لغته السياسية لغة الشعر، هو استعار المتنبي وأشعاره، ولم يستعر لغة الشعر إلا عندما كان يحاول كتابة الشعر بعيداً عن شؤون الإمارة وسياستها.

وحتى في الوقت الراهن. تعال لنقرأ خطاباً سياسياً لأي زعيم عربي ونبحث عن الشعر في لغة خطابه. أنا على يقين بأننا لن نعثر إلا على ما يشبه الوحول والأشواك والرمال المتحركة وغير ذلك مما يعجز عن ماء الشعر وانخطافات أجنحته وألوانه. والمشكلة هنا ليست في السياسي وإنما في طبيعة السياسة ومقتضياتها. لغة الشعر تقتضي حرية قصوى، بينما لغة السياسة تبحث عن واقع أفضل أو مصالح شخصية أكبر وفقاً لأهداف وأخلاق السياسيين. حالة واحدة تلجأ فيها السياسة إلى لغة الشعر، هذه الحالة تتعلق بالأهداف البعيدة للسياسة، أعني بالأحلام المستقبلية التي تأخذ أبعاداً تبشيرية. والسياسات السائدة في هذه الأيام أكثر ضحالة وركاكة من أن تطمح إلى ذلك. أما في السياسات غير السائدة، السياسات المقموعة أو المعارضة، فالأمر يختلف جزئياً، وبالتالي قد تلجأ هذه السياسات إلى استخدام لغة الشعر بين حلم وآخر أو بين معاناة وأخرى.

- سأترك تاريخنا المعاصر بين قوسين، لأن الاختراق الكولونيالي ترك ما ترك من تداعيات، وأسأل: كيف تفسر إذن شبه الغياب للتنظير السياسي في تاريخنا؟ وكيف تفسر طغيان المديح والهجاء في الشعر العربي وهي أغراض سياسية بامتياز؟

- السياسة كمفهوم لا يمكن فصلها عن الديموقراطية إلا مجازاً أو تجاوزاً.

ولأنه ليس في تاريخنا ديموقراطية، فإنه من الطبيعي أن لا يكون فيه سياسة بالمفهوم المعاصر، لا على صعيد الممارسة ولا على صعيد التنظير. ولكن لو تركنا المفهوم جانباً وتحدثنا بالدلالات اللغوية للألفاظ، فسيكون من السهل علينا الوصول إلى النتيجة التالية: سياسة القمع هي بالضرورة قمع للسياسة، هي إما أنك معي أو عليّ، وبالتالي ليس بإمكانها أن تعطي احتمالاً ثالثاً أو حصيلة ثالثة من العلاقة أو التفاعل بين النقائض النهائية أو التباينات الجزئية.

وقد لا نكون بحاجة إلى الجدال في أن تاريخنا العربي منذ أكثر من ألف عام لم ينم على وسادة الديموقراطية أو معادلاتها ليلة كاملة. بالطبع أتحدث عن الديموقراطية من زاوية معانيها أو مضامينها ووظائفها الأهم، لا من زاوية المصطلح بلفظه وتفصيلاته، فمصطلح الديموقراطية كما تعلم جديد نسبياً وإن جاء مبنياً على أو مستمداً من التجربة الإغريقية.

ومادامت حالتنا هذه، فإن السلطات غالباً ما تعدي معارضتها بأمراضها، فتعكسها على صورتها ولكن بشكل مقلوب أو من الجهة المقابلة، وهكذا لم يكن أمام الشعراء غير المديح أو الهجاء، ولكن لأن الشعر أكثر أخلاقية ورحابة من السياسة، فقد نجح بعض الشعراء في الهروب من هذا الطباق الملعون، أعني الهجاء والمديح، إلى حقل ثالث، فزرعوه بالغزل والتأمل والتصوف والرومانسية وغير ذلك من المعارضات الضمنية أو السالبة أو المهزومة أو الناجية بنفسها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المديح والهجاء تطورا وتعقدا بتطور وتعقد بنية المجتمع العربي من القبيلة والعشيرة والتحالف وصولاً إلى أشباه الدول.

- أنت الشاعر السياسي.. كيف تحدد الاختلاف بين لغة السياسة وأغراضها وغاياتها.. وبين لغة الشعر وأغراضه وغاياته؟

- لا أعرف لماذا تبدو مصراً على وصفي بالشاعر السياسي؟! أنا لا أتفق معك ولا أرى أن التسمية تنطبق عليّ، لا من الناحية النظرية ولا التطبيقية. أعتقد أن عملي لسنوات في الحقل

السياسي الحزبي هو ما يجعلك تضيف الصفة إلى الموصوف بشكل تلقائي.

أعتقد أني كتبت عن المرأة أكثر بكثير مما كتبت عن قضايا تنطوي على قواسم مشتركة ما بين هواجس الشعر والسياسة، وكذلك الأمر في الجوانب الوجدانية والإنسانية والتأملية، وحتى حين كتبت عن السجن والحرية، إنما فعلت من زاوية الشاعر لا من زاوية السياسي. كان ينبغي على سؤالك أن يعطف لفظ السياسي على الشاعر، لا أن يكون صفة له، فالسياسة والشعر نهران اثنان، يسير كل منهما على حدة، وإن حدث أحياناً أن تسربت بعض الجداول من هذا النهر إلى ذاك.

بالطبع يمكن لأي شاعر أو أي سياسي أن يكون لديه تصور أو رأي معين بشأن الاختلاف بين لغة السياسة ولغة الشعر. بالنسبة إلي، وكوني سبحت في النهرين خلال أوقات متباينة، أرى أن السياسة محاولة للارتقاء بالواقع، بينما الشعر محاولة للارتقاء بالحلم. إذن هي تبدأ تحت وتسبح على السطح، وهو يبدأ فوق ويسبح في الأعالي.

قد يشكل الشعر حالة إغرائية للسياسة، بينما السياسة لا تستطيع أن تشكل تلك الحالة الإغرائية للشعر. هو لا يكتفي بأقل من المجاز، بينما هي قابلة للتعاطي مع أي قاموس لفظي. الجمال هو الحد الأدنى للشعر، بينما الحد الأقصى للسياسة هو التجميل، ولهذا قد تحاول السياسة في بعض المناسبات أن تتزين ببعض أثواب الشعر، أما الشعر فإنه غني عن السياسة. وإذا كان ثمة حقول مشتركة بينهما، فهي تلك الحقول المتعلقة بشرف المعنى والقيم الإنسانية الكبرى والانتصار لما هو أكثر عدلاً وجمالاً.

أخيراً لابد من الإشارة إلى أن الشعر والسياسة فعاليتان ضروريتان، لا يمكن لواحدة منهما أن تنوب عن الأخرى.. ولكن الأشخاص كفاءات واهتمامات واستعدادات متنوعة، ولابد أن تصب نشاطاتهم، عرفوا أم لم يعرفوا، في الميدان الواسع لسياسة ما، بيد أن هذا لا يعني ولا يتيح لنا تلقائياً وصفهم بأنهم سياسيون.

- سأدع العديد من القصائد الواضحة وسآخذ مثالاً ملتبساً: تكتب عن المرأة في قصيدتك الأولى من مجموعتك الأولى "من يعجز عن حب امرأة/يعجز عن حبك يا وطني". وهو قول عن المرأة والحب في مستوى من القراءة، لكن بعد التحليل نعلم أنه قول يصنّف ويحدد ويقوّم ويقصي وهي عناصر رئيسية في انبناء القول السياسي ما تعليقك على هذا؟

- الشعر والإبداع عموماً، أبعد من السياسة، وبالتالي من الطبيعي أنه يتضمن ما يهمه من عناصرها ويتخطاها. ثم إن جزءاً كبيراً من الحِكَم والأقوال المأثورة في تراث الشعوب، تنطوي على نوع من التصنيف والتحديد والتقويم والإقصاء، فهل يضعها هذا في خانة القول السياسي؟!

ما يهمني هو أن لا يحدث الخلط ما بين السياسي والحزبي، وبعد ذلك ليس مهماً أن تتناول قولي الشعري السابق من زاوية سياسية. أما أنا فأعتقد أنه قول عن المرأة والحب في مستوى من القراءة، وهو موقف سياسي في مستوى ثان، وموقف جمالي وفلسفي ووجداني في مستويات أخرى. أنا أرى الإنسان أولاً والوطن تالياً، وأرى المرأة أولاً والإنسان تالياً. المرأة هي المعادل والرمز الأعلى للكينونة البشرية، هي حاملة الحياة وحاميتها، هي الوجه الأكثر حباً وحناناً وعطاء وتحملاً وتضحية، وهي نقيض القمع وضحيته في أكثر من ميدان، اجتماعياً وطبقياً وجنسياً.. إلخ. والموقف منها معيار حقيقي لإنسانية الإنسان بوجه عام وليس لوطنيته فحسب.

ألم يقل أجدادنا "الأرض عِرض"؟ وهو قول ينطوي على شحنة عالية ومتعددة الأبعاد سياسياً واجتماعياً ومعيشياً، فإن صحّ قولهم، وقد قيل بعيداً عن السياسة بمعناها الضيق وبمفاهيمها المعاصرة، فلماذا لا تأخذ قولي باتجاه قولهم، ولكن على أرضية ثقافية من أواخر القرن العشرين؟!

هذه الثقافة التي ربطت في علم النفس وفي الأدب بين مهنة الجلاد والعنانة، فهل العنّين يحب؟

أنا أعتقد أن الجلادين وأشباههم، صغاراً أم كباراً، أعني على مستوى البيت أو الدولة، لا يحبون حتى أنفسهم، ناهيك عن الوطن أو الشعب أو المرأة في التكثيف الأخير.

- أليس انشغال القول السياسي هو في العلاقة بين الموجودات وممكناتها، بينما القول الشعري ينشغل بتصدعات الوجود؟

- أعتقد أني أجبت عن بعض جوانب هذا السؤال أثناء حديثي حول طبيعة اللغة ما بين الخطاب السياسي والخطاب الشعري، ومع ذلك فإن صيغة سؤالك الآن تتيح لي أن أطل على أفق آخر قد أرى من خلاله ما لم أره سابقاً.

يسقط الطائر من بين جناحيه فتتلقفه السياسة، أما الشعر فلا يرضى بأقل من الأجنحة، ليرسم الطيران كمفهوم، كحالة، كهاجس. ربما تحاول السياسة أن تتنبأ، ولكن الشعر لا يرضى بأقل من الرؤيا، في الوقت الذي يحاول فيه أن يتخطى النبوّة، بما يضمره أبداً من نية الخلق، أو إعادة الخلق على هيئة أكثر جمالاً وأخلاقية وحرية.

أحياناً يتشاغل القول الشعري بالموجودات وممكناتها.. ولكن تيارات الأعماق فيه تمضي إلى ما لا إياب له. هكذا.. ذهاب أبدي في سفينة الوجود التي لا جوديّ لها ولا مواعيد ولا جهات.

بالنسبة إلى الشعر، دائماً ثمة وجودٌ آخر، ينبغي البحث عنه والوصول المستحيل إليه" نوع من السيزيفية الألوهية" وثمة وجود أول، ينبغي ترميمه وتربيته وترويضه، وباختصار إعادة خلقه سوياً وبما يجعله مؤهلاً لممكن قابل للزواج من المستحيلات، مثلما هي القابلية بين الواقع والحلم.

كما ترى لا أعني هنا الوجود بوصفه موضوعاً فحسب، وإنما أيضاً وأولاً بوصفه ذاتاً إنسانية يستبد بها العقل من جهة، ويمنحها من جهة ثانية ارتياد مالا حدود له ولا ضفاف، ناهيك عما تفيض به الروح من مجاهيل وغوايات.

لهذا ينشغل الشعر بالحب والجمال والألم والحنين واليأس والحرية والكفر والإيمان والشك واليقين والحياة والموت وغير ذلك من هذه الفجائع والرهافات التي لا يستطيعها الوجود فتضنيه التصدعات، ولا هي تستطيع الوجود متصدعاً، فتواصل سموها في المعاناة والنهوض بأعباء ومسؤوليات أغضت عنها عناية المطلق الأول المفترض.

ولهذا أيضاً فإن مياه السياسة تبقى ضحلة في هذه الميادين، بينما تفور مياه الشعر بالكثير من الأسرار والغموض والقلق والرغبات.

- لقد كان خروجك من السجن بفعل تدخل مباشر من الرئيس الفرنسي الذي عبر عن حركة مطالبة بالإفراج عنك قام بها أفراد وهيئات في أوروبا، كما أنك دعيت في العام التالي من إطلاق سراحك إلى مهرجان "جرش"، وسافرت إلى ألمانيا بدعوة من مؤسسة "هاينرش بول" وأقمت العديد من الأمسيات في أكثر من بلد أوروبي، فهل تأسس هذا الاهتمام أولاً: على قول شعري تعرض قائله إلى الانتهاك، أم على معتقل رأي يكتب الشعر؟

- صحيح أن الرئيس الفرنسي تدخل من أجلي بشكل مباشر أثناء زيارة الرئيس حافظ الأسد إلى فرنسا عام 1998، إلا أن السلطات لم تفرج عني في ذلك الحين، لقد تأخر الأمر إلى 16/11/2000، وخلال هذه الفترة كانت الحملة الدولية تواصل نشاطاتها بشكل مكثف عبر منظمات أدبية وصحفية وحقوق إنسان، مثل: اللجنة العالمية لمناهضة القمع، والأمنستي، ونادي القلم العالمي، وصحفيون بلا حدود..إلخ، كما من خلال أدباء وفنانين سوريين "في الخارج"، وعرب وأجانب، ولكن الوزن الأكبر للحملة نهض به الأدباء والفنانون والحقوقيون الفرنسيون. وقد تكون هذه الحملة توافقت مع ظروف قبضة أقل تشدداً في سوريا، لها شروطها وضروراتها الداخلية والخارجية، وربما بحد أعلى

من المرونة في استجابة السلطة السياسية لتلك الضرورات.

وأياً ما كان الشأن، وبعد إعلان امتناني لكل من أسهم في حملة الإفراج عني، أقول إن هذا الاهتمام قد تأسس أولاً على مرافعتي إلى محكمة أمن الدولة العليا، حيث ترجمت وأذيعت ولفتت انتباه الرأي العام الأوروبي والمنظمات المعنية، إلى أن صاحب المرافعة ليس معتقل رأي وحسب، وإنما هو شاعر أيضاً.

من الواضح أن الرأي العام الأوروبي وجزءاً مهماً من المثقفين العرب، يعير اهتماماً خاصاً للسجين إذا كان شاعراً أو فناناً أو صحفياً أو حقوقياً أو غير ذلك من الحقول الإبداعية والإنسانية التي من شأنها أن تحمي صاحبها أو تستدعي مزيداً من الدفاع عنه، أياً يكن رأيه أو انتماؤه السياسي.

فيما بعد لعب نشر مجموعتي الشعرية "حمامة مطلقة الجناحين" وترجمتها إلى الفرنسية دوراً إضافياً وربما نوعياً في تصعيد الحملة وصولاً إلى الإفراج عني.

إذن كما ترى.. لم يتأسس الاهتمام أولاً على قول شعري تعرّض قائله للانتهاك، ولا يجوز لي ادّعاء ذلك، لاسيما أنني حين اعتقلت لم أعتقل كشاعر، وإنما بوصفي معارضاً سياسياً.

(سبق لي أن اعتقلت عام 1978 بوصفي شاعراً فحسب).

صحيح أن معظم الدراسات التي نشرت حول مجموعة الحمامة كانت تركز على ما تعكسه هذه المجموعة من خصوصية في تنوع مواضيعها وهواجسها، أو ابتعاد لغتها عن المباشرة في عرض بعض وجوه التجربة أو المعاناة، ولكن رغم ذلك فإنه ليس من السهل هنا الفصل ما بين الشاعرية والشاعر والتجربة. هنا تصبح الحرية أولاً، تصبح الحالة بمجملها قيمة إنسانية بحد ذاتها، لا يتبرأ منها غير الخصوم أو المحكومين بدوافع الانكفاء أو الغيرة أو الخوف أو الحسابات الشخصية الضيقة.

بالطبع ليس لي حق على بعض الشعراء العرب، والسوريين خصوصاً، الذين تحاشوا أن ترد أسماؤهم في أي من المذكرات أو البيانات أو الكتب التي طالبت بالإفراج عني، وإن كنت آمل لو أنهم فعلوا، ليس من أجلي شخصياً، بل من أجل شرف الثقافة وحرية الرأي. أقول ليس لي حق عليهم، ولكن ليس من حقهم أيضاً أن يستغربوا اهتمام الآخرين بشاعر داخل المعتقل أكثر من اهتمامهم بشعراء يعيشون حياتهم ضمن الحدود العادية من الهدوء والطمأنينة أو من القلق والسأم وغير ذلك. أحياناً كان يخطر في ذهني أن أتصل ببعض هؤلاء الشعراء لا لأعاتبهم على صمتهم الطويل، ولا على عدم إزعاج هواتفهم للاتصال بي وتهنئتي بالخروج، بل لأعتذر إليهم عن غيابي عنهم، وربما عن عودتي إليهم أيضاً بعد كل تلك السنوات.

في حلقي الكثير من المرارة.. يا إلهي كم تذكرتهم في السجن وكم تجاهلوني. بعضهم اعتبر اعتقالي امتيازاً وسبيلاً إلى شهرة أكبر من أن أستحقها، وأنا أعتذر إلى هؤلاء أكثر من غيرهم، ومع ذلك لا أتمنى لأحد منهم أن يعيش تجربة مماثلة لتجربتي، حتى لو كان محذوفاً منها السياط والجنازير وامتهانات الروح والجسد وازدراء ذلك الجرْس البعيد لتك الحروف الثلاثة التي تتشكل منها لفظة الموت.

أعرف أني ابتعدت قليلاً عن سؤالك، ولكني أعود إليه الآن لأختصر الإجابة أو أكثفها بالقول: ربما بدأت قضيتي كسجين شاعر، ولكنها شيئاً فشيئاً، ولا سيما بعد قصائدي المهربة إلى الخارج، أصبحت قضية شاعر سجين. أما الآن وبعد أن انتهت القضية، فإن المطروح هو حال الشعر وليس حال الشاعر.

منصور راجح

منصور راجح

شاعر وكاتب يمني يقيم منفياً في النرويج منذ عام 1998م.

من مواليد 1958 في قرية هميريم- محافظة تعز في اليمن. بعد إتمام دراسته الثانوية هناك انتقل إلى حلب السورية ليتابع دراسته العليا للعلوم الزراعية ثم غادرها إلى بيروت ليدرس في جامعتها (كلية التجارة والاقتصاد) قبل عودته إلى اليمن أواخر 1982.

ترأس اتحاد طلاب اليمن أثناء الدراسة الجامعية في حلب، وانتخب سكرتيراً للمنظمات الطلابية العربية في بيروت. كان عضواً نشيطاً في الجبهة الوطنية الديمقراطية (المنظمة الرئيسة للمعارضة في اليمن الشمالي حينها).

تعرف منصور على "أفراح غليون" في بيروت وصارت زوجته فيما بعد. في اليوم التالي لعرسهما، اعتقل منصور من قبل الجهاز المركزي للأمن الوطني لمدة ستة أشهر دون تهمة أو محاكمة، ولم تمر بضعة أيام على إطلاق سراحه حتى اعتقل من جديد مع أبيه وعمه بتهمة قتل ملفّقة، وحكم عليه بالإعدام بعد محاكمة صورية، وعلى كل من أبيه وعمه بالسجن 15 عاماً.

ظل سجيناً لمدة خمسة عشر عاماً، من 1983م إلى 1998م، تعرض خلالها إلى ضروب شتى من التعذيب الجسدي، خصوصاً في الأشهر التسعة الأولى.. كما بقيت قدماه في الأصفاد طيلة سبع سنوات.

اشتهرت قضيته على نطاق واسع دوليًا، وتضامنت معه المنظمات الحقوقية والعاملة في مجال حقوق الإنسان، خاصة منظمة العفو الدولية ومنظمة (بن Pen) الدولية، وصولاً إلى إطلاق سراحه. نقل منصور مباشرة من السجن إلى الطائرة التي نقلته إلى مدينة ستافانجر النرويجية حيث بدأ حياته من جديد مع زوجته "أفراح"، واستقبلا مولودهما "محمد".

صدر له:

1- "مدار السجن؟ مدار الحب" عربي نرويجي عن دار نشر كابلن في النرويج

2- "قريب: بعيد" عربي نرويجي عن دار النشر النرويجية كابلن

3- "أوجاع الرمّاح" إصدار اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ومركز عبادي للدراسات والنشر في اليمن

كتب منصور عن تجربته الشعرية:

صرخة أختي سوسن

أعترف بادئ ذي بدء بأن علاقتي بالشعر ما تزال مبهمة، وسوف تستمر كذلك. العلاقة بالشعر بالنسبة لي هي هذا الإبهام اللذيذ وذلك الغموض الداعي إلى ارتياد القصيدة قسراً، "الشاعر هو البطل التراجيدي الحقيقي في كل العصور".

الشعر بالنسبة لي هو القصيدة التي لم أكتبها بعد والعلاقة بالشعر هي هذا الإلحاح المستمر، تلك الحاجة الملحة لكتابة هذه القصيدة، "ما أنجز دائماً أقل من - أو ليس هو- المطلوب"، والشعر بالنسبة لي هو هذا الإحساس بالتضاؤل أمام الحياة مع كل قصيدة أكتبها، مع كل قصيدة أكتبها أحس

بأنني "ولا حاجة" أمام جبروت وعظمة الحياة وبأنني محتاج إلى مزيد من الشعر لكي أصبح "أنا" في هذه الحياة.

لكنه الشعر غير الطيع، والحياة الجبارة، وإلحاح السؤال الدائم عن "علاقتك بالشعر".

الجواب عن سؤال الشعر لا يمكن أن يكون إلا منطقياً، والشعر غير منطقي، فمن أين أبدأ؟

البداية دائماً من ومع الحياة،

الحياة أولاً؛

* * *

ولدت وعشت طفولتي الأولى في قرية هميريم محافظة تعز في اليمن؛ تقع القرية في حلق وادٍ تحيط بها جبال شاهقة، لذلك ثمة صدى للصوت، ثمة ما كان وما يزال يتردد في أجواء هذه القرية، صوت أو صدى يداعب أوتار الروح دائماً.

تمتلئ - أو كانت - أزقة القرية بالحيوانات الأليفة، مداخل هذه القرية، هذه القرية بالذات، والجبال التي تحيط بها مفعمة بالأشجار والنباتات البرية، حيث ما ولّيت وجهك ثمة حياة من نوع ما، مقبرة القرية تحتل مدخلها الرئيسي، حتى الآن لا أدري لماذا.

ولدت لأسرة فلاحية، ثمة حقل وبيادر، ثمة فلاحون لا يستطيعون العمل بدون أغانٍ، يسمونها مهاجل في قريتي "ما يردده الفلاحون أثناء عملهم"؛ ثمة تعاقب للفصول، لكل فصل حضور خاص قوي ومتميز داخل البيت وعلى الوجوه، للفصول وتعاقبها تأثير كبير على طباع الناس وعلى ما يصدر عنهم، والطفل يلاحظ التعاقب ويلاحظ تقاسيم الوجوه ويسمع الإيقاع وموسيقى الحياة؛

"أسرة فلاحية" يعني: سمر، قهوة وحكايات أيضاً؛ كنا أطفالاً وكنا "أشقياء" لذلك ما كان ممكناً النوم بدون حكايات وتخويف إذا لزم الأمر، هنا يشكل الليل بطل هذه الحكايات والمادة الأكثر تأثيراً وإثارة للشجون والمخاوف التي تستدعي أغاني الأماسي الحزينة تلك؛ كم يبدو ليل القرية من هنا - على مستوى الزمان - مدلهماً، صامتاً ومخيفاً، كم يبدو جالباً للشعر؛ حيث المجهول بسطوته يتبدى الشعر إمكانية ما للزوغان.

"أسرة فلاحية" يعني علاقة خاصة بالمطر، ليست علاقة بالحياة فقط، لكنها - بالنسبة لي - علاقة بذلك الاكفهرار الذي يسبق المطر لكأني به - ذلك الاكفهرار - طلق جماع السماء الأرض، علاقة بالرعد القوي تردده الجبال، علاقة بالبرق، المطر. هو ذا السيل يتدفق وثمة أصوات من هنا وهناك ترددها الجبال تطالب بأخذ الحيطة، فالسيل قادم: ماء يتدفق من أعالي الجبال بقوة وجبروت الحياة يجرف كل ما في طريقه؛

القرية هي ذلك الإبهام العظيم، والشعر صنو الماء؛

من وقت مبكر وفي هذه القرية بالتحديد نما في داخلي الحنين؛ طعام الحقل لا يكفي، ثمة هجرة، سفر الوالد والعم والأخ الأكبر، ومعظم رجال القرية، بتؤدة يمتصهم الأفق إلى حيث لا أعود أراهم بالعين المجردة، أحاول أن أتخيلهم هناك، في الخارج... المدينة، ثمة شوق "إلى المجهول"، الشعر هو شعور.. ثمة علاقة من نوع ما تنبني مع المجهول في سياق القصيدة، والقصيدة دائماً غير مكتملة؛

وما هي إلا سنوات وأسافر ويصبح الحنين: حنيناً للعودة، حنين العودة إلى القرية سيملؤني إلى هذه اللحظة. القرية هي حضن الأم ورائحة المطر؛ حنين العودة جرثومة الشعر

* * *

في المدينة محددات كثيرة ساهمت في نمو حركة الشعر في داخلي: العمل في عمر مبكر، والخبز لا يكفي؛ وما هي إلا سنوات فالحزب، ثمة حاجة إلى التغير والغوص في دهاليز المجتمع، السياسة، القيود؛ ثمة إحساس بالحاجة إلى الحرية كبير، الحرية هي ممارسة الشعر.

في هذه المرحلة كنت أعيش في دكان يضمني مع كل من أبي وعمي وأخي الأكبر. عن طريق أبي تعرفت على السياسة أول ما تعرفت، كان دائم الحديث عن السياسة وقراءة صحف الستينات، وعن طريقه أيضاً تعرفت على، أو دخلت إلي الصوفية من أوسع أبوابها، لقد نسخت بيدي وكنت ما أزال في الثانية عشرة من عمري أهم كتب شيخ الصوفية في اليمن "الشيخ أحمد ابن علوان"، وفيها الكثير من الأشعار التي كان يقرأها شيخ أبي في المذهب "الجرادي" بطريقة آسرة جداً، وكان لأبي في هذه المرحلة وما قبلها صديق شاعر يتردد عليه دائماً يقرأ أشعاره مصحوبة - هذه القراءة - بقيامه بالضغط على أضراسه بقوة وبطريقة يصدر عنها صوتاً يبدو لي الآن كما لو أنه جزء لا يتجزأ من شعره؛ في هذه المرحلة أيضاً انتشرت "الزوايا" هناك في المدينة التي كنت أعيش وأعمل وأدرس فيها، كنت أتردد على بعضها، كان يذكر فيها اسم الله بأساليب رهيبة، حفرت في داخلي اسم الله إلى الأبد. وعن طريق عمي تعرفت على الكاريكاتير، لقد كان مولعاً جداً بكتب الأطفال برسوماتها الكاريكاتيرية، ومتابعاً بشغف لرسوم الكاريكاتير في الصحف المصرية التي يجلبها أبي معه من مدينة تعز كل أسبوع "ستينيات القرن الماضي"، وكان لنا جار يدعى "علي أمين" مدمن قراءة ألف ليلة وليلة وكتب عنترة والزير والمقدد.. الخ بما تحتويه من أشعار يجري قراءتها عادة موقعة مع هز الرأس.. الخ. كنت صغيراً وكثيراً ما كنت أمنع من الخروج من الدكان فقرأت كثيراً. كان أخي الأكبر نموذجاً للتمرد من وقت مبكر، كان أول من يغادر دكان الأب "هارباً" إلى حيث يستقل بنفسه في المدينة الكبيرة، وكان علي أن أغطي هروبه لأتصدى في وقت لاحق لغضب الأب. لقد زرع أخي الأكبر في داخلي وحشة التمرد حتى هذه اللحظة.

في هذه المدينة أيضاً انخرطت في حلقات الحزب ولما أبلغ الثانية عشرة، وكان العمل - وما يزال - سرياً، السرية عنت التفكير وسرعة البديهة والتصرف وكنت وحيداً بعد أن قفل أبي عائداً إلى القرية والكبار غادروا إلى المدينة الكبيرة هناك ليشكل هنا الحزب عالمي الحميم، الغامض والسري بكتبه الممنوعة، الاجتماعات السرية والبحث المضني عن أماكن لهذه الاجتماعات والتمويه عليها، خوف التجميد ووحشة المجمد، والأدب الروسي، وما هي إلا لحظات ويقتحمني الشعر العربي من أوسع أبوابه متدفقاً من بيروت حاملاً حكايات أصحابه ومعاناتهم ومعاركهم..الخ.

وكان أن انتقلت إلى المدينة الكبيرة حزبياً يقارع السلطة في عقر دارها هذه المرة، السلطة خوف واحتيال على الخوف بالسرية والقراءة والمنشور والتنظيم... والكتابة، في هذه المدينة قرأت اسمي منشوراً لأول مرة على صفحة جريدة، وفيها تابعت النشاط الأدبي عبر الندوات التي كان يقيمها اتحاد الأدباء في نادي الوحدة وفي كثير من الأماكن، فيها انصقلت تماماً من خلال النشاط الطلابي النقابي والسياسي والأدبي على كل المستويات، وفيها أيضاً - صنعاء - تفجر ينبوع الكتابة. الكتابة تجاوز للخوف ولمشاعر الإحساس بالتضاؤل والشعر اقتحام.

وسرعان ما تصبح المدينة الكبيرة، العاصمة أصغر من الأفق. ثمة حلب، والجامعة ووليد زينو "صداقة". ثمة بيروت والمعترك السياسي والفكري العظيم والحب. في بيروت أصبحت عاشقاً، كم أراني اليوم محظوظاً لأنني أصبحت عاشقاً بالتحديد في بيروت، هنا قابلت أول مرة المرأة التي ستصبح حبيبتي وزوجتي "أفراح"، في مجرى علاقتي بها سيتدفق الشعر، وكأن لا حب بدون بيروت، لا شعر بدون حب.

*   *   *

على مشارف الخامسة والعشرين وكنت قد عدت إلى اليمن على إثر حصار بيروت عن طريق دمشق، كنت على موعد مع الزفاف ومع السجن - خمس عشرة سنة قيد الزيادة على شكل المنفى - وحكم بالإعدام علي أن أنتظر لحظة تنفيذه إلى أن يتم تنفيذه أو يتوفاني الله.

هكذا وفي لحظة وجدت نفسي وجهاً لوجه مع قوى "العمى الأزلي" وأياديها الصلدة تتخطفني من حضن عروسي التي لم يمضِ على زواجي منها أكثر من يومين، حضن أمي التي لم أرها سعيدة منذ أن فتحت عيني على الدنيا بمَثل ما رأيتها خلال ذينك اليومين قبل أن يجيئوا.

ثمة طرق خفيف على الباب، أهب واقفاً لأفتحه. عينا أبي المفجوعتان يبلغاني أنهم يطوقون البيت؛ لقد جاءوا إذاً..... قتلة عبد السلام الدميني؛ ستة أشهر من التعذيب قالوا بعدها: لتذهب...، وكانت عيونهم تقول غير ذلك، لن تذهب بعيداً... بضعة أيام قبل أن يعودوا ثانية ليأخذوني هذه المرة من نفسي إلى الأبد؛ قتلوا الشيخ وأطلقوا على حياتي جثته؛ والسيارة تتهادى بنا بعيداً عن القرية... كان صوت سوسن "أختي" صارخة لحظة أخذوني من البيت، يملأ الأفق والزمان، من تلك اللحظة وهو يخترقني، هو ذا وما يزال... "يهدمني ويبعثر معناي"؛

الشعر هو محاولاتي اليومية لأن ألم نفسي بعيداً عن تلكم الصرخة، لا أدري، أي شعر يمكن أن يجد لنفسه معنى بدون ذلك العويل؟

*   *   *

وكأني لم أقل شيئاً

*   *   *

هو الشعر:

ابتسامة

على شفتين من نار اشتعالي

وعيون حبلى بالصهيل

بالشرق الذي يكسر وجه المستحيل

فاتحة الرحيل في الذي لم يأتِ بعد

وانفجاري.

كتب عن تجربة منصور الأدبية "أوجين شولجن(*)" قائلاً:

في فضاء المدينة الجبلية تعز في بلاد الجبال - اليمن. تحلق العقبان فاردة أجنحتها بين أحمر الأفق والكتل الصخرية. خارج المدينة يقع السجن، تحيط به أرض جرداء، فوق السجن لا ترفرف العقبان. هنا قابلت منصور راجح أول مرة.

لقد حافظ منصور على البقاء خمسة عشر عاماً حيًّا في هذا الجحيم - مكافحاً العقبات العالية. في ذلك اليوم من عام 1997 عندما جئناه كان وزنه أربعين كيلو جراماً فقط. ما تبقى منه! كنا وفداً من الـ "بن" واتحاد الكتاب النرويجيين، قدمنا من الدانمارك، أيسلندا، المغرب، النرويج، فلسطين،

السويد والأردن. وبالنسبة لاثنين من أعضاء الوفد، كريستي بلوم وكاري فوكت، كانت تلك هي سفرتهن الرابعة.

قابلنا منصور بابتسامة متسائلة حذرة: أين أفراح؟... تلاشت الابتسامة، أفراح لم تكن معنا؛ أفراح هي زوجة منصور التي كافحت بدون كلل من أجل إطلاق سراحه حراً كل هذه السنوات، حافظت على حنينه إلى الحياة، شاعريته وشاعرها ذي الأربعين كيلو، حياً.

جلسنا حوله على الأرض وأكلنا البطاطا المشوية من مطبخ السجن. الجميع أكد له بأننا سنخرجه من السجن، شرحنا له زياراتنا إلى المتنفذين وذوي السلطة في العاصمة صنعاء، وقلنا له بأن الضغط العالمي سيزداد وقريباً سيحلون قبضتهم منه.

هل كنا نؤمن بذلك؟.. كنا نريد أن نؤمن بذلك؛ هل آمن منصور بذلك؟... مسح بهدوء جبينه بأطراف أصابعه، ابتسم ثانية، جال ببصره من أحدنا إلى الآخر ثم قال: "اعملوا ما تستطيعون"، "أعرف خطورة ذلك فقد يقررون قتلي إذا ما أزعجهم الضغط، لكن هذا أفضل، الموت أفضل من البقاء هاهنا، الحرية أو الموت".

سيأخذ الأمر عاماً آخر؛ عاماً آخر من الأخذ والرد في أروقة وزارات الخارجية وبركسل؛ احتاجت اليمن إلى قرض من الاتحاد الأوربي، قلنا: قرض مقابل شاعر... شعارنا. وكان علينا أن نمارس ضغوطاً إضافية واتصالات لانهائية برجالنا في اليمن، وكانت كريستي وكاري تعملان بلا كلل ونحن ندعمهما.. وذات يوم هبط منصور وأفراح في ستافانجر، منصور أصبح حراً!

يآه... منصور أصبح خارج السجن في تعز، أخذ معه أفراحه وشعره، لكن البلد التي أحب تعين عليه أن يغادرها؛ تعين عليه أن يستبدل جحيماً مادياً بآخر نفسي؛ حالاً سيكون عليه أن يعرف معنى أن يكون المرء منفياً.

في مجموعته الأولى بالنرويجية جمع منصور راجح الكثير مما كتبه في السجن. شعراً ملتهباً، شعراً راجياً، شعراً تعبدياً. كلمات للسجانين والجلادين، كلمات لليمن، وليس قليلاً من الكلمات لأفراح؛ المفارقة حسب اعتقادي أن معظم أشعار منصور في السجن في معناها الحقيقي شعر حب للمرأة التي ملأته كما لو أن لا ألم ولا خوف يثبط، حبه أصبح دفاعه، وطاقة حفظ الذات من الهلاك. "يا قاتلي قف/عيني تأمل" يقول في قصيدة هوية. "تأمل في ذاكرة العيون...": إنه محكوم بالإعدام ويخاطب جلاده، منفذ حكم الإعدام؛ أي شاعر آخر في النرويج اليوم دفع ثمناً كهذا من أجل شاعريته؟.. هنا تحفل كل كلمة بالاعتراف: أليس كذلك!

والآن يعود منصور، الآن يستبدل الأشعار الحارقة بالأشعار المتوقدة، بالجمرات تحت الرماد التي تعطي طعماً في الفم، طعم الشوق، طعم الحنين. منصور راجح يكتب عن حياته، كضيف في النرويج، أو بالأحرى: كضيف في بلد ثان. نظرته ليست نظرتنا، "أرى مالا يراه الناس" يقول في قصيدة رؤيا. "أنا من يعطي المكان هويته/أنا للمكان بعده الرابع". هنا شعر ثقيل، يهبط كأحجار ساخنة خلال الجليد، وجرح وإدراك بأنه لا إرادة للتكيف بقادرة على أن تطفئ الحنين إلى الوطن... هناك حيث ترفرف العقبان بين الجبال كما لو أنها لا تحلق في أي مكان آخر. لكن هناك أيضاً شعر يتضمن الكلمة "مع ذلك"؛ فرغم كل شيء يسمع تغريد البلابل، يسمع النهر ويرى مجرى الشمس ويفرح، لكن يقول "العالم أجمل من ما نتصور - أجمل من ما نحب أن يكون/وأشهى/أشهى من ما نحتمل".

منصور راجح يضع بشعره العالم الكبير في الصغير، في تجربته ثمة أفراح، لكن ليس أفراح الحنين، إنها حاضرة كل ساعة من اليوم. هناك ابنه محمد المولود في ستافانجر. الحياة الجديدة بوعي مضاعف. الشاعر يرى كل ما حوله، أصدقاءه الجدد، المساندة التي يتلقاها، الحرية التي ترافقه حيثما يحل - إلا هناك - حيث يفضل أو يريد: العودة إلى يمنه؛ الحنين الذي يتكدس في هذه

القصائد، يخلق من جديد في أبجدية جديدة، في إيقاع جديد، لكن هنا أيضاً الذكريات عن زمن حمل في يديه القيود.. أو ذكريات زمن تطلع فيه إلى مدينة عدن، "جميلة كحلم الطيبين".

مخْتارات شعرية

لحظه شعر

شيء ما ينتفض
يهزّني من الأعماق
يصيرني
أصيره
لا أدري أي منا يصير الآخر

*　*　*

كأنها لحظة المطلق
أكاد أستشف انسيابها
كم هي ناعمة ـ لكن مصرّة
على التدفق إلى مالا أستطيع التكهّن به
وأستطيع إلى ما قد راكمته منها
أن لا أدعها تمرّ دون التبارك بها،
التماس قدر من خلودها
إنها لحظة المطلق
تترامى في اللا نهائيّ
متدفقة منه وإليه

*　*　*

لأسرع في التماس قدر منها
لأكتب ما أستطيع كتابته
عن هذا الذي ينتفض
يهزني من الأعماق
عن شفافية المطلق
نعومته المشوبة بإصرار جبار
على التدفق إلى مالانهاية
لأكتب عن اللحظة التي تمرّ من هنا:

فيض شعر هائل
نبض شعب يغادر عضاله للحاق بها
تبدد عاصف للركود
تجلّ خاطف لجمال يأخذ الأبصار..
إلى آفاق غير مرتادة
يتوهج بما يغري على كتابة قصيدة
وحدها القصيدة:
قادرة على الاحتفاظ بشيء ما من بريقه
متسعة لاحتضان ماتيسّر من نبض الشعب
مطواعة لتشكيل التبدد العاصف للركود:
لوحة تغري بتأمل المصائر
وحدها القصيدة:
جريئة حد الاحتفاظ بشيء من هذا الهيولي
حد التمادي في صحبة المطلق
تتشبه به... تقلده
تغري بما يغري به
كم هو رائع ترويض هذه القصيدة
امتطاؤها،
كم هو رائع غزل هذه القصيدة
استشفافها كشفاً لما لا يبين بغيرها
فأي شيء سيكون علو صهوتها،
في لحظة كهذه؟
جموح غير محمود العاقبة
تلجمه الكتابة
تبارك فيضها يطويه
يعيد خلقه نسيجاً من لغة
أخلعه - ها أنذا - على اللحظة
لتدخل في ملكوتنا:
ملكة فرح

قصيدة

رجوع

وعدتك الرجوع
وها قد مرت الأعوام
ولم أعد
كنت طفلاً
الله ما أحلى أن يكون المرء طفلاً
وكم هي قاسية هذه الرجولة - المسؤولية
المواليد لحظة هذا الاعتقال
فتياناً أصبحوا
شجرة حبنا كبرت كثيرًا
ظلاً ممتداً أصبحت
وهذا الاعتقال يتضاءل
يتضاءل "صح"
لكن انتفاءه ما يفتأ بعيداً
وعدتك أن أعود
قصائد كثيرة كتبت
أيامٌ كثيرة انقضت
أعوام قليلة
أربعة عشر عاماً
هي عمر طفلنا المجهض
ربيعنا المستباح
زمن كفاحنا من أجل أن نكون
ضد ما يريدونه لنا
أربعة عشر عاماً
هي عمر كل هذا الاعتقال:
الطفل المجهض
الربيع المستباح
زمن الكفاح الذي يمتدّ

في زمان الإنسانية

قطرة من بحر الحياة

بحر الحياة الذي لا يحدّ

وعدتك أن أعود

ولم أعد حتى الآن بالفعل

وبالقوة أعود

ها أنذا أعود

شعرًا أكتب

سؤال:

هل يعود؟

الغائب... الشاعر... الحاضر...

الذي يعود.....

يعود

صداقة

لم نتحاور طويلاً

لم نختبر بعضنا في سياق علاقة ممتدة في الزمان

لم نترافق في سفر، ولم نتعامل بالنقود

لم نتجاور في فراغ

كما لا ننتمي لسماء واحدة،

بلاد واحدة

نتكلم لغتين مختلفتين

ونفهم الله بشكلين مختلفين

مثل ما نتجه إليه عبر جسرين

أحدهما يبدأ بيسوع

والآخر بمحمد

ومع ذلك صرنا أصحاباً

تلك الدقائق كانت أكثر من كافية

لنصبح أصحاباً

ثلاث نساء نرويجيات

وأنا:
معتقل في سجن تعز
وهنّ حمائم سلام
رسل إنسانية
يقطعن الأميال إليك
لتثق بأنك إنسان
وأن الإنساني لا يتجزأ
ومن الحرية أن تصبح هماً
لثلاث نساء نرويجيات
وكأن ثلاث نساء نرويجات يكفي
لهزيمة هذا الإرهاب...القهر...السجن...الوحشة
مرحى بالحرية
فيرا...كاري...كرستينا
شيءٌ ما أصبح فيهن مني
وسافرن بعيداً
أحسُ بهنّ الآن
في هذه الزنزانة
وكأني لم أعد وحيداً
وكأن الحرية أو شيئاً منها
أن تجتمع للحظات
بثلاث نساء من نور
طيبة تبدو الأولى
وذكاء الثانية بغير حدود
أما جمال الثالثة فليس فقط ظاهرها
بل تيار ما يأتي من أعمقها
وكأنه جمالك أنت يانرويج

لا شيء يكسرني

لم أنكسر:
لإشفاقي عليك من انكساري

ولم أسقط لأني خجلت من عينيك

عيناك التي أوقدت في داخلي

جذوة التحدي

حال أيقظت فيهما ذاتي

معنى لوجودك

لم أئن مخافة أن تسمعيني

وغنيت

بملء جوارحي غنيت

لترقصي لي

كنت أحس وقع أقدامك

أكاد أسمع لنهديك - يضطربان -

صوتاً

يتماهى في صوتي

لأغنيتي صدى

متموجاً ما بيننا

ولجسمك الفوار في الرقص

أريج

يشفيني - تماماً- من عضال الوقت

أوغل في غنائي

فيك

لايحتويني سجن

ولا يستطيع زمان القهر تحجيمي

لأني فيك:

لاشيء يكسرني

احتفال

أحتفل:

برأس العام الثاني عشر

أجدد زفافك

أنفض ما علق بفكري:

من عفن السجن،

وما لحق بجسمي:

من وجع الحرمان

أكتب اسمك...."حرية"

أرسم وجهك... "فناً"

على أمتعتي وفي الجدران

في جو الزنزانة تشكيلاً

وفي كمد العمر المثقل: تنْزيلاً

غاوياً ما زلت أنا

غاوي شعر

من وجهك يأتي إلهامي

ليتبعني الغاوون

أنى شاؤوا

ليس سوى عشقك

غناك يجذب أحلامي

وسوى حبك

فاتنتي: لا معنى لهذا العمر

فاحتفلي معي

برأس العام الثاني عشر

لميني من ألمي....ضميني

أجد في حضنك ذاتي

ناديني:

أجد من فمك اسمي

غني لي ألقي صوتي

برأس العام الثاني عشر

غني لي:

Happy New Year

في عينيك زمان ثانٍ

لقاء

وفجأة وجدتك واقفة
في غرفة الزيارة
وجهاً لوجه وجدت نفسي
أمام حبي الأول
أعانق فتنتي المتجددة
شوقاً في الغياب
وفي الحضور روعة متأججة
من قوامك الممشوق عرفتك
سواد "الشرشف" لم يستطع أن يحجب
عن ناظري قوامك
رائحتك تملأ المكان
وشرق وجهك من تحت "الخنة"
يضيء القلب
بأن الحبيب أمامك
هكذا فجأة:
وجدت نفسي
مدعواً لاحتضانك
ولتمريغ خدّي في خديك
آه من خديك:
النضارة نفسها،
الوهج عينه،
الرائحة ذاتها،
آه من خديك وقبلاتي
نسينا أننا لسنا وحيدين
ونسينا أننا في غرفة الزيارة
من سجن "الضباب" في "تعز"
ذهبنا في حرارة العناق
وحين داهمنا الوقت
كان قد مضى على عناقنا:

ساعة
وموعد الزيارة كان قد انتهى
إلى اللقاء في غد قلنا لبعض
وفي بعض ذهبنا إلى غد
إلى حديث الزيارة الاولى
وكلام الحب الذي لاينضب معينه، ولا تذبل لحظاته
كنتِ كعادتك جميلة
وكنتُ في أوج التوهج
حبًّا، وكنتِ كعادتك لبقة
حبك وصدق العبارة في كلامك
جدد فيّ حب البقاء
وإرادة التحرر من هذا الجحيم
فيك... وعبرك،
يا حريتي الأكيدة
وخلودي الجميل
يا أفراحي التي...
من حياة دائماً جديدة
تعالي، دائمًا تعالي
بجسدك،
روحك دائماً معي وينقصني فقط عناقك
يا فسيلة أهلنا الطيبين
يا أصيلة
يا ربة البيت الذي.....
ما يني من هذا المترامي الأطراف يتشكل
وأم الطفولة الموعودة
ضوء القمر - خدك
هزم ليل السجن
وإشراقة الشمس في عينيك
بددت الكآبة المهيمنة

أرى فيك عافيتي

من هذا المرض

وفرحي ضد حزنهم المفروض

بقوة الجدران، وبشاعة العسكر

أن تجيئي معناه أن أكون في انتظارك

وذلك أملٌ لا يموت

وشوق يحيي الروح

أن أكون في انتظارك يعني

أنني أحيا

في مجيئك المأمول

في انتظارك

أو خروجي من هذا السعير

جسداً يتدحرج نحوك أنّى كنتِ

ليؤسس في التحامه بك

مشروعاً كبيرًا للحب

والجدة

للإنسان ألم يفرّط بشيء

من حقه في أن يعيش كما يجب

إنساناً يحيا بحق

كائناً من توق

للحرية

نقش على كتاب

لاتسل عن الأسماء

سمّ بالأسماء التي تروق لك

ولا تسل عن الأماكن

اعتبرها أماكنك أنت

الأماكن التي لها حضور في وعيك

لا تسل لماذا كل هذا الإبهام

وبدلاً من كل ذلك

تخيل نفسك في الموقع نفسه
من التجربة نفسها
وحينها إن لم تنس اسمك
وأنت جالس إلى هذا الكتاب
حك فودك بطرف إصبعك السبابة
وفي ذاتك اكتشف
شخصاً استثنائياً لم يكن له وجود
زمن كتابة هذا الكتاب

تفاصيل

هذا اليوم
بعد أن نظفت مرقدي
من بقايا سهاد الأمس
فكرت فيك:
لولم تكوني
لكنت اليوم بهيئة ثور
لولاك لما أنا اليوم هنا
لما هنت
محتملاً ما لا يحتمل
لكنتُ اليوم متمردًا أو ميتاً
غير حافل بما يسمونه حياة
منذ أن صرتِ معنى حياتي الأعمق،
- هكذا قلت لنفسي وأنا منهمك
في تناول "كدمتي"
ثم في تنظيف الملابس -
جافتني الحياة كما أعدّوها لنا،
همت أبحث عن أشكال أخرى عنك
وقد باعد بيننا هذا المعتقل

بطاقة

كل عام وأنتِ بخير
يمه
يا أصل جلدي
كل عام وأنتِ بخير
يا حبيبتي
يا أنا، يا بنتي وولدي
كل عام وأنتم بخير
يا أصدقائي الطيبين
عيدٌ، وهذه روحي تهيم
فيكم أهلاً وناساً
الواحدة بعد العشرة مرت
والسجن هو السجن
أنا ربيعك يا "يمن"
يا جلدي وبلدي

انتظار

انتظريني ليستمر وهجك
ويستمر ضوئي يبدد الظلام
من جذوة انتظارك
أستمد عزيمتي
أواصل السير في قرّ هذه البيداء
أمل الوصول إلى ظلالك يحركني
فلا تملي الانتظار

صلاة

بعيدة كالقرب
وقريبة كالشمس يا حبيبتي
ضوؤك يغمرني
ودون وصالك
هذا السجن

دون وصالك مسافة من جحيم

بعيدة كالحلم

لا يزيده البعد إلا سموًّا أو مهابة

وقريبة كنبض القلب

أو النفس

أتحسسك في القرب

إذ أتحسسك

أضع كفي على قلب ينبض بهجة

وأتنفسك

أواصل أحلامي البعيدة فيك

يا أنت، يامحتواها

أتحسسك

إذ أتحسسك في القرب

على الحياة أضع كفي

على قلب ينبض بهجة

وأتنفسك

أواصل حياتي فيك

يا أنتِ، يامحتواها

أغنية

أحب

حفيف السنابل

في عناقها الريح

وأحب أن أراكِ مقبلة

أحب وشوشة العشاق

في آذان بعضهم

وأحب أن أسمع

كلماتك النابية

في لحظة غضب

أحب ذكرياتي معكِ

هذا شوق يهزم الأحزان
أرفع رأسي الآن
كي أتطلع في أفقك

أمل

يغيب الأحبة
ويبقى الحب
يغيب الأصدقاء
وتبقى الصداقة
يغيب الجسد
إذ يغيب في الممنوع
فتشتعل الروح
حرية

مدار الحب

أغني
ها أنذا وما أزال
فما تزال رائحة براءتك
تملؤني
وما يزال ملمس جسمك
يفعم روحي
ما تزالين عروسًا
وما يزال حبك ينسج علاقتي بالكون
ستظلين حبي
وسأظل قادراً على ممارسة الحب
لأن عالمنا مرتوع بالكراهية
وقبح الحاكمين
ولأنك - وهذا هو المهم -
جديرة بالحب
ويانعة بالحياة

حدّ تجديدي
آه يا أنثاي التي تحتل اللغة
وامرأتي التي تشبه الطبيعة
في زمجرتها ونحن على خط التواصل والتجلي
المسافة: صفر على شمال حضورك
وهذا السجن محاصر بحريتك
وإصراري على ممارسة حقي في الحب
والحياة: على هيئة هذه القصيدة

* * *

أكتب إليكِ
أحيا ـ مستمرًا ـ فيك
وفيك أتنفس المستقبل

* * *

التفكير فيك
استيقاظ الحواس
وكلما استيقظ هذا الجسد
فكرت فيك
يا حياتي الأكثر إيناعاً
بالمعنى الحقيقي للحياة ككل
أنيسي انتِ
في وحشة هذا الزيف
فكري
وحنيني لزمان آخر
ليس الجدار من مكوناته
بل القبل
والأفق المفتوح دومًا على الجديد
ليس السجن
ولكن الحرية

* * *

هل ترين
كم تتجسد فيك حريتي
وكم أنتِ قادرة على التعبير
عن أشواق - عبثًا - يحاولون وأدها
فتعالي
في جهدك اليومي أن تكوني علامة
للجمال وسط واقع قبيح
وتعالي بتمسكك بحقك في الحياة
وبكل ما يليق بزوجة منصور راجح
حرريني من هذا الخوف
بأن تكوني أنتِ
امرأة من أشواق معتقل
في عامه الحادي عشر،
ما يزال يحلم
ويفكر بمعنى كونه حاجة
ملحة لامرأة عنيدة
تريده جسداً يحتوي صبواتها
مثل ما هو روح
تأجج فيها نيران الجسد

* * *

التفكير فيك
استيقاظ الحواس
وكلما استيقظ هذا الجسد
يغادرني الاعتقال
والباب ينفتح
على أكثر مستويات الحرية
إيغالاً في طابع الحياة الحقيقي

ومعنى الوجود الضروري

وغير المتعسف للكائن

الذي هو أنا

كائن من زمهرير أشواق امراة

بعنفوانك

يا حبيبتي

حبك هزيمة السجن

حبك انتصار الحياة

للحقيقة وجهان

للحقيقة وجهان

أكثر من وجه

ما لا حصر له من الأشكال والصور

وللزيف وجه واحد قبيح

للزيف وجه واحد قبيح

للزيف وجه قاتلي

قصائد من ديوان "أوجاع الرَمَّاح"

حلول

لصنعاء
حضور في تموجات الروح
وفي نبض القلب إقامة دائمة
ميل للحلول في صوتي
مضمون رؤيتي من أشواقها
ومن أديمها جبل الجسد
فكيف لا أسميها أنا
بعض وعيها
فيها،
منها
مدد

خيار

وحيداً أيها الكأس
أتجرعك حتى القرار
كرحيل الأشياء في ذاتها
ترحل في جسدي المرارة
وكلحظة ارتشاف مذاقك
يلف الصمت الأصدقاء
واحداً واحداً
يطويهم الانسحاب
يغادر القاعة اللاعبون تباعاً
وتبقى أيها الكأس وحيداً
ويداي
نحوك تمتد
ببطء أولاً

ثم أرتشف ما فيك

حتى الانفجار

مواطن

في كل الأمكنة،

في الجزر النائية،

في أقصى المسافات

و"مغلوب" في صنعاء

وكأن لسان حاله:

ليغض الطرف عن الجراح برهة

والجبين الذي توهج

أكبر من أن تخبو جذوته

وما هو بالمكذب أهله

إن هي إلا أسرار

بطيات تجواله تختبئ

وهي سر هذا الاشتهاء الجامح

يطوي الكل حول غموضه المدهش

غموضه، هذا الذي قد من قمر

الكل يلهث لإدراك سر الفرح الكامن فيه

يتبع خطاه

وردة للرماح

أحبك فأخجل

لأني بحبك؛

أضبط نفسي متلبسة بحبك

وكأني أناني

ومحب لذاتي

وكأني أحبك فأخجل؛

لأني وأنت أنا

أو أنك سماء وروحي هواء

نجم؛
وقلبي فلك

هوية

يا قاتلي قف
عيني تأمل قبل أن تبدأ
أو تنتهي - لا فرق - في بدايتي
لعلك ترعوي
أيها المجبول من ندم
أديمك القد من فجيعة
يمتص كل ما في الكون من جفاف
قف قليلاً
لتقرأ طراوة الجسد الممرغ باضطرابك
وذاكرة العيون التي لا تختزن سوى حكايات القمر
وبراءة صاحبها مما يدعي أسياد صوتك
سوطك الذي أنت له رهين
رهنت نفسك للجريمة
وبعت نفسك لبؤس وضعك
مسكون باللعنة
تسكنك المهانة من حيث لا تدري
ومن حيث لا تقتل سوى روحك
هل جربت النظر في عيون أطفالك
وجربت أن تأكل إحداها
هل تحب زوجك
وهل لديك أم
إنك المقتول وحدك
والآخرين قاتلوك
لو تدري مقامك الصحيح في قاموس أسيادك
ولون فعلك في عيون أطفال الضحايا
ومعنى أن تقف

قليلا تقف

ودم الضحية يستحيل في وجهك مرايا

* * *

يا قاتلي خبأت في عيني هوية

وآخر رغبة لي نقرأها معاً

أنت قاتلي المأجور وأنا الضحية

لا ضير أن نقرأها معاً

اسمي بريء،

براءتي تزوجت الحقول

مذ أعلنت أبواق أسيادك:

وظيفة قاتل مأجور شاغرة

ودمي مطر

لا عمر لي

ولن أكون أول شاعر يذوي

كما لم يكن "...." آخر ضحية

بلادي حقول

ما برحت عطشى

فصيلة دمي ارتواء

لون العين قمرية

زوجني عناق آلام أبي

حب الأرض

من قبل أن أولد

في ليله صيفية

ويكتنز بصهيل كل الجياد صوتي

والصدى: أغاني الدودحية

لا ميزات أخرى أمتلك، لا وصية

فقط خبأت في عيني هوية

وآخر رغبة لي نقرأها معاً

أنت قاتلي المأجور

وأنا القضية
لا عمر لي، لا
ولن أكون أول فلاح
يعانق أرضه آخر لحظة
يرويها بالأحمر،
لن أكون أول عامل
إن أنا تواً شهدت
شهيداً للبراءة
جلدي خيام الراحلين
من بوابات "ذويمن القديم"
إلى جيتار "هارا"
وصوت نيرودا يصدح بالبشارة
نزعات "مروة" لن تموت
وألف "ذو يزن" جديد سيأتي لا محالة
جسدي جسر التواصل
بين من رحلوا
ومن يأتون لازالوا سيوفاً
قبل أن يمضوا بيارق
راياتنا تملأ الأفق
وأنت: محض قاتل
اشهر حقدك المجنون
ما شئت
قلب البراءة بالأنياب
انهش
ترتد إلى نحرك جنابي
آخر النظرات
قف قليلاً
كي ترى عيون قتلاك السابقين كلهم
وقد احتوتها عين واحدة

هي عيني

علك ترعوي

أو فانحنِ

انحنِ الآن كعادتك

على انكسارك انتصب

من حطامك انطلق

بريئاً كالقمر

عاشق بدمي

أرسم وجهاً للأرض

جديداً،

جراحي تحيلها الأيام

أوراقاً تناضل

خبئ ملامح وجهك الآن

قفاز يديك أحكم حول المعصمين

رباطه

ووجه الأرض خضب

وجه الأرض في بلدي مازال قاحلاً

دماء السابقين بوجه الشعب

تنبئني بأن دمي خضاب

وأنت محض قاتل

السجن المركزي في تعز
15 نيسان عام 1987م

لحظة حرية

عاد

صوت الموت والميلاد

في ربوعك من جديد

ضربات طلق تذهب عميقاً

في أديمك... والتاريخ يصرخ

تهيئي يا بنت عاد

ثمة وجه آخر جديد
وجه آخر للحياة جديد
اعتمالات الخلق أخرى
تهز الآن كيانك
لتستمري بلادنا
اسماً لنا
عنوان سهراتنا في ليالي "الخير"
أول ما يتهجاه الأطفال في قرانا
هويتنا
لتستمري هويتنا
ضمينا
شدي أزرنا في ساعة الطلق هذه
ساحة الرقص على جمالك
هذا أوان حنائك

بُكاء متأخر

في مثل هذا الشهر:
جددت فيك عافيتي،
وأحاول الآن:
تجديد عافيتك
في ما تبقى من غنائي
في مثل هذا الشهر:
إنعتقت،
وأعيد تكبيلي
لامست فيك تحرري
والآن أغرق في الحنين

2

يأسرني بعادك
يؤجج انشغالي

هذا الجسد لم يعد يقوى

على احتمال حاجتي للقاء

يعيدني للنبع:

عيناك،

وجسدك يحفزني

لتأجيج حاجته لناري

يؤلمني انتظار

مفتوح آخره على احتمال

أن لا نكون

وكأنني مخلوق لهذا الاحتمال

يعيثني

وكأنني فيك أحيا سؤالاً

لتكوني إجابته

تعالي

3

أحن للبسمة

بتلقائية ترتسم

على المحيا القد من براءة

لعفوية التصرفات

شطحات الطفولة

لك

كما عرفتك،

وكما عشقتك

وقت كان الحب:

اكتشافاً للذات

في مرآة العلاقة

كالدمع كنا أنقياء

وصادقين:

كالإنسان ما تشوه بعد

بسكين الحاجات التي بلا معنى
سوى أنها تضغط على الأعصاب
كالدكاك

4

أحن للمنبع
يطهرني من أوساخ هذا القهر
حياتنا معه بلا سبب تبدو
إلاه
لعينيك:
تتسعان لاحتوائي
ويداك تطوقاني
أول كل مرة كنت أغطس في مياهك
عنادك
ثقتك
أحن لك

همسة

من بين كل النساء
أغمدت فيك تكويني
لأصيرك
تصيريني
بسملة انبعاثي فيك
أو منك
منيعاً في عالم من تعب

امرأة

أقبلها ـ كنت ـ
فتغفو على ساعدي
وفي داخلي تستفيق
مناخاً من الخصب والعافية

نضجاً لأزهار قلبي
تنث هواها في مياهي
سكينتها غافية فوق زندي
إرادة صمود؛
حرية

* * *

في كل أمسية
وكان العناق يطيب
والحديث يقلّ
مفسحاً للقبل
أقبلها - كنت -
مثلما قلت لكم
فتغفو على موقدي
لتنضج حيث التقيت بها
- وكانوا قد اعتقلوني -
امرأة من ضرامي
هزمت بها أمسيات العذاب
وقت كان المحقق يلطم
والعساكر تطعن أوجاعها
في دمي
أخاديد جمر
يؤججها آخرون
وما كان لي من سلاح سواها
كنت في حلقات العذاب
أنتضيها تحدياً
وفي الجلسات أحس بها
واقفة بين السقوط وبيني
أذكر:
كيف كانت تقبل فاهي

فيبرأ جرحي

أغفو على خدها

مستيقظاً فجر يوم جديد

على احتمال ما يعملونه

أقدر

*   *   *

أقبلها - كنت -

وحين اعتقلت

شوقاً - تجاوزت سجني -

إليها

إلى قبلة واعدتني بها

في اللحظات الأخيرة

وكانوا محيطين بحريتي "بي"

وأنتم تهيمون في سؤال امرأة

كيف احتوت كل ذاك الجمال

وتاريخ شعب ينوء بحمل الجبال

في كلمها

ألخصه لكم بمفردة واحدة

"أفراح"

لا تسألوها عن اسمي

عن لون شعري وكيف أبيت الليالي

معها

في خيمة واحدة

بل تعالوا انظروا

كيف تمشي

وكيف تحنو على قامتي

كيف تزهو بكوني أسيراً

يحاصر سجانه

بحلم يلغي المسافة

بين خطاها وحريتي
ولحظة أثب
أعانق فيها زماناً جديداً
يتشكل من مسيرتها الظافرة
وانظروا:
قامة من إباء
خطوة من ثقة
بسمة من ورود
وانظروا امرأة
من أديم اشتياقي
وأريج الصمود
لون حلمي على خدها
في طريقة تعبيرها عن هواها
شكل أمي
وفيما تجد
ألاقي أبي في لون عينيها
صرامة

* * *

آيتي في البلاد
دقتي في جدار الركود
كلمتي في مناخ السكوت
نشوتي في زمان الهموم
خطوتي وأنتم وقوف
سورتي
بسمتي
صيحتي
يا أيهاذا الخفوت

* * *

مضمون حريتي
شكل احتفالي بأعياد
شعب اليمن
شبابي أذبته فيها
باب اكتهالي
وعنوان شيخوخة هادئة
بكلمة:
تكامل شخصي
طريق إعادة خلقي
نشوة صيرورتي والداً
مشروع أب
باعد ما بيننا:
سجن تخطيته في خطاها
تعالوا انظروا:
كيف تمشي:
وبي من خطاها أثر
كيف تكدح
وفي التعب
كيف أرتاح من كل هذا العذاب
لأني هواها
حتى في ليالي السهاد
"أفراح"
استوائي بشراً
ضد هذا القدر
وما زيفوه
وما...

عروس

تلبسني عراء
وفي الشفتين ترحل:

ابتسامات خجولة

قبلاً تخبئ في حزن صاحبها

لعروسه فستاناً من ضوء القمر

وحنين فلاحة

تزرعني أملاً

وتحصدني حقيقة

كالشوك تحصدني حقيقة

أو كرغيف خبز

إذا حلمت بي مطراً

جنون

لم تعد صديقة فحسب

لم تعد حبيبة فحسب

ولم تعد مجرد امرأة

بل زماناً

يطارح المكان شيئاً ما

فيغدو هذا الأخير سحراً

وأنا المسحور

من هنا ستمتد يدان

ما أجمل يدين

تمتدان من جدار

إلى وجه معتقل

ومن هناك ثمّة وجه ربما أطل

ربما نهدان من السقف يهطلان

وربما وقع قدمين ما أسمع

لجسد يتكاثف من أنحاء هذا السجن

في حضني سيتجمع

أهب واقفاً

ألثم

ألثم

أقبل في هذا الفراغ وحدتي
عزلتي
غربتي
أعانق الجنون
لم تعد صديقة فحسب
لم تعد حبيبة فحسب
ولم تعد مجرد امرأة
بل سماء ترتجف
من فرط لهفتها لبرق مختلف
يضيء زنزانة
يبدد ليل معتقل
أوشك أن يسمي الصمت زماناً
والفراغ مكاناً
والجنان رقصاً

مغني في ستافانجر

إلى آفاق بعيدة
يأخذك صوت المغني
إلى طفولتك
أو إلى وقت ما سيأتي
بعد أن تموت
يحررك من أسر اللحظة
من خشونة الراهن
إلى البعيد يطوح بك
إلى آفاق غير مرتادة

صوت المغني

يملأ فراغ المكان
يفعم الروح بالحركة
ويعطي لكل ما حولك معنى

صوت المغني
يا صوت الحقيقة الإنساني
إني أذوب في اتساع مداك
أموت في شجاك

البئر

هذا العمر هو البئر
هذا المنفى
الوطن
المقبرة
الجحيم
الآخرون هم البئر
العلائق بئر
الذات
الرحم
الأرض
البحر
والسماء أيضاً

من على طائرة

أرض من القطن تمتد تحتنا
على أي وجه يكون الرحيل
أضقت بنا؟
أم أننا أكبر من أن تتسعي
لنا
يا بلادي ما أصعب الرحيل
أتتسع أخرى لنا؟
وتغلق أبوابك دوننا
أغراباً نصبح
أقل من ضيوف

نحنّ إليك فنضحك

نفكّر فيك فنبكي

حلمًا نمشي إليك

فتهزمنا المسافة

على الأرض تهزمنا المسافة

فنرتد كسيرين

نلعق جراحك فينا

جراحنا فيك

لماذا؟

على أي وجه

وكيف

وفيك من الوقت

ما يكفي لكون من الشعر

وما لا ينتهي من زمان المحبين

وأرض تكفي ليلعب فيها

أطفال كل الحياة

فعلامَ يا بلادي يكون الرحيل

ايجنس(*)

هنا الأشجار تخايل نفسها في الصمت

والقلب يأكله الحنين

لا حياة في المنفى

لا صدى للصوت

والشعر يهرب من يديك إلى دفء اليمن

حباً تحاصره الأسئلة

ومخنوق هو الآتي بالصقيع

صباح آخر يا صمت المدينة مرّ

ألم يزاحم نفسه في القلب

والعقل تأكله المرحلة

"الريح في المنفى لا تودي ولا تجيب"

مجرد مدينة

شيء ما ينقص هذه المدينة
لون ما غائب عن لوحة حياتها اليومية
صوت ما من جوقتها نشاز

* * *

بعيدة عن العالم بدون مبرر
وقريبة من نفسها كالمحتضر

* * *

سماء
نجوم لا ترى عند الظهيرة
شمس تشرق أحياناً وتغرب دائماً
حمام. عصافير. أشجار
بيوت خشبية وأخرى من الأسمنت
شوارع وأزقة
بنايات
أناس يتحركون هنا وهناك
مركبات
بضع بحيرات
نهر
بحر يحيط بها من بعض الجهات
وهذا كل ما في الأمر

السماء الأخرى

سماء من الإسفلت ذاكرتك
وأرضك محض جسد
والوقت قصيدة تدنو
الوقت قصيدة تذوي
الوقت قصيدة تموت

والوقت مبكى
للشعر والأحلام
هذا هو المنفى
أضيق من مضيقك
وطن جريح يئن داخلك
سماء من الإسفلت ذاكرتك
وأرضك محض جسد

نقش على جدار القرن العشرين

أشهد
أن كل ما هو طاف على وجه الحياة
الزبد
وأن ما يدعى سماء
ليست بأكثر من غبار الحروب
الهواء أنفاس الضحايا
الماء دماؤهم
والأرض جثة
أشهد أن الله مجهض فينا
أشهد أن العقل قاتل

على وزن ما يُغنى

العالم أجمل مما نتصور
العالم نهر
والأرجاء عصافير تغني
وشجيرات خضر
فحيح الأوراق:
أغنية رائعة
الأحلام اللامحدودة
الحب
الصباح

تعاقب الفصول

الأرض تدور

في أفق لا متناه تدور

حول الشمس

في الشمس تدور

إنه العالم أجمل مما نحب أن يكون

وأشهى

أشهى مما نحتمل

كتابات نثرية

داخل السجن خارج الجسد

منصور راجح

عندما جاؤوك كان كل همك قد اختزل إلى ثمة مكان، و"لحظة أمان"، قلت في حينها "رقص وغني لك تمام، يا راعية، في عيد ميلادك، مخاضك الجديد. هذا مخاض ثانٍ".

عندما جاؤوك كان كل أملك قد اختزل إلى ثمة مكان، و"لحظة صداقة"، قلت في حينها "أريد أن أجلس...هنا: مع ناس أثق بهم، ويبادلوني نفس الثقة، أطراف الحب نتجاذب، والصراحة، نخوض في أشواق توحدنا، هموم تقلينا معاً، في الوطن"

وسرعان ما تكونت لديك صورة وردية عن ثمة مكان، بعيد تأوي إليه بحلمك، غني بما يعني ثمة استقلالية تنأى به عن أي ارتهان لقوى الظلام التي تتربص بك، جميل وفيه ناس وديعون لطفاء، ثمة إنسانية يقال عنها الكثير، نسيج نظام يختلف عن أي نظام.

لقد كنت متعباً - عندما جاؤوك - وما كان يمكنك أن تتخيل ذلك المكان إلا أنه بعيد، جميل بطبيعته وناسه الودعاء اللطيفين، قلت لنفسك: هي ذي محطة مهمة لتجديد الطاقة وقد تكون قاعدة جيدة لبناء حياة جديدة والاتصال بالعالم انطلاقاً من مكان بعيد، هادئ، جميل بناس طيبين، وكأن لمكان كهذا ثمة وجود خارج الحلم.

عندما احتفلوا بوصولك قال كبيرهم: انتظرناك طويلاً، ولم يكن بمقدورك أن تفهم - حينها - لماذا انتظروك، كان لابد أن يمر وقت قبل أن تعرف، على أنك سرعان ما تذكرت لحظة جاؤوا ليعتقلوك أول مرة قبل سنين طويلة ولم يكن قد مضى على زفافك أكثر من يوم، تثاقلت في الخروج إليهم، خافوا، انتشروا، وقبل أن يتموا انتشارهم فاجأتهم بالخروج مبتسماً وأنت تتمتم "اعتقدت بأنكم رفاق"...قف مكانك... ارفع يديك... تفتيش سريع وقد أصبحت محاطاً بهم... وغليظ، ثم إلى السيارة التي ستقلكم إلى هناك، إلى حيث كان يجلس خلف الطاولة في المكتب الفخم، حدجك بنظرة يبدو بأنه امتهنها، وربما أنه تدرب على أدائها قبل أن يصلوا بك إلى أمامه ليحدجك بها قبل أن يقول: انتظرناك طويلاً، ثم وبلهجة المنتصر وعيناه ما تزالان مصوبتان عليك: كنا متأكدين بأنك "يا طير لا بد واقع في الشبك" ولم ينتظروا أكثر، ربطوا عينيك بعصابة وقيدوك بمرود حديدي لتبدأ أولى جلسات التعذيب، لا تحب أن تتذكرها لولا أنها تلحّ على ذاكرتك بأكثر مما يلح على خاطرك سؤال اللحظة الراهنة مقطوعاً بسؤال يلج الآن دولاب تفكيرك حول معنى انتظارهم وما العلاقة بين الانتظارين! ثمة وقت ضروري أن يمر قبل أن تعرف، تقول لنفسك وتواصل السير. الحلم. الشعر والشارع أمامك فارغ، لا أحد، الطقس بارد.

لا أحد. في المساء ترجو الصباح.... وفي الصباح تحث الخطى عائداً إلى تحت الغطاء الثقيل

* * *

يبدأ المنفى بالحساب، بالأحرى، يبدأ بالسؤال، ما الذي عليك أن تعمل؟ بل ما الذي ينبغي عليك أن تعمل؟ تستحم، تأكل ما تيسر، على عجل ترتدي ملابسك وتخرج...، يقابلك الشارع بفراغه، الطقس ببرودته، ثمة أشجار، ثمة من يمشي بتؤدة أو على عجل، ثمة سيارات تمشي مسرعة، تتذكر كيف كان صوت السيارات المارة في الجوار يفجر فيك بركان حنين، هناك حيث كنت في

الزنزانة الرطبة الموحشة، كان صوت السيارات هو الصوت الوحيد الذي يذكرك بأن الحياة تجري بدونك، أنت الذي استيقظت للتو من نوم عميق - لا تدري ربما غيبوبة - بعد ليل طويل من التعذيب والتحقيق الذي كان في كل ليلة لا ينتهي بشيء سوى أن جولة جديدة لابد أن تبدأ في المساء القادم، هي ذي السيارات في الخارج تجري والناس أيضاً، وأنت، تنتبه على من ينظر إليك باستغراب وأنت تحث الخطى في الشارع الطويل، النظيف، المرتب، والمقفر، تقف.. تتذكر بأن عليك أن تمشي على مهل، بطريقة مهيبة، خليقة بمنفيّ يبدأ يومه بالسؤال، السؤال المضني: إلى أين؟ وما الذي ينبغي عليك أن تعمله...أو لا تعمله؟ تتحسس جيوبك وكأنك تتحسس جراحاً غائرة فيك، وتتذكر بأن الممكن محسوب بدقة لإبقائك على قيد الحياة، تواصل حساب البارحة: كم المنصرف وكم تبقى، كم عليك أن تقطع هذا الشارع في كل شهر، وكم عليك أن تنتظر حتى تتمكن من صورة ذهنية أو واقعية تصلح مطلعاً لقصيدة أو خامة لقصة أو مقالة يمكنك كتابتها! تواصل الحساب والسؤال والمشي والتذكر والتوقع ومراقبة ذاتك في عيون الآخرين وفي ميزان ما ينبغي "لملعون" مثلك أن يعمله أو لا يعمله، تتذكر كيف كنت حراً في أكثر الزنازين رطوبة ووحشة، وكيف أنك توشك أن تضيع هذه الحرية وقد أصبحت مالكها كما يقال، وأسيرها كما تقول لنفسك في أحيان كثيرة، هل هناك بالفعل حرية؟! تتساءل في نفسك وأنت تمر أمام "الدائرة..."، أو أنت تبحث في جيوبك عن ثمة ما يكفي لمحتاجات الأسبوع القادم، أو الذي سيأتي بعده، تواصل الحساب، تواصل السؤال، تواصل السير في شارع (عفاد) الطويل، الشارع الذي يوغل فيك كالخنجر

* * *

تسير كأنك لست الذي يسير، داخلك مشانق، عسس تجوب، جلسات تحقيق وتعذيب تأسست داخلك وكأنها باتت جوهر بنيتك، خوف.. خوف، خوف من الآتي لا تعرف كنهه، خوف من الماضي وقد تحول داخلك إلى أشباح لكل منها لغة، تتمدد داخلك كوناً من لغة، صوت الجلاد ما زال يرنّ في أعماقك، ينافس مداعبة أمك للطفل الذي كنته قبل أن تتخطفك المدينة بسطحها الغريب عن هويتك، غريب عن شجيرات روحك، مخيف، مرعبٌ كغول تاه في كل براري الأرض بحثاً عن ما ومن يتقمصه قبل أن يحط الرحال فيك، جوعاً إلى ما لن تجد.. ما تقتاته لأجله حتى ولو فضلة، عطشاً إلى ما لن تجد.. ما يبلل جفاف روحك منه حتى لو شتيمة قذرة.

تسير وكأنك لست من يسير، داخلك زيود وشوافع، رجال وحريم، سادة وسفلة، وصراع غوغاء يحتدم أحياناً حتى لا تكاد تسمع شيئاً من فرط ضوضائه، ويخفت أحياناً أخرى حتى حدود التلاشي فلا تعود تسمع سوى شخير القائد الأعلى للقوات المسلحة..

تسير وكأنك لست أنت من يسير بل داويه وهدار، ما عساك تعمل بكل هذا الصراخ/داخلك؟ إلى أين تتجه؟ من أين تنطلق؟ بل إلى أين ينطلق بك كل هذا الصراخ: عربات، باعة متجولون، سماسرة، قضاة، جلادون، مخبرون، حزبيون، سواح، مشردون، إلى أين تسير أو يسير بك كل هذا؟ تلفونات، لقاءات، مقابلات، تلفزيونات، حروب، حملات صليبية، جهاد في سبيل الله، في سبيلك، ضدك، من دون أن تدري، وتدري، أوراق نقد في الجيوب وكأنها من جلود لأناس تعرفهم، تجلهم أو تمقتهم، أناس تحبهم حتى البكاء على هذه الحالة التي باعدت بينكم، قاربت بين ما لا يقترب من بعضه ويداهمك بعنف يثير في داخلك الإحساس بالحاجة إلى الصمت، تلحّ وكأنها تريد منك التحول إلى حجر.

تقف فتتورم، كيف حدث ذلك؟ تكتشف أن عمليات التمثيل الغذائي والفكري مع وقوفك صارت في ذاتها/ذاتك، تتبادل ذاتك والمواد؛ تقف فتصير طفيلياً، رخواً، رخاوة تدفعك إلى حيث تصبح هلاماً وبحاجة إلى من يحملك، لا ينبغي لشيء أن يوقفك - هكذا تقول لنفسك أو في نفسك - ومع ذلك فكل شيء يحملك، يتقاذفك، تصير ريشة في مهب الريح، وكأنك محتاج إلى ما يوقفك، تقف، تسير، تسلم

نفسك للمجرى أم تطير ـ هكذا تتساءل في نفسك ـ، ومع ذلك فكل موقف خطير.. تسير، وكأنك لست من يسير، داخلك جنون، منصور يتعارك مع طابور من السفلة، لكأنك بهم سيجهزون عليه بعد قليل.

* * *

انتظار.. والعمل من أجل الخلاص هوذا يصبح ديدبان حياتك، بدون ما تعرف لهكذا خلاص ماهية أو من ماذا وكيف،

ـ مشكلة!

تتساءل: أثمة خلاص؟... ومما؟... ولا تكف عن التساؤل، أسئلة تصطدم وأنت تبحث عن إجابات لها بجدار صلب، شاهق، طويل، عريض، هو جدار منطنك المر يتحجر لناظريك وكأنه فيك يتأبد! وكأن العمل من أجل الخلاص هو الخلاص ذاته: تقول لنفسك وتواصل المشي في المتاهة/ السجن، المتاهة/المنطن، المتاهة/الحرية، المتاهة/الخلاص غير الممكن إلا في ما تأتيه وتعمله في سبيله بدون وصول، بدون نتيجة، أو ربما نتيجة غير مقدر لك إدراكها، نتيجة برسم شخص آخر من جيل آخر يحققها على شكل اكتشاف لها فيما أتيته أنت وعملته بدون طائل، حالك الآن.

وكأن عليك فقط أن تعمل من أجل خلاص يخلصك من إدمان انتظار.. والعمل من أجل خلاص أصبح ديدبان حياتك ومحور فاعليتك اليومية من أول ما تستيقظ على السؤال/الحساب إلى أن تنام على أمل أن تستيقظ صباح يوم آخر لتواصل المشوار، مشوار الخلاص الذي أنت محتاج لمن يخلصك من إلحاحه اليومي، الإلحاح العمى، الإلحاح/الوجع، الإلحاح الذي يحيلك لقمة في فم طاهش الموطن الذي لا يرحم.

"عبده سعيد" بائع القات في سجن تعز أكثر حرية منك، لأنه ما تساءل في أي يوم عن الحرية، أو معنى الخلاص، ولأنه ـ وهذا هو المهم ـ ما افتقدهما، هو ما يزال يعيش في الحالة الطبيعية، أما أنت فعليك أن تجيب على الأسئلة، وتعمل حساباً لكل شيء من الطريقة التي تمشي بها، تأكل وتتكلم، إلى ما تفكر الآن به وأنت وحدك، بله هذا الذي تكتبه فأياً كان موضوعه، أسلوب كتابته، أنت متهم به والبقية أنت تعرفها، وتعرف أنك ما خرجت من سجنك وهذا الخلاص الذي تفكر به أو فيه.

هوذا السجن يتحول إلى حالة تأكلك من أول ما تفتح عينيك في الصباح متسائلاً، إلى أن تغمضهما لتنام على أمل أن تستيقظ صباح اليوم التالي في حالة أحسن.

ما الفرق بين السجن والمنفى؟

ما الفرق بين المنفى والعبودية؟

ما الفرق بين العبودية والحرية حينما تتجرد متحولة إلى فكرة تدمن تقليبها في سياقات وعي متعب؟

هو الخلاص غير الممكن إلا في ما تأتيه وتعمله بدون ما تعرف له ماهية أو من ماذا وكيف ـ الخلاص/اللعنة

(مقطع من رسالة إلى الزوجة)

المهم في حياتنا هو الاستمرار على الأسس التي انبنت عليها شخصياتنا "بدون جمود" والتمسك بقيمنا ومثل حياتنا وهي كفيلة بمنحنا قدرة الدفاع عنها وقدرة إنتاج ممكنات سعيدة منها؛ المهم هو الاستمرار في إثبات وجودنا، وفي التحدي لكل ما يحاولون تزييفه وإخراجه لنا باعتباره حياة هي في الحقيقة هراء؛ ذلك لأن الحياة الحقيقية هي حياتنا وإلا فليقدموا لنا أبسط دليل يثبت مصداقية حياتهم

الفارغة.

إنها حياتنا: الوفاء وجه الحب، والحب معنى الحياة و"جوهرها الأصيل"، والحياة تحدي عوامل الفناء الذي يجد نفسه أكثر ما يجد في مستنقع القيم الممقوتة التي لا تفرق بين حفلات الهروب من مسؤولية الحياة ومهرجانات الفرح الإنساني الخالد المتولد من كدح الإنسان الدائم في سبيل إثبات وجوده.

إنها قبل وبعد وفوق كل ذلك حياتنا ولا نستطيع إلا أن نحياها بكل ما فيها قدراً أو اختياراً.

وأنا لا أجد نفسي مبالغاً إذا ما خيرت فيما يجب أن أحياه واخترت من الحياة الجانب الذي يعلمني معنى الصدق من زيف الادعاءات المشبوهة، عبق الحقيقة من عفونة الكذب على ألسن أصحاب الكروش المتورمة بالرذائل، على ما في هذا الخيار من مشقة لا تخفى على أحد؛ ذلك لأن المهم في الخيار - أياً كان - هو أن يأتي ملبًّيا لحاجاتي كإنسان يجب أن يكدح ليجسد في ذلك المعنى الحقيقي من وجوده، وعلى ما في هذا الكدح من مشقة إلا أنه وحده الذي يستطيع الكائن البشري أن يعانق فيه ميلاده المتجدد والمعنى الحقيقي من حياته، هذا المعنى الذي إن ضاع أو ضله إنسان فقد حلاوة العيش بما يحيل حياته إلى جحيم لا يطاق.

وإني لا أجد مثل هكذا جحيم إلا فيما أسمعه باعتباره حياة بينما هو في جوهره دعوة صريحة للهروب من مسؤوليات هي من صميم ما أعتبره معنى حياتي والذي يأتي في مقدمته أن أبذل ما أستطيعه لكشف الحقيقة أمام كل الناس لأغدو كما أريد لنفسي ولمن أحب شاهدًا عدلاً على عصري كاستمرار خلاق لمن سبقني في هذا المضمار وأضحى شاهداً على لحظته التاريخية.

أعرف أية مشقة تعانينها وأية صعوبة تجدينها في حياتك معرفتي بصعوبة أية بداية ومشقات اقتحامها ولكن أعرف أيضاً بأنك طينة جبلت من دم منصور قبل أن تغدو عجينة نقشتها أصابعه وهذا يكفي وقاية لي مما قد يعتريني من هواجس أو هموم. أي نعم يكفي أنني أثق فيك ثقتي بكوني أنا لذلك لن أجد نفسي مضطرًا لكتابة أي شيء من قبيل التعليمات أنا الذي أصبحت أحس بأنني محتاج لك لتعلميني ما لا أفهمه وتفهمينه من خلال ما تجترحينه من مأثرة سيكون لها صفة الخلود في حياتنا القادمة، سنعلمها لأولادنا لينقلوها إلى أبنائهم فنضمن استمرار مقومات التحدي الإنساني الأزلي لعوامل الفناء.. هذا التحدي الذي أراه من منظوري سر التجدد الإنساني الدائم وينبوع كل ما هو عظيم ورائع.

والمهم قبل كل شيء أن لا نسمح بفقدان تماسكنا الداخلي؛ هذا التماسك الذي ينبع من إيماننا بصحة ما نفعل وقناعتنا بأنه يؤدي إلى الخلاص النهائي مما نعاني، بوصفه خلاصاً عاماً "إن لم يكن اليوم فغداً"؛ إنه التماسك الذي يجد نفسه بتمسكنا بقيمنا وإيماننا بأنها جوهر ما يقيمنا على أقدامنا والأساس الذي ننطلق منه نحو أهداف نكون قد رسمناها لأنفسنا على ضوء ما نؤمن به.

(25/6/1985م).

سجن الشبكة/تعز

حالة

حين عرفته كان واحداً من القلة ممن يستطيعون إشاعة البهجة في أشد الظروف قتامة، كنت أحس أحيانًا أنه قد صار طاقة جبارة لا يجد لها طريقاً فتعود نحوه على شكل انفعالات رهيبة تكاد أن تحطم بنيانه، وأحياناً أخرى كنت أحس به مسكوناً حتى نخاعه بالحاجة للحب والرعاية.

كان في كل الظروف هو.. هو الذي يتهلل بما يصدر عنه - حتى من مشاغبات - تحس حياله بأنك

قد أصبحت كعرش خاو يكاد أن ينهار استجابة لرغبة جامحة للإطباق عليه من كل جانب، لاحتوائه وإطلاقه طفلاً جديداً مرة أخرى.

كان يقول دائماً:

"حياتنا وإن بدت صعبة إلا أننا مع تلك الصعوبة نمتلئ بكل ما يجعل للبهجة مكاناً ما في نفوسنا، فقط علينا أن نبحث عن هذه الأمكنة وتلك التفاصيل التي تحيلها مساحة فرح"

لكن أي فرح يمكن أن يكتمل له، ثمة السجن في انتظاره

* * *

تتشابه الأيام وهي تمر أمام الوجدان الموجوع على نحو يعمّق يوماً فيوماً الإحساس بالبؤس، هذا الذي يغدو شيئاً فشيئاً خنجراً ذا حدين يسرح ويمرح كيفما اتفق في الذاكرة التي ما أن يمضي عام أو عامان وربما أقل حتى تغدو كخرقة بالية أتى عليها التمزق فأحالها خيوطاً لا ترتبط ببعضها إلا في الحلم.

وعندما يجيء الليل تجيء الهموم... ومن كل حدب وصوب تغزو الهواجس ذاكرته المتعبة...

عندما يجيء الليل يكتسي السجن ثياب الخطيئة ويغدو بنظر مظلوم مساحة وجع في جسد الوطن.

يزحف السواد بطيئاً، يثير القرف والاشمئزاز، ترتديه الجبال المحيطة لتغدو شيئاً فشيئاً كتلاً من السواد قبل تحولها إلى أشياء لا ترى في طوق الظلمة التي تستدير حول المكان المشتعل بقناديل الإضاءة الليلية وآهات الموجوعين استدارة الخاتم على الإصبع.

ومن حين يطبق الظلام حتى يريح التلفزيون أعصاب المساجين تمر فترة من أشد فترات القلق لدى السجين الذي يخلد بعدها لذاته فقط في المكان المخصص لحلمه تمهيداً لاستقبال صباح يوم آخر، يعبر من خلاله نزلاء السجن إلى كوابيس وأحلام ليل آخر من هذا المدد الظلامي الذي يغزو النفس ليمارس فعل الجراد حين تحط رحالها في حقل مثمر.

* * *

بدأ يتذمر، وبدأ يذوي وينزوي، واكتساه الاغتراب حتى عن ذاته.

* * *

يبدو له الآن أن تخطي عتبة هذا المكان أبعد ما تكون حتى عن حلمه... فهاهو قد أصبح منذ فترة ليست قصيرة غير قادر حتى على التفكير بعوالم أخرى بعد أن نزع إيمانه بوجود حقيقي لعالم حقيقي وهو الذي هدّه الرحيل نحو شيء أسمى بلا جدوى، بل إنه كثيراً ما كان يصطدم بما يكرس حالة الإحباط التي وصل إليها ومعها أصبح يفتش عن وسيلة تقنعه بعدم جدوى التفكير بما هو أبعد من هذا المكان، وما يستدعيه ذلك من ترتيب الحال على الإقامة الدائمة هنا:

- بل قل شبه الدائمة

يجيب بمرارة: بل الدائمة فأنا لم أعد أقوى على الحلم بما هو أبعد من التمدد في هذا المكان، مشيراً إلى بقايا ألحفته. ينفث دخان سيجارته إلى الأعلى قبل أن يطفئها بعصبية ويتمدد بطوله ووجهه ناحية الجدار ولسان حاله يقول: "هناك أشياء كثيرة يمكن قراءتها على الحائط".

- هل هي أهم من القراءة في وجوه الناس التي أدمنتها فترة ليست قصيرة في هذا المكان؟

يتمتم: "نعم هي أهم بكثير، يكفي أنني أقرأ فيها أعماقي، وأحياناً أخرى ألعن من قال: لا شيء مستحيل.

وعندما كنا نحاول إقناعه بعدم وجود علاقة بين تلك العبارة وعناق عينيه للحائط، كنا فقط نكتشف أننا نحاول عدم إقناع أنفسنا بأنه لم يعد هذا الذي أمامنا هو، كان صوته يأتي من بعيد ليشعرنا أكثر أنه مستمر في الذهاب إلى هذا البعيد المجهول....

* * *

لم يعد أحد يذكره الآن - عدا القلة - كما أنه لم يعد يهتم بشيء ولا بأحد، حتى نفسه، بعد أن حكم على نفسه بالانزواء في مكان لا يبرحه. سكت ولم يعد يتكلم إلا نادراً وللضرورة، وقبل أن تموت في حياته تلك الضرورات التي تدعوه أحياناً إلى الكلام لفترة وجيزة، لاحظت ألماً طاغياً على محياه، ولم يتجاهل سؤالي عن سر كل هذا العذاب، قال:

- "أصبحت لي عادات جديدة، أتخيل نفسي أحياناً بفم واسع جداً وبأنني قادر على التهام العالم، وإن لم يكن فعلى الأقل المحيط الذي يحتويني، أجد نفسي مدفوعاً برغبة تصل أحياناً الحد الذي أجد نفسي معه قد فتحت فمي على اتساعه واثباً بكل قوة وكأنني سأجد ما حولي قد غدا داخلي، وعندما أجد نفسي وسط الغرفة وفمي مفتوحاً إلى حدود الألم أنتبه على إحساس بالحياء يكاد يحطمني فلا أملك غير الابتسام وقليلاً من الخجل، أذهب إلى الباب، أفتحه لعل أحدهم يتلصص علي من خلفه وأتأكد من إغلاق النوافذ ثم أعود إلى مكاني مجهداً وعضلات وجهي تكاد تبكيني بما تحدثه في وجهي من ألم، فهل أصبح مفهوماً سرّ ألمي؟!

حاولت التحدث إليه أكثر لكنه كان قد ذهب، دفن وجهه في المخدة.. ويبدو أنها عادة جديدة من عاداته، كأنه يحاول التهامها.

كان يتمتم بلغة تختزن كل ما على وجه الأرض من شعور بالمهانة:

"مستحيل أن العالم أكبر وأقوى من أن يلتهم".

1985م

سجن الشبكة/تعز

كتابات عن منصور راجح

الخروج من الجسد

حمزة الحسن

حين هبطت الطائرة في مساء شتوي بارد مطار ستافنكرد جنوب النرويج فكرت مع نفسي "كيف سأتعرف على منصور راجح؟" في قاعة الاستقبال ولم نكن قد التقينا من قبل. هذا السؤال لم يعد له معنى بعد لحظات، إذا كان ثمة معنى، فحين هبطت السلالم وتأملت وجوه الناس كان هناك رجل ضائع في الزحام يحدق إلى أعلى السلم فلوحت له بيدي بعفوية "إنه هو بدون أدنى شك!".

كانٍ وسط الحشد كصقر في فخ. كان يريد أن تنتهي هذه اللحظات كي يتوارى أو يعود إلى المنزل مسرعاً. اكتشفت من بعد أنه يحب الأمكنة التي يألفها، ربما بناء على قدرة السجين السابق منصور (منصور على من؟ أسأله دائماً ونحن نشرب في حانة مطلة على بحيرة البط في ستافنكرد) في بناء علاقة مع الأمكنة، فهذا السجين الطويل العمر، الطويل الأمل، الطويل الصبر، التعزّي - من تعزّ - الطويل الساقين، يهرول حين يمشي الهوينى.

شكوت لأفراح - زوجته - من عادته التي أنهكتني وشكت بدورها منه. تلحق يا منصور - أقول له ونحن نركض ضاحكين كجرحين في شوارع يكسوها البياض أو الريح أو الصمت.

عنده شرفة تطل على بحيرة خلابة. سألته مرة عن اسم البحيرة.. رد علي ذاهلاً: "أية بحيرة؟!". عرفت أنه ليس هنا. كررت عليه السؤال في ربيع آخر رد: "أنت تسأل أسئلة غريبة!". شرفتك، يا منصور، ربما تكون مسرحاً لأحداث قادمة يجب أن أعرف اسمها في الأقل. يردّ وهو ينفث سيكارته "ستعرف، تعال ندخل.. برَد الجو". أقول له ونحن في الحافلة أو في الشارع أو في الصالة: لا أعتقد أننا نغادر سجوننا حين نغادرها؟!

بعد عدة أشهر بدأت أقرأ فصولاً من رواية منصور "داخل السجن، خارج الجسد". قلت مع نفسي: "اللعنة على راعي الغنم!" وحده منصور يعرف جنرال الغنم الذي وضعه، بعد 3 أيام عرس، في زنزانة، لكنه لم يعرف (هل عرف الآن) أن الزنزانة تأخذ شكل الشاعر وليس العكس، وأن الشعراء العشاق خاصة من حجم منصور يتحولون في سجونهم إلى فراشات ناحلة أو ضباب كي يغادروا قضبان السجن. كان وزنه 45 كيلو غراماً حين خرج من السجن مباشرة إلى النرويج، لكن وزنه الحقيقي بحجم جبال اليمن. كان يمكن وضعه في حقيبة والهرب به إلى نهايات العالم.

في أعماق الليل حين تنام أفراح- "كيف تنام امرأة حرمت هي الأخرى من مباهج الحياة كل تلك السنوات وضُربت وعذبت مع أسرتها حتى وصلت مع منصور إلى بلاد الثلج حطاماً، لكن بضمير نظيف؟"- يخرج منصور سجله الدموي: أوراق محاكم، شهادات، قصاصات ورق من صحف، بيانات شجب الخ.. لكن من بين كل تلك الأوراق هناك صورة واحدة مرعبة لمنصور تستحق فعلاً الحرق، ولو كنت مكانه لما احتفظت بها لحظة واحدة: الصورة لمنصور في زنزانة قذرة ويبدو، إذا رأيتها جيداً، كومة عظام مع وعاء طعام يشبه وعاءً للمجذومين. يظهر منصور في الصورة باسماً. لا أعرف على أي شيء. قال لي من بعد إنه لم يرد ولا مرة واحدة أن يعطي انطباعاً للسجانين أنه ضعف رغم أن جسده صار خيطاً يمكن جره على الأرض!

ماذا نسمي هذا البار؟ قلت وأنا أحب دائماً إعطاء أسماء للأمكنة حتى لو لم تكن تحمل اسماً. قال بضجره التاريخي: "لا أعرف". قلت سأسميه بار "الهامشيين". ضحك ربما على شيء آخر أو على

لا شيء. أنت لا تعرف منصور حين يضحك أو يفكر لأنه لو ابتسم أو عبس لما اختلفت النتيجة. "في السجن، يا حمزة، كنت أشعر بحرية أكبر من هذه الأمكنة. أشعر هنا بسجن حقيقي".

كنت أقول دائماً جواباً حقيقياً وجاهزاً: أفهمك تماماً. في السجن عندك قضية. كنت تقوم بدور. كنت تشعر أنك على أرضك، وتابعت ضاحكاً: والأهم ماذا تفعل بحرية جاءت متأخرة؟! نحن عثرنا على حريتنا هنا كما يعثر المرء على شيء في الطريق انتهت صلاحيته. تدربنا على القمع.

ليس من المؤكد أنه معي في هذا الرأي فهذا المكابر اليمني بدل أن يدجنوه، حوّلوه إلى مخلوق شرس يبحث عن دور حتى لو كان الشعر أو الرواية أو الصمت. ولمنصور راجح في الصمت حكايات لا أول لها ولا آخر: ليس عجزًا عن الكلام، ولكنها الرغبة فيه بصورة أخرى، فالصمت هو جواب على عالم أخرس وصلب وهو نوع من المحاكاة الداخلية أو المناجاة مع قوى وربما "أشباح" مرّت عليه في السجن الذي ما انتهى!

متى تخرج من السجن، يا منصور؟! يضحك قائلاً: تعال نتصعلك في الشوارع. طبعاً كنا مسحورين بحانة الهامشيين. في الحانة نجلس في الركن نفسه. نهرع إلى المكان كما لو كنا عائدين إلى البيت. إنها ألفة الأمكنة. نتدرب على تعلم المسرات. ربما هو السبب يا منصور الذي يجعلك تكتب عن السجن شعراً ونثراً وصمتاً وحكياً؟! ربما، يقول.

نعود إلى الشرفة لندخن. كلما تركت التدخين عدت إليه معه بضعة أيام. على الشرفة يلفّنا صمت مرات. أسمعه لمجرد كسر الصمت الذي يثقل مع الوقت.." أهلا بك يا حمزة!" وقد نعود من الشرفة بهذه الحصة من الكلام. لكن خلف طبقات الصوت هناك رائحة أخرى تومئ بأمور كثيرة تتجول بين الشرفة والبحيرة المكسوة بعتمة ثلجية وهذه العتمة الرائبة، تأخذ مع الوقت عند منصور صورة زنزانة وتأخذ عندي صورة ساحة حرب أو سجن أو فجيعة.

لم نتعود، أقول فجأة، أن نتحاور قرب بحيرات فهذا النوع من الأمكنة بعيد عنا، نحن نتحاور في أمكنة العزل التقليدية - سجن، مشرحة، مطار، ثكنة، مقبرة... هل تظل صامتا إلى الأبد؟ يرد علي باسمًا: ماذا أقول؟!

قبل النوم يستدير فجأة نحوي ويتأملني. نظرة الصقر. نظرة سجين قديم وعريق تعلم أن يفحص ويدقق. تعلم أن يتأكد من الأشخاص لأن خطأ واحداً في التقدير سيكون مكلفاً. إنه الآن يصغي. هذه طريقته في الإصغاء. هذه بعض عادات السجن. الحذر الدائم من الأشياء. يقول منصور إنه احتاج إلى وقت طويل كي يتعلم لغة الحياة اليومية التي انقطع عنها كل تلك الفترة الطويلة. حوار السجن كان بين ضحية وجلاد. عليه أن يكون يقظاً دائمًا. مع الوقت تفقد اللغة البشرية وظيفتها وتتحول إلى شراك وفخاخ.

لكن أكبر معضلة واجهته هي كيف يعيد مع "أفراح" لغة التواصل الحميمية التي انقطعت؟ كيف يعيد الألفة للغة؟ كيف يعيد لها الأمان والمسرة والعفوية؟ تعرفا على بعض بعد أن كانت أشياء ومشاعر كثيرة قد تهشمت فيهما دون أن يعيا ذلك. كانا مشتبكين في معركة قاسية ومزعجة مع قوى غادرة وبربرية. زوجان يتلقيان بعد فراق 15 عاماً وعليهما استعمال غير لغة السجن. كيف؟! أفراح، مثل كحيل يمنية لم تلق حملها، ومنصور هو الآخر قرر أن يكون عمره عمر جدران السجن وأطول.. لكن أنقذته منظمة دولية للكتاب المضطهدين (القلم PEN) وحمل إلى المطار كما يحمل كيس من عظام وبنفسج. يقول صحيح أنهم أخرجوني من السجن، لكنني ملقى الآن في هذه البرية - وجدت هذا الصوت في فصول روايته التي لم تكتمل بعد ولن تكتمل لا عنده ولا عندي!

على شاشة التلفاز شريط فيلم فيديو عن منصور لمخرج عربي سوري كما أتذكر. منصور في شوارع الثلج الاسكندنافية. موسيقى وقصائد. شهادات. لكنه جالس إلى جانبي. هذا الرجل الذي على

الشاشة ليس هو الذي يجلس الآن معي. هذا منصور آخر. هو في كل لحظة يفقد شيئاً أو يضيف. كنت أختلق تعليقاً مني على الفيلم: هذا الرجل الذي يمر من هنا هو منصور راجح اليمني. شاعر أخرجوه من السجن إلى المنفى فأضاع المشيتين: لا هو في سجن ولا هو خارجه. لا هو في منفى لأنه يحلم بأرض أخرى، ولا هو خارج منه. داخل السجن، خارج الجسد!

ماذا يفعل إنسان لا وطن له ولا منفى؟ ماذا يفعل إنسان خارج جسده؟ الأرض جسد أيضاً. أقول له يا منصور قد تكون القصيدة وطناً بديلاً؟ ربما، يقول، تكون تعويضاً لكنها لا تكون وطناً.

ليس هناك شيء مؤكد في لغة تصعب على الفهم لأنها لغة إشارة وتلميح. نحن مازلنا في عالم السجن إذن؟ حين كان في السجن كان داخل جسده، لكنه في المنفى خرج من جسده. نحن، في الحالتين، في سجن!

دعني أحدثك قليلاً عن الحرب. يضحك منصور هذه المرة بامتلاء لأنه عرف اللعبة. تعال نتصعلك في.... "نسي اسم الحانة"... أقول" الهامشيين". نجلس في الزاوية نفسها. أقول له: من حسن الحظ لا أحد يعرفنا ولا أحد يفهمنا أيضاً. صرت أحب هذا المكان. هل هناك أمكنة أخرى؟ لا جواب. أحياناً تدفعني بهجة الشعور بالصداقة لقول أشياء كثيرة طارئة مثل هذه الحرية المباغتة التي عثرنا عليها وصارت عبئاً. حين نخرج من هنا، وليس هناك شيء مؤكد كما تعرف، أرجوك لا تركض خلف الحافلة ولو تطلب الأمر أن أنام على الرصيف أو في المحطة. مرة جئته متأخراً الساعة العاشرة ليلاً وأنا أحمل معي بطانية استعداداً للنوم في المحطة إذا لم أجد الحافلة إلى منْزله. أقول له: أحن إلى نوم الأرصفة. كم هو ممتع أن تنام بدون أرق أو خوف أو حلم أو وظيفة أو وطن أو طموح وكما يقول جون أزبورن: كلما تخليت عن الطموح شعرت بتحسن أكثر!

كلما غادرت منصور أشعر بشيء مني مفقود. لكنني أكتشف، حين أعود إلى المنزل متعباً من سفر طويل، أن شرفتي تأخذ شكل شرفته، وأن البحيرة أمامي تشبه تلك البحيرة، لكن ما من أحد يشبه منصور راجح غير زنزانته وكرسيه في حانة الهامشيين المعتمة الآن.. تلك العتمة الدافئة!

منصور: بين حبل المشنقة وفراغ المكان

خالد سلمان

بعد أن تفرغ من طبع قبلة حارة لمحبوبةٍ لم يمضِ على احتضانها سوى أيام سبعة.. قبلة تضمنها وتفرغ فيها كل توق للحياة، هل لك بعدها أن تتمنطقَ بالسلاح، وترمي على كتفيك بندقية لتقتل أول مار تقذفه الصدفة العاثرة في طريقك؟

- قطعاً لا..

هل لك بعد أن تملأ رئتيك بعبق أنثوي عطري فواح أن تذهب بحثاً عن رائحة الدم؟

- "لا" بدون أدنى تردد.

هل لك بعد أن تسلخ من عمرك سنوات طوالاً بعيداً عن الوطن، بحثاً عن معرفة تبدد ظلام الجهل وتتعقب روث التخلف؟.. تتشبع بجديد التغير.. وتطحن ذهنك في البحث عن حياة مدنية لائقة.. وعدل اجتماعي مكفول.. ثم تجد نفسك الدافع الأول لضريبة هذه الرغبة الانتحارية، والضحية الأولى لها.

- ......!!

هل لك أن تسقي غرس الكرامة بالعرق والدمع والحبر والحرف.. وسهد الليالي، ثم تدوس ثمارها بقدم غليظة وقلب ميت وعيون جامدة وقحة احتقنت فيها مياه الفرح وأسنت؟!!

- .....!!

هل لك أن تحترق في لظى الرغبة لطرح عصا المسافر، وتوديع بؤس المهاجر، إلى وطن أردته نابضاً قوياً شامخاً، ثم برصاصة طيش تحيل نبضه إلى موات.. وقوته إلى هزال وشموخه إلى مداس لكل مشبوه غريب اليد مريب اللسان؟..

أليس ذلك أمراً محالاً... وحدوثه يمجه العقل ويرفضه التفكير السليم.. واستحالة ذلك يفرض علينا بالضرورة أن نملي التفكير باسم قد لا يعرفه العامة، ولكنه ظل يسكنهم.. يقتات من همومهم وجعاً وزاداً، لدربه الطويل.. يعصر روحه عل قطرة منها تسقط على جرح متعب تهديه السلام.. وبريق ضوء يطعن أسطورة ظلم مقيم وعدل غائب!!

إنه منصور راجح شاب أغلق ملف التحصيل في جامعة بيروت.. حزم صرة متاعه وتأهب لرحلة العمل المضني في محيطه وبين ناسه... تأبط ذراع زوجته بعد ليال سبع من عقد قرانه، سبقتها سنوات سبع من الانتظار...

ما أن صافح وجهه بؤس القرية حتى وجد هناك من يفتح له قبراً ليواريه فيه، فكرة وجسداً.. غامر باغتيال الموروث فسبقته الأيادي الملوثة لتطحنه تحت أضراس سدنتها والمتعهدين برعاية دمامل الواقع المهيض، وصيانتها من مشارط النضج والتنور..

لقد اغتيل حلمه اليافع في نهار شمس فارحة.. أعيت دواهي التلفيق الحيلة، فقالوا:

إن منصور منذ سنوات ثمانٍ جاء بعد أن شرب من ماء شرير وأصيب بلوثة حب الفقراء.. استحم من نبع مغضوب عليه، تسرب إليه من خلف كرسي الجامعة ومقاعد الدرس وكراس الحرف ونبض الشارع المغبون.

منذ سنوات ثمانٍ جاء منصور مع زوجته ليقتل أول طيف لاح... هكذا قالوا عنه، تسلح وقتل أول

فلاح لا لشيء، بل هي رغبة القتل المجردة المتقمصة روحه وجسده وشهوة البحث عن أرض ندية بدم حار وتراب عاطش لثأر ذوي القربى..

منصور.. بعد أن عرف أن المطلوب ليس الزناد التي غدرت.. بل رأسه المهووس بأفكار التحول والتجديد.. أودع حياته قبلة على شفاه مزمومة لم تبرد فيها جمر الانتظار.. ورسالة في كف الرفاق وحلم أجهض قبل أن يبدأ.

إن "منصور" الذي يقبع خلف زنزانة باردة مسامراً حبل المشنقة، منذ سنوات ثمانٍ عجاف.. ويقف مشدوهاً بين عبارة "القصاص" التي نسجت حوله بإحكام وقميص الإعدام الذي يتراءى له عند صرير مفتاح السجن وأقدام السجان.. كان له أن يبرر إهدار دمه بالأمس حين كان كل شيء مبرراً أما اليوم فلن يقبله بعد أن تحرك الوطن متحسساً بأصابع مرتعشة ملامح وجهه الإنساني مستعيداً قسماته الضائعة.

كان له بالأمس أن يقبل التضحية في سبيل فكرة هادية ومثل عليا.. ولكنه لا يريد اليوم أن يرتدي مسوح الشهيد مجتراً خلفه الحسرة والخوف من انتكاسة حلمه الديمقراطي.. كيف لا يحزن وهو من سيتدلى جسده بين عقدة المشنقة وفراغ المكان.. في زمن زاه ولود.. هو الخوف أن يحاصرنا الظلم بأثر رجعي.. وأن تستبدل للسياسي تهم جنائية، بعد أن أضحت رائحة السياسة وفوحها لا تؤدي إلى المقصلة.

كما كان لمنصور واجب يؤديه تجاه أصدقائه وإطاره الذي يدفع اليوم ثمن الانتماء إليه.. فإن لمنصور حقوقاً وجب عليهم تأديتها.. في تحريك الدعوى والدفاع عنه وضمان حقه الإنساني وصيانة حياته من الهدم.

منصور راجح ورقة في ملف الأمس الكئيب.. وستظل ملفات البعض مفتوحة وقصاصات التهم تطارد الجميع.. وقدرة بعض الأيدي على الإيذاء طليقة، تصفي بمخالب الحقد حسابها المأفون مع الوطن الموحد والصف الوطني الملتئم.. وسيظل الرعب يهجس فينا، ما لم يغلق ملف منصور وتحرز أوراقه.. أو نضمن له محاكمة عادلة مستوفية كامل شروطها.. لا استثنائية.. تفوح منها تهمة محاكمة المعتقد.

مانديلا اليمن

طاهر شمسان

تحولت الأزمة بين قيادتي المؤتمر والاشتراكي إلى فاجعة حقيقية بالنسبة للسجين منصور راجح، وعلى مدى أحد عشر عاماً من المحنة في أقبية السجن لم تشهد قضيته تصعيداً إعلامياً إلا خلال الفترة الأخيرة التي أعقبت قيام الوحدة، وقد لوحظ أن هذا التصعيد يتأثر بنوع العلاقة بين الحزبين فهو يخبو أحياناً ويشتد إلى درجة المطالبة بالإعدام أحياناً أخرى... لكن الأزمة الأخيرة حملت معها تطوراً خطيراً عندما جعلت من رئيس الدولة طرفاً مباشراً في هذا التصعيد وهو أمر مخيف لأن ربط مصير مواطن بلعبة الصراع السياسي أمر لا يمكن تقبله من رئيس دولة يفرض عليه موقعه أن يكون أرحم حتى بأولئك الذين تستهويهم الإساءة إليه، فما بالنا بإنسان كمصور راجح حباه الله من النباهة والذكاء ورزقه من الثقافة ما ينأى به عن الإساءة للأشخاص مهما اشتد خلافه معهم..

إن منصور راجح يدفع ثمن مواقف هو مقتنع بها وليس نادماً عليها، وقد بدأت مواجهته مع النظام قبل أن يأتي الرئيس علي عبد الله صالح إلى السلطة وفي عهده اعتقل مرتين واجه في الثانية حكماً قضائياً بالإعدام، لكن الأخ الرئيس لم يتسرع في الموافقة على الحكم عندما كان رئيساً للجمهورية العربية اليمنية لشكه في ملابسات القضية كما نعتقد ولحرصه المسؤول على رقاب الناس.

ومنصور راجح يعي أهمية الموقع الذي يحتله رئيس الدولة وحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه مواطنيه بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية وقناعاتهم الفكرية، وربما شكل هذا الوعي سر تشبثه بالحياة وتطلعه إلى الحرية، وأجزم أنه لم يتوقع من رئيسه تقرير مصيره بالطريقة التي تمت في سياق المقابلة الصحفية الأخيرة مع مجلة "الوسط" عندما تحول إلى موضوع للمناكفة السياسية.. ومهما يكن من أمر فإن منصور راجح من الناحية العملية قد فقد شبابه وفقد جزءاً كبيراً من حياته وصحته وربما لم تعد حياته تعني شيئاً بالنسبة له وقد لا يكون مهماً أن يتخذ قرار بحقه لأنه مقتنع بعدالة قضيته، لكن كيف يمكن أن ينظر التاريخ إلى مسؤولية الحاكم وعدالته إزاء هذه القضية وأمثالها..

لقد اعتقل منصور وهو في أوج مواجهته السياسية مع النظام حينها وتمت محاكمته من قبل قضاء يتحدث الناس عن فساده ولا يؤمنون بعدالته ونزاهته، وصدر الحكم في ظل تشكيك واسع النطاق بصحته وبرز من بين أقرباء القتيل من وجه رسالة إلى النائب العام يدافع فيها عن براءة منصور راجح، ومنذ ذلك الحين تحول منصور إلى مانديلا آخر محاط بتعاطف اجتماعي وسياسي وإنساني داخل البلاد وخارجها وهو معروف لدى منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان كسجين رأي يجب الإفراج عنه، واستخدامه كورقة في الصراع السياسي يعد مساساً بحقه الطبيعي كمواطن، وإذا كان الأخ الرئيس قد نفى هذه الصفة عنه فعليه أن يثبت صحة الحكم القضائي وأقل ما يقتضيه ذلك هو إعادة المحاكمة بصورة علنية مستوفيه لكافة شروط المقاضاة العادلة ويدعى لحضور جلساتها من يرغب من المهتمين أفراداً وجهات لينتهي بذلك مسلسل اللعب بمصير هذا الإنسان ولتطوى مأساة مانديلا اليمن.

(مساحة ضوء) - رسالة من منصور راجح

إسماعيل الوريث

بعث سجين الرأي منصور راجح إلي وإلى الزميل الأستاذ عبد العزيز البغدادي عضو المجلس التنفيذي لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ورئيس لجنة الحريات فيه رسالة هذا نصها: (بسم الله.. الزميلان العزيزان إسماعيل الوريث وعبد العزيز البغدادي.. احترامي.. لاتحاد الأدباء والكتاب - دائماً - موقف متقدم في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، وفي مضمار الدفاع عني كبريء، منتهك حقه في الحياة والحرية كان الاتحاد عند مستوى المسؤولية المهنية والإنسانية، وفي إطاره كنتما - وما تزالان - من أكثر المعبرين بالكلمة المسؤولة والشجاعة عن كل ما هو من صميم حركة الحياة بحق في بلادنا، تلك الحركة التي نجد صيانة حقوق الإنسان في صميم خطابها الثقافي والسياسي الإنساني نشكل عام.

حاولت كثيراً الكتابة إليكما، وكنت في كل مرة أعجز، وما ذلك إلا لشعوري بأنكما أبعد ما تكونان عن الاحتياج لمن يذكركم بمسؤوليتكم، فقد كنتما على الدوام أصحاب حساسية عالية ومتميزة بالمسؤولية الثقافية والإنسانية العامة، وكثيفاً كان وما يزال إحساسي بأنكما من أشد المدافعين عن حقوق الإنسان.

وفي حالتي أنا على يقين بأنكما طراز من البشر حينما يتعلق الأمر بهكذا قضية فإنكما تؤديان دوركما كمدافعين عن نفسيكما كصاحبي أفق واسع يعيان بأن حقوق الإنسان لا تتجزأ، وأن ينتهك حق إنسان مهما كان، وأين ما كان فكأنما انتهكت بانتهاكه الإنسانية جمعاء، بله إنسان يتماهى فيكما - هماً وإحساساً بالمسؤولية - حد الحلول، لا أناشدكما بل أشد على كفيكما طالباً المزيد من الجهد لإيقاف هذا الهدر عند الحد الذي بلغه، والسلام عليكما.

أخوكم/منصور راجح

سجن تعز المركزي - مارس 1996م)

تلك هي رسالة الشاعر منصور راجح، سجين الرأي الذي قضى من عمره الطري وشبابه المتوهج أكثر من ثلاثة عشر عاماً خلف جدران السجن المخيف ففاقت محنته محنة يوسف وقارب بلاؤه بلاء أيوب.

ولم أكن محبذاً نشر الرسالة لما ورد فيها من إطراء لي ولزميلي الأستاذ عبد العزيز البغدادي، لا نستحق حتى القليل منه فواجبنا وواجب كل المثقفين الوطنيين يحتم علينا الدفاع عن منصور راجح المسجون ظلماً.

وهنا لابد لي أن أجدد النداء وأكرر الاستنجاد بالأخ الفريق علي عبد الله صالح الذي تكررت وعوده الحميدة بإطلاق منصور.

لقد ترجحت في ميزان القضاء كفة التهم السياسية على الكفة الأخرى التي خفت بالأدلة القاطعة على براءة منصور فتكبل بالظلم وحكم عليه بالموت البطيء داخل جدران السجن، وعلى اعتبار أنه سجين الرأي الوحيد في بلادنا فمن مصلحة الدولة إطلاقه ورد اعتباره حتى تصبح صفحتها بيضاء فيما يتعلق بهذا النوع من حقوق الإنسان.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت أظنّها لا تفرج

قضية سجين الرأي منصور راجح: باتت قضية دولية

إبراهيم عبد الله عيسى

"منصور راجح" مواطن يمني، أديب ومثقف معروف على نطاق الحركة الطلابية اليمنية والعربية، ومعروف لدى منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان في العديد من بلدان العالم والبلدان العربية، ولدى منظمة العفو الدولية وفروعها كسجين رأي، أي "سجين سياسي".. يتلقى البرقيات والرسائل والمكالمات من الداخل والخارج وهو في سجنه، أي أن هناك حملة تضامن واسعة مع قضيته العادلة في استعادة حريته وإطلاق سراحه من السجن ومحاكمة كل من تسبب في حرمانه من الحرية منذ أحد عشر عاماً.

"منصور راجح" عضو الحزب الاشتراكي اليمني، حكم عليه بالإعدام بسبب ذلك.. أما القضية الجنائية "الادعاء الكاذب" فليس لها أية صحة والأدلة:

1- اعتقل منصور راجح في 9 يوليو 83م بعد أن قُتل شيخ من قريته عمره "85" سنة، فهل يعقل أن يقوم شاب واع كمنصور راجح، والمتقد اجتماعياً وثقافياً بقتل شيخ طاعن في السن.

2- استندت المحكمة بحكمها على سند لا يملك أي مسوغ قانوني من حيث مصدره، فالشيخ بعمر سنة، وفي مجتمع متخلف صحياً كمجتمعنا متوسط عمر الإنسان فيه لا يتعدى الـ "45" سنة، يعتبر هذا الشيخ في عمر من هو ضعيف الذاكرة والنظر، خاصة وأنه لم يكن لدى السلطات التي قامت بالتحقيق إصدار الحكم سند قانوني كتسجيل لصوت القتيل وهو ينطق اسم منصور راجح إضافة إلى أن هذه الجهات لم تعلن ذلك لمنصور إلا بعد ستة أيام من اعتقاله.

3- من شهادات أهل القرية والأدلة الثبوتية ظهر أنه لم يكن لمنصور راجح أية خلافات مع القتيل تدفعه لاقتراف ما سمي بجريمة القتل.

4- أن رئيس المحكمة العليا قد رفض التصديق على الحكم ولم يوقع عليه، بل أن من وقع عليه هو علي قاسم الشامي نيابة عن رئيس المحكمة دون أي وجه قانوني.

5- رفض وزير العدل التوقيع على الحكم وأحال القضية إلى التفتيش القضائي.

6- جرى الطعن بشهادة ثلاثة من شهود الزور الذين شهدوا بأنهم رأوا منصور راجح وهو يقوم بعملية القتل، وفي المحكمة ظهر لهم أن هؤلاء الشهود لم يعرفوا منصور راجح ولم يسبق لهم أن شاهدوه، وحدث هذا في قاعة المحكمة عند الاستنطاق.

7- بعد أن افتضحت القضية أوصى المكتب الفني بوزارة العدل بمحاكمة من قام بعملية التزوير وأحال القضية إلى جهاز التفتيش القضائي لإجراء التحقيق حولها باعتبارها واحدة من القضايا الكبيرة لجهاز القضاء.

أما الأدلة على أن منصور راجح هو سجين رأي "سجين سياسي" فهي:

1- اعتقال منصور راجح بعد عودته من بيروت من قبل جهاز الأمن الوطني بتهمة الانتماء السياسي في أوائل عام 83م.

2- أفرج عنه في أواخر يونيو 83م ضمن من أفرج عنهم من السجناء السياسيين إثر قرار العفو عمن أسموا حينها بالمخربين وعددهم 105سجيناً سياسياً، وهذا اعتراف ضمني من أجهزة السلطة آنذاك بأن منصور راجح سجين سياسي.

3- بعد اعتقاله مرة ثانية في 9 يوليو 83م تم التحقيق معه وتعرض للتعذيب كونه سياسياً، وكان هذا في الجهاز المركزي للأمن الوطني المتخصص بالقضايا السياسية.

4- أن منطوق الحكم قد تأسس على انتمائه الحزبي لما كان يسمى آنذاك "حوشي" وهي التسمية الرسمية التي عرف بها الحزب الاشتراكي اليمني في الجزء الشمالي من الوطن سابقاً، والحاكم الذي نطق الحكم قد أشار بنفسه في حيثيات الحكم بأنه قد حكم عليه بالإعدام بتهمة القتل لأنه حزبي.

5- أن هذا الحكم قد شكل أساساً لما أتى بعده من أحكام، وبهذا يسقط المعنى الجنائي لحكم الإعدام الصادر على منصور راجح، وتظل القضية سياسية بداها ولحمتها، بعد كل ما تقدم، ولأنني لست قانونياً، ولم يسبق لي أن اشتغلت في القضاء أو النيابة، ولكن من حيثيات القضية التي ذكرتها والتي نشرت في أكثر من صحيفة، وآخرها المقابلة التي أجراها معه الزميل احمد الحاج والمنشورة في صحيفة "صوت العمال" العدد "1122" الصادرة بتاريخ 12 أغسطس 93م، ومن الاعتراف الذي أصدرته منظمة العفو الدولية مايو 92م في تقريرها عن منصور راجح باعتباره سجين رأي "سجين سياسي"، وكذلك المنظمة العربية لحقوق الانسان وفروع المنظمة الدولية في ألمانيا وكندا واستراليا وغيرها من الدول، ومئات الرسائل والبرقيات والمكالمات من أنحاء عديدة من الوطن العربي والعالم للتضامن معه.. كل هذا يدعوني لليقين القاطع والفهم القانوني بحكم ما أمتلكه من وعي اجتماعي يشكل الوعي القانوني في أحد تجليات أشكاله، يدعوني إلى تسمية السجين الوطني الديمقراطي "عضو الحزب الاشتراكي اليمني" والأديب المثقف الشاب منصور راجح، تسميته بالسجين السياسي.

لهذا كله ولغيره من الاعتبارات، خاصة ما نصت عليه الاتفاقيات عند توحيد الوطن بإطلاق سراح كافة السجناء السياسيين، إنني أدعو كل الوطنين والديمقراطيين للمطالبة بإصرار عن طريق حملة تضامن واسعة داخلية وخارجية، للمطالبة بإطلاق سراحه واسترداد حريته وتعويضه مادياً عن كل ما لحق به من حيف وخسائر، وإرساله على نفقة الدولة وعلى وجه السرعة إلى الخارج للعلاج والراحة وإفساح المجال أمامه لإكمال دراسته وإعادة الاعتبار له كسجين سياسي وطني ديمقراطي.

الحرية والحياة للسجين السياسي، عضو الحزب الاشتراكي اليمني منصور راجح "قيثارة اليمن".

إن الانتصار لمنصور راجح هو انتصار لمثل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية في اليمن ولكافة أنصارها ودعاتها الحقيقيين.

علي الدميني

علي الدميني

علي غرم الله الدميني: من مواليد 10/5/1948 في قرية "محضرة" - الباحة. أكمل دراسته الجامعية في الهندسة الميكانيكية، شاعر وأديب، وناشط سياسي مشهور، وهو أحد أهم مراكز الثقل الأساسية في النشاط الإصلاحي في المملكة السعودية. كان الدميني من أوائل المطالبين بالإصلاح السياسي والثقافي والفكري في البلاد. له كتابات متفرقة في الوسائل السلمية للنضال من أجل الحقوق المدنية.

اعتقل الدميني للمرة الأولى في عام 1982، بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي، وكان حينها مسؤولاً عن الملحق الأدبي في جريدة اليوم (المربد). يقول في كتابه (زمن للسجن..أزمنة للحرية): ولذا انتميت إلى الحزب الشيوعي كوطني مسلم، يسعى لتطوير بلاده ورفع الظلم عن الطبقات الفقيرة.

أطلق سراحه بعد سنة، وبقي ناشطاً سياسياً وثقافياً، يعمل على خطابات مطلبية بالتعاون مع الإصلاحيين السعوديين الآخرين، بثوابت ثقافية وسياسية واضحة: الاعتماد على الشريعة الإسلامية، التمسك بالوحدة الوطنية، الالتفاف حول القيادة، الوقوف ضد التحديات الخارجية، ورفض جميع أشكال الإرهاب.

يعتبر الدميني أن الفقر والبطالة وسوء توزيع الثروة "في بلد البترول"، وكذلك الفساد الإداري وغياب حرية التعبير وانتهاك حقوق الإنسان... كل ذلك أسباباً لكتابة البيانات والنضال المطلبي. من البيانات أذكر:

بيان استنكار انتهاك شارون للمسجد الأقصى

بياناً تضامنياً مع انتفاضة الشعب الفلسطيني الثانية

بياناً يعارض شن الحرب على الشعب العراقي

بيانات الإصلاح السياسي الشامل (معاً.. في خندق الشرفاء، رؤية لحاضر الوطن ومستقبله، دفاعاً عن الوطن، نداء إلى القيادة.. نداء إلى الشعب، معاً على طريق الإصلاح)

اعتقل بما يشبه الخطف وهو يهم بركوب سيارته بالقرب من مقر عمله في 16/3/2004، بتهمة «السعي إلى إثارة الفتن وبث بذور الخلاف بين أبناء الشعب وإثارة التحزب المذهبي والطائفي» كما جاء في لائحة الادعاء العام، وقد أقرت دائرة القضايا الجنائية بمحكمة التمييز بمنطقة الرياض، الحكم الصادر من المحكمة العامة بالرياض بالجلسة السرية التي عقدتها يوم (الأحد 15/ مايو/2005) بحق رموز الإصلاح الدستوري والمجتمع الأهلي المدني:

- الدكتور أبو بلال عبدالله الحامد: سبع سنوات.

- الدكتور متروك الفالح: ست سنوات.

- الشاعر علي الدميني: تسع سنوات.

* * *

أصدر الكتب التالية:

- (رياح المواقع)، ديوان شعر 1987،
- (بياض الأزمنة)، ديوان شعر، 1993
- (بأجنحتها تدق أجراس النافذة)، ديوان شعر، 1999،
- رواية (الغيمة الرصاصية)، 1998
- صدر له من وراء القضبان كتاب (نعم في الزنزانة لحن)، 2004،
- كتاب «زمن للسجن، أزمنة للحرية»: سيرة ذاتية عن السجن مع وثائق مطالب الإصلاح وبعض القصائد المكتوبة زمن السجن.. يقول: «إن استفادته من السجن لم تنحصر في امتلاكه الوقت للاختلاء بالذات وحسب، وإنما لتأمل ما يستحق التسجيل أو النسيان على السواء».

أشرف الدميني لسنوات على الملحق الثقافي في جريدة اليوم، كما أشرف على إصدار مجلة النص الجديد الثقافية. وقد رشّح ضمن أربعة من الإصلاحيين السعوديين (الشاعر علي الدميني والدكتور عبد الله الحامد والأستاذ محمد سعيد طيب والدكتور متروك الفالح) لجائزة نوبل للسلام للعام 2004، لنضالهم الطويل من أجل نشر الديمقراطية في المملكة العربية السعودية، ولمعاناتهم السجن والحرمان لسنوات طويلة. (سجن الأستاذ محمد سعيد طيب لمدة سبعٍ سنوات بسبب هذا النشاط عام 1969 كما تم سجن الحامد أربع مرات، والدميني سجن عاماً كاملاً في 1982. وتم فصل الأخيرين من وظائفهما بعد الاعتقال أما الدكتور متروك فقد استدعي للتحقيق معه مراراً نتيجة لمواقفه الشجاعة)

مختارات شعرية

الهوادج

ما تبقى من العمر إلا الكثيرْ.
ما تبقى من العمر إلا الكثير،
فماذا أسمي البياض الذي يتعقّبني
غازياً أم أسيرا؟
قم من الليل، يا لابس الخيل كيما ترى
أفقاً
ناسكاً
ونهاراً طهورا
إن قلبي ينوس وحيداً وقد فارقته البواكير
واستخلفته
الأساطير
ينْزف ماء الزمان على الساعة الجامدةْ
واحدةْ:
كانت السنوات تعبّ العشيّات حتى شربنا
على ظمأٍ
جمر ذاك الضباب العفيف.
واحدةْ:
صارت السنوات تغرّد في متن غربتها
وتبيح لنا من يباس سفينتها بيرقاً،
وتدندن ساعاتها
في الفناء الرهيف،

* * *

ما تبقى من العمر إلا يسير يقود يسيرا
قد خبرت المدينة... أبراجها واحداً واحدا.
افترشت حصاني على بابها حينما لم أزل

نطفة في الأزل
وتخيرت أجمل أسمائها
من هديل الحروف
ومسّ القبل
قد عرفتُ المدينة ... أنهارها والحصى
ودعوت النخيل بأحرفه اللّينات وباركته
شاهداً شاهدا
فاشهدوا أنني:
قد تحملت من وجد عشاقها ما تنوء به الذاريات
ورأيت الذي لم يرَ الأولون ولا علم الآخرون.
إذ سُقيت بوادي القرى شربةً مسّت العظم حتى اكتوى
واغتوى القلب من غيّه ما اغتوى
وتبدّت لي الفاتنات ثمانين حولاً
فلا أنا مستوثق من جنوني
ولا أنا عن حبهن (أُرعوى)
يا نساء المدينة اخفقن كالطير مبهمة في البكور
وملهمة في السرى،
قد تلبست منكن حرقة عيس الصحارى وإبل القرى
فأنا مهلكٌ ناقتي بينكن على ملأٍ لأرى.
وأنا مستعيذ من الشدو بالصمت
مستمطرٌ ديمةً أربعت، ورياحاً تسوق هوادجها البدوية
في الماء،
طالعةً من عروق السحاب، ونازلة في متون اليباب،
فلا كنت أول من نظر النجم يأوي إلى ظلّها
ولا كنت آخر من أبصرا.
فإذا خاضت الناس في القول
واستأنست زمناً أخضرا
أعشبت طفلة الروح،
وانفلقت حبة الصبح

بين يديّ، فأطلقها
غضةً بضةً
تصف الكون باللون،
والتمر بالمن،
والراح بالروح،
تكتب بيني وبين بنيّ المواثيق
حتى إذا ما تغشّاني النوم
ملت إلى القلب في دعةٍ
ودعوت لنسلي بمغفرةٍ
واسترحت لحرقة مجد الكرى

* * *

ما تبقى من العمر إلا و...إلا
ما تبقى من العمر إلا بياض الصبايا يلوّح للطير
أن اهبطي من علٍ
واشربي باقيات يقيني
ما تبقّى سوى رعشة الثوب في بدني،
واختلاج الأعنة فوق جوادي،
وكأس حنيني.
ما تبقى من العمر إلا التي راودتني صغيرا،
أتعبتني كبيرا،
البلاد التي
سأغني لهودجها البدويّ،
وأرقص بين يديها ومن
خلفها
مبصراً وضريرا.

وصيّة

لم أقل لأبي في الصبا ما يسرُّ الفتى لأبيهْ
وبأني تقوّيت بالمفردات لأعلو على كذبي

بخيال الصبّي النـزيه
لم أقل قد رأيت فؤادي يطير بلا أجنحةْ
وبأني غداة عدى الذئب في غنمي
كنت أبحث عني،قريباً من الغيم فوق البيوتِ،
وخلف ارتعاش ثياب الصبايا على "الأسطحه"
لم أقل كان يتبعهن فؤادي فأسلمتُ مزرعتي للجرادِ،
وإذ جئتني غاضباً قلتُ يا أبتِ:
كيف أحمي الحقول وقلبي بلا أسلحة!
يا أبي لم أقل خانني بصري إذ رأيت الصبايا سواسيةً
يتحدّرن من جبلٍ في السماءْ
يتقاطرن من مطرٍ صاغ أصواتهن فماً
يتكلّم حين تنام النجوم، ويغفو الهواءْ
وإذا أفسد الليل غاباته
جئن لي بالمصابيح،حتى أفاق "جنوني"
وأشعلنني بالغناءْ
ونحتن بأعشاش قلبي قواريرهن
و زوّجنني
لفراغ البكاءْ.
يا أبي حين هيأتني لافتراع المياهِ،
وساءلتني: أي ليلٍ ستبني به وطناً للصغارِ
وأي صباحٍ ملثّم؟
قلتُ:كل النساء سواء
كل واحدةٍ تشبه الكلمات التي لم تلدْ بعدُ،
أو تتكلّمْ
والزمانَ الذي لا يشيب ولا يتهدّمْ
والنخيلَ المغطاةَ كل صباحٍ بأشباه مريمْ.
يا أبي لم تُعني لأختارَ،
أو تمتحني لأحتار،
أو تكسرِ الوهم كي أتعلّم

يا أبي
مذ دخلت المدينة أدركت أن الفتى
غارق في "مجاز" النساءْ
لم أقل: أي امرأةٍ سوف أُثقل أوصافها بفمي،
وأدوِّن في متنها سفري،
وانتحاري السعيدْ
أيهن ستسرج في ليلها قمري،
وأصير فتاها الوحيدْ
لم أقل هذهِ شبهيْ
سوف تكمل جملتُها باب بيتي،
وأصواتهُا سلّمي في الموسيقى، ولم
أتمرّنْ على ما يدلّ الفتى في المساء إلى نفسهِ،
أو يوجِّجُ ثلج الجنوب ببادية الشام،
أو يتخلَّق في المبتدأ،
خبراً للقصيد.
يا أبي خانني ما توهُّمته في الصبا
حين خلت النساء سواء: اللواتي ملأن كتابي بأوصافهن
واللواتي تخفّين في ضعفهن
واللواتي
حذِقن التشابهَ
حتى عشقت السواد الذي يشبه الأصدقاءْ.
ولهذا
تفرّق قلبي هوىً في القبائلِ
من ذا يدلّ عيوني عليه؟
يا أبي لم أقل في الصبا ما يُسِرُّ الفتى لأبيهْ
وهنا سأُسِرّ لابني بما أنا فيهْ!!

حالات

1- الطائر

رهيف الهوى سيِّد

وعينٌ ترى ما يلي

تخضبت بالكائنات

وقاسمتها قاتلي

يشاغبني وجهها

وأصفو فلا تنجلي

مليء بما ليس لي

أنا الطائر الجاهلي

2- ملاك الصُّدف

يا ملاك الصدفْ

كيف لم نختلف؟

أنت عرّيتني من صبايَ، وهيأتني حارساً للمسرّات

في كل هذي الغرَفْ

وأنا كنت رمحك في الصيد

لكنني دائماً لا أصيب الهدفْ!

3- هكذا

هكذا دون وهمٍ ولا ادعاء

دون مرثيةٍ لامعةْ

يتقدّم نحوي هواءٌ من القشّ أبيض،

يلمس شَعْري،

ويعْلَق كالثلج فوق جفوني

وإما أهشُ على ظنهِ بفمي

تتحدّر عني السنون وتذهب في إثرهِ طائعة!

مسائل صغيرة

قيل ما يحزنك اليوم وقد حررت تاريخك، من أحلامه الأولى،

وهيأت التوابيت لبيت القدس، والأمة،

وانحزت إلى نفسك سلطاناً على الصمتِ،

وبواباً على الذكرى،

فما يخرج منها غيرُ ما يُضحكَ أقرانك في الليلِ،
وما يجعل من سيرتها نصاً ضبابياً،
ومن أطرافها "فيلماً" من الكرتون
يلهو حوله الأحفادْ؟
قلت: لم أروِ لهم عن فتنة الصيد،
وعما يدهش الصيّاد!
قيل ما يُطربُ عينيك ولم تبرح جنوب الماءْ
لم تشرب من البئر التي تهوى
وقلبك، ذابلٌ ظمئٌ،
فما يروى،
ولم تبصر من الأحلام إلا موتها المائل في الأصفادْ؟
قلت:سحرُ الوهم في ما يشبه الميلاد
قيل ما يُثْقلك الآن وقد قاربت من خمسينك الأولى،
وما زلت غلاماً صالحاً للذبح في الأعيادْ؟
قلت: قرناي جميلان وأخشى أن يراني عارياً،
دونهما، الجلاّدْ.

لا أحد

أصيح بالعالم: لا أحد
يستصرخ الدهر على ربابة الجسد
إلا أصابعي التي
أطفأتها،
فصرخت:
ياسيدي بَعَد
ياسيدي بعد
ذاكرة الموتى

في ذاكرة الموتى

كرسيٌّ للرحمة
أو كرسيان

في ذاكرة الأحياء
بلادٌ من سوط
وشيوخ بلا آذان
أما في ذاكرتي، حين أنظفها مني،
يتساوى الاثنان

هكذا

إلى عدنان الصائغ
قدحاً من رخام العذارى صنعت،
وأوقدت مسك المعابد للداخلينْ،
حلّني في سهوب العشيقات من دونما جَزَعٍ أو مواجيد،
في سنةٍ رخوةٍ يتخّبط في بهوها الخلق حتى يساوي القطيع
الرعاةْ،
والمساء الغداةْ
ولنذقْ في تفاصيلهن الكثير من المقت
إني وجدت كتابي
يخطّط فتواه في هامشٍ مُغفلٍ
ويدثّره بالحلال
هكذا أرتدي ورق الشك في لغتي
من فصولك
إن شطّ بي القلب
في لغوهِ
أو أتاه اليقين.

صلاة الغائب

السلام عليها،
مبرأةٌ وهي تقطع سيف السنين التي يبست في الثياب،
ومتن التي اشتعلت في الكتاب،
وتنقض ما يجمع الشرق والغرب،
والسلم والحرب،

والاتفاق على ورق ناصل لا يعيد لأصلابها
شهقة من حنين الدليل لقبتها،
وابتسام القتيل.
السلام عليها
كأن الجنازات خنجرها، وكأنا
نسير إلى وحشة من دمانا،
فمن دل إبرهة الحبشي على باب "بكة"،
من قاد أفياله في الصخور،
وأدخل "أجناده" في البلاد سوانا؟
في الهزيع الأخير الذي يتنفس "سبع المثاني"
سوف أعصر إثم القبيلة في قدحي
وأساقي شريك القنوط "زهابي".
هو مركبها لائقا "بالرحيل كما يشتهى
والنحيب الذي ما انتهى
وهو مقتلنا لائذا" بالمعاني
فلتصل علينا صلاة الغياب، وإني
أؤم الجماعة
مرتعشا"
في
مكاني.

سوف تصعد

"سوف تصعد يا سيدي السلَّما
كلّما..
صفعتني يداك
وستحمل في صدرك الأوسمة
كلما..
أوجعتني خطاك
غير أنك يا سيدي، سوف لن تنسى لي
أنني

قد رفعتك من مسغبة،

ووضعتك في مرتبةْ،

وأنا سوف لن أنسى لكْ

وجهك الجهم حين يحين الحساب

الرياض - سجن وزارة الداخلية - عام 1982م

أهبط من هلع التحقيق

أهبط من هلع "التحقيق" إلى قاع الزنزانة

أتلمّس قلبي، هل لازال مكانه

في "الزنزانة" أتمترس خلف الشعر

وخلف الشعراء

أقسم بالأموات وبالأحياء

إني سأقاوم

موت البرد وما اقترفت

أقلام العالم من أخطاء

الآن أرى... الآن أرى

أبصر عادل مبتسماً تحضنه نجلاء

يا للأيام القادمة، الخضراء

أُسْكِن قلبي للنوم

صباح العاشر من عاشوراء

الرياض - سجن وزارة الداخلية- عام 1982م

نهر الغياب

طلّي على نصف وقتي إنني ثملٌ

بالفقد، مستوحش من ذا ينادمني

ومن يلم على الذكرى ملابسنا

ومن سيشرب، في الظلماء، من شجني

أمسيت ظلاً على الأشياء، أذكرها

حيناً، وحيناً، أنسّى من يجاذبني

مجاز شعري، وما كنا نخايله

في ضفة الحلم أو ما كان يفتنني
يا أم عادل، يا صبحاً أهش به
كآبة السجن، والآلام في بدني
أشرعت بابي على الأحباب فانهدمت
معابد الشوق في عمري بلا ثمن
واستوحش القلب من صمت الأحبة من
منامهم، مثلما الأحجار في المدن
ورحت أسأل هل صوتي به صممٌ
أم أن "ربعي" مضوا للشام أو عدن
نهر الغياب، غياب النهر، وا أسفي
لبارقٍ غاب في سيمائه الوثني

* * *

أغلقت بابي على بابي فحط به
وجه الحبيبة، ملهوفاً يعانقني
يا (فوز).. يارفة الأفلاك، يا شجراً
يخط في الأرض ما أهواه من سنني
يا طائراً لا يخاف الريح إن عصفت
ولا يهاب المنايا في خطى الزمن
أسرى بك الشوق من شرق البلاد إلى
غروبها، موجة حمراء تسندني
لله..هذا العناء الخصب يافرحي
ويا جنوني، ويا سري ويا علني
تجملي بأريج الحلم وانتشري
سحابة تحمل الأمطار للوطن
الرياض - سجن عليشة -10 /7/2004

كلمات للقيد... وأغنية للحرية

"خلقت ألوفاً لو رجعت" لبيتنا
لألفيت قلبي في (عليشة) باكياً(*)

فقد علمتني أن للعدل موعدا
وللشعب - إن ضاقت - بروجاً عواتيا
وأني خطبت الحق في كل "مطلب"
وما كنت فيما قد كتبت معاديا
وسطّرت في كل الخطابات "رؤيتي"
"منىً كنّ لي" حتى وجدت المناديا
فو الله لا جاهاً أردت ولا غنى
وحسبي إلى "الإصلاح" أن كنت ساعيا
أفي دعوة الإصلاح يا قوم "فتنة"
إذا كان مهر الصمت موتاً مواتيا(**)

* * *

أيا قلب هل غيرت يوماً سريرتي
محبًّا لشعبي، والقيادات داعيا
لإصلاح هذا البيت من داخل الحمى
فقد أبصرت عيناي أسْداً عواديا
تحوم على الأبواب في كل أزمة
تلوّح تارات، وأخرى تهاديا
وشقّت على قلبي دماء أحبتي
تسيل ووجه الموت في الأفق دانيا
وأشقى ضميري أن أنادي "قيادتي"
فلا ألتقي من ذا يلبي التناديا

* * *

(عليشة) ياسجناً أليفاً سكنته
ويا وجعاً قد فاء للقلب تاليا
لقد كان لي من قبل لقياك موعد
شربت به في السجن مراً وحاليا
وعشت به عاماً ضريراً ويابساً
وكم صارت الأيام عندي لياليا

وفارقت من بعد اعتقالي وظيفتي

وأصبحت مفصولاً وقد كنت واليا

مُنعت من الأسفار تسعاً وفوقها

ثلاثاً، وللأسفار كنت المواليا

ولكنني والله،ما كنت قانطاً

ولا مبطناً سوءاً، ولا "الحكمَ" قاليا

وما كان قلبي عن بلادي مغيباً

وهل كان مجنون العناوين ساليا؟!

ولكنني قد كنت أحلم بالمنى

تجيء على الأفراس غراً تواليا

فلما ادلهمت كرةً بعد كرةٍ

دياجي بلادي، قلت يانفس ماليا؟

ألست الذي قد قاسم "الأرض" عمره

وأفنى عشيات انتظارٍ خواليا

* * *

"عليشة "ما فرطت يوماً بأمتي

ولا وطني، مذ كنت للخير ساعيا

تحدثت عما يثقل الشعب حمله

وما كنت إلا الصوت، محزون قاسيا

أفي بلد "البترول" جوعٌ وعسرةٌ

و"دَين" تغشّانا، جبالاً رواسيا

أفي بلد "البترول"عجزٌ، ولم نجد

لطلابنا في الجامعات كراسيا

أفي بلد "البترول" مليون عاطلٍ

ومليون مسكينٍ، ينادي المواسيا؟

إذا كان هذا ما صنعناه حاضرًا

فما ذنب أجيالٍ يجيئون تاليا

لعبنا "بمال الشعب"حتى ترملت

بلادي فلا تلقى عن العري كاسيا

*   *   *

"خلقت ألوفاً" يا "عليشة" إنني
سأروي على سمعيك ما كان خافيا
دعوت "وأصحابي" القيادة جهرة
وما كنت نحو "العنف" يا قوم ساعيا
جراح بلادي يا "عليش" خطيرة
وفي "مدخل الإصلاح" نلقى التداويا
نشيد على "الدستور" حكماً وبيرقاً
من العدل، خفاق العلامات، زاهيا
يقوم على الإسلام شرعاً وغايةً
وينتهج "الدستور" بالعدل ماضيا
يصون "حقوق الشعب" قولاً وسيرةً
وعهداً ينال الشعب فيه الأمانيا
وأن ينصف "الأنثى" فلا ظلم ضدها
نساءً.. رجالاً....في الحقوق سواسيا
ويفصل سلطاتٍ ثلاثاً، تشابكت
علينا، فلا نلقى على "العدل" راعيا
ويضمن أن يغدو "القضاء" منـزهاً
رهيفاً كسيفٍ لا يهاب الضواريا

*   *   *

"عليشة"، قد روّضت في السجن وحشتي
ومن عتمة الجدران صغت القوافيا
وصيَّرت ليل السجن عندي حديقةً
تصبّ رضاب الحلم في الكأس صافيا
وما اغرورقت عيناي إلا صبابةً
ولا التمعت عيناي إلا أمانيا
إذا لم نذد "بالقول" عن بيضة الحمى
ونرخص للأوطان "يسراً" وغاليا

فإنا سنغدو "للمضلين" مقتلا

يصيب الذي في الحكم أو كان نائيا

الرياض - سجن عليشة 2004

جاري السلفي

(كان جاري السلفي في الزنزانة الملاصقة لزنزانتي، فقيهاً شامياً من جماعة جهيمان، وقد قضى في الزنزانة الانفرادية ثلاث سنوات، ولم أرَ وجهه إلا لحظة خروجه من السجن، وهو يزحف على ركبتيه عبر بلاط الممر الطويل، كنت أتعاطف معه في تلك الأيام القاسية لأنه يناهض الحكومة، أما اليوم فإن موقفي المبدئي قد تبدّل تماماً، وأصبح يعبّر عن إدانته لكل من يتوسل بأي شكل من أشكال العنف، كوسيلة للتغيير والإصلاح أو لاستغلال القانون، مهما كان هذا العنف رمزياً أو مادياً)

جاري السلفيّ

أتذكر صوتك ذاك الشجيّ

وشجاعتك الآسرة

وأغانيك منتصف الليل

عقب القراءة والهمهمات عن الآخرة

جاري السلفيّ

كل يومين تطرق حائط زنزانتي

تتساءل عن حالتي

وتحدثني عن مظالم مستورة

وأمانٍ في الصدر ريانة حائرة

جاري السلفيّ

أنت قلب أبيّ

رغم أنك لم ترَ وجهي ولم أرَ وجهك

غير أن الطريق يوحدنا

ضد طغيان...

ولم يكتمل هذا الشطر حتى اليوم

1982- سجن وزارة الداخلية- الرياض

يا سادن السجن

أقسمت بالله لا خوفاً ولا كذبا

يا سادن السجن أن السجن قد عذبا

صمت ونوم وأحلام منـزهة
من رعشة الروح أو ما زادنا طربا
فاهنأ بنا خير محكومين في قفص
لا نسأل الجند إلا الماء والكتبا
لكن لي في أقاصي الأرض عائلة
قد فارقت - باجتهاد الظالمين - أبا
فلتعطني سبباً كيما أبلغهم
بأنني قد فقدت البحر والسحبا
نقلت من جنة الدمّام في غسق
دامٍ إلى ظلمة الصحراء منتهبا
يا سادن السجن هل هذا الظلام لمن
أسرت به (رؤية) الأحرار وانتسبا
لدعوة الخير والإصلاح في وطن
ظمآن، قد أسملت عيناه وانتحبا
واستصرخت حشرجات الناس صورته
فهلّ من قيضه الأحجار والحجبا
يا سادن السجن إنا قائمون هنا
حتى نرى بارقاً منا قد اقتربا
(حرية الشعب) و(العدل) الرشيد وما
نراه في دفتر (الدستور) قد كتبا
الرياض - سجن عليشة 2004

صورة جانبية

ظمأي دمي
وحجارةُ الوادي لساني
وأرى على زبد المغيب
هواءَ فاتنة يرنّ على حواف الكأسِ
منكسراً فتذهب كالوداعِ لشأنها
وأنا لشاني.
وحدي بلا أرقٍ يؤانسني،

بدون يدٍ تدلَ فمي على الذكرى
وتسأل عن مكاني.
ماذا أخبئ في دنان الوقت من أطيافها الأولى،
وماذا أستعيرُ لها من الأوصاف
إن عزّ المجازُ
وبلّل النسيانُ مرقدَها،
وهرولتِ المعاني؟
ظمأي دمي
وخيالُ مسراها لساني
لكأنما تتنزّل الأحلامُ عاريةً كصورتها،
وغامضةً كنصّ كتابة في الماءِ،
عنواناً يقود إلى فراغ العمرِ
أو "ذهبِ" الأماني،
أسميتُها أنثى فقام "أزيزُها"
من عتمة الأغصانِ،
يلمع مثلَ شكّي في وجود الشيء
أو ذكراهُ،
أذكر يوم قادتني لغرب النهرِ،
كان بريقها عيني
وكان رصاصُها دَيْني،
وحين سكنتُ في النسيانِ
ضاع طريقها مني، وغرّبني زماني.
ظمأي أنا وحصانُ هودجها حصاني
ها إنني أصفو،
فأخرجُها من التابوت،
أنحت نبضَها جرساً من الساعاتِ
نعناعاً و"مَنّا"
وأقول يقتلني هواكِ وأنتِ منّا
ولسوف أدعوها إلى وجعي

لنشربَ،
أو لنلعبَ،
أو لنكتبَ،
ما تَقدّم من رفاتِ زماننا العربيِّ
أو ما قد تأخّر من علامات التداني.
ظمأي فمي
وعلى سواد العين صورتُها،
أليفٌ وجهُها كفمٍ مسَسْتُ،
كلذعةٍ أُولى على طرف اللسانِ.
يا أيها النهرُ الوحيد
أكنتَ تعرفها لَوَ أن جناحَها
قد رفّ فوق الجسرِ،
لو أني أريتُكَ صورةً عنها،
أتذكر خفَّةَ الأشياءِ
خربشةَ الصغار على النهارِ
ورسمَ ميسمِها رهيفاً، ناحلاً، كالشعرِ
كالقبلات في شرخ الصِّبا،
أو رعشة الصبوات
وهي تهلّ من مطر الأغاني؟
هي زهرةُ الكلماتِ،
أولُ ما تعلّمنا من الأسرار والأفكارِ
أولُ سورةٍ في الأبجديّة.
وهي الأساطيرُ التي ما خطَّها بشرٌ
ولا أسرى بها شجرٌ
وما برحتْ تسكّ على الشبابيك الندية.
لمعانَ ما يطفو من المعنى
على شفق القبابِ
وما يفيض عن الهوية.
أَسميتُها أنثى،

فمن ذا لا يرى أنثاه في دمهِ
ومن ذا لا يرى "راياتِ يحيى"
وهي تخرج من عباءتها البهية؟
وهي الصبيَّة والبقيَّة،
والسحابةُ والكتابةُ،
وهي أُولانا وأخرانا
زهورُ "شقاوةِ" الأطفال إن جمحتْ،
وأجملُ ما تُسمّى "البندقية".
ظمأي يدي،
وحجارةُ الأطفال تفتح اسمها
قمراً على تعبي
وتعلن عن رهاني

كان وأختها

الزمان الذي كان لي خاشعاً
كان يضحك مثلي،
ويمشي ورائي.
والزمان الذي صرته راكعاً
يتقدّمني في الزيارات،
يلبس ثوبي،
ويشرب كوبي،
وحين يرى أصدقائي:
يقبّلهم واحداً واحداً
ثم يلعنهم واحداً واحداً
ثم يبكي بكائي!

الأصدقاء

هؤلاء الذين يربّون قطعانهم في حشائش ذاكرتي
هؤلاء الذين يقيمون تحت لساني موائدهمْ،
كالهواء الأخيرْ.

مرة أستعير لهم فرح امرأةٍ في الجريدة
تبكي عليّ،
مرَةً أُطلق السهم نحوي،
فأخشى عليهم جنون الصبيّ،
ومراراً أغسلهم بالحدائق كي يتركوا جثتي في المياهْ،
عارياً كقميصٍ بلا شفتينْ،
نائماً في رفاتي كما أشتهي،
سابحاً في صفاتي كما ينبغي،
وأتوّجني سيداً وأميرْ،
...
ولكِنْ!
كيف لي أن أرى - دون قطعانهم - سترتي،
فوق عرشي الضرير!

* * *

بلاد

أصبُّ وجه البلاد الصحو فاتحةً
فيرقص الحجر الصافي يداً بيدِ
النار مائي
ووهم الوصل مائدتي،
والأسودان ذراعاي التي خلَعَت
غصن الزمان على مشتاقة الجسدِ
شُبّهت في غسق الرؤيا بفاكهةٍ
شوكية اللون تفّاحية الولدِ
لعبتُ بالطين، بيتي من رخام أبي
وخلوتي من تواشيحٍ "بذي عنبٍ"
عنقاء تقطفني من غيمة الزبدِ
ما كنت أعشق ضلع الليل حين سجى
لكنه يوم غاب اشتقت للأرقِ
والريح رمح اشتهاءاتي وخاتمتي

والنهر مرثيتي العظمى
فيا عجبي
لساحلين يقودانِ إِلى الغرقِ
فتّانة الجرح إِنا راحلان إِلى
أعمارنا
وقميص الشمس ثوب غدي
فوضى الغمامة أجسادٌ وأنت بها
قوسٌ
يورّدني القاصي
ولم أردِ
هات السحابة منديلاً نلمّ به
أيامنا وحنين الماء للبَردِ،
والبحر أولّه ماء المجاز فماً
وآخر الحزن في صحرائه،
وكمن
أخنى عليّ ولم أخنِ على لُبدِ
هل هذه ساعةٌ
أم هذه بلدي
قلوصها فضّةٌ في راحتي،
وأنا
زُوِّجت أنثى
فلم تعقر
ولم تلدِ

شِبه خاص

كنْ على حذرٍ حين تعبر بين شاحنتين
وكنْ ماهراً
حين تجتاز سيارةً لست تعرف أرقامها
وتمهلْ إذا مرَّ "باص" طويل.

* * *

فاْعْ فاْعْ فاْعَ..

يا ابن الفراهيدي
كيف نسيت بحر الأطلسي
وكيف لم تتعلم الأسماء خارج بيتك "الشعري".

* * *

واحد.. صفر

يعود الجنود وقد عبأوا في السلاسل بنادقهم
واكتسوا بالحدادْ،
أكانت معاركهم لعبةً؟
أم أنّها لعبة في البلاد؟

* * *

بعد آوانه..

قلت كيفكَ؟
كيف الوظيفة والأمنيات؟
قال: إنّا نعيش إلى أن يجيئ الممات.

* * *

رعود داخل باص

كان ينقصني كي أظلَّ على فرحي:
أن نكون معاً في عروق المدينة مثل
بريق التعارف في الحافلة.

* * *

فوهات الوجد

أمس كنت انتظرتكِ في آخر الشارع المغربي
انتظرتكِ في الشارع المشرقي
التهمت النساء الشبيهات،
كلَّ اللواتي يموج على الظَّهر شعر كثيف.

* * *

تقاعد "الحمام"!

لم أكن حجراً في الفراشْ

كنت أقرأ صمت الحمامات في راحتي

فلماذا تحيلين بهجتها - باكراً- للمعاش؟

كتابات فكرية ونقدية

لست وصياً على أحد

(مقتطفات)

يمكن لي أن أفتح الشباك الآن على سنوات العمر لكن يلزمني الكثير من الوقت والكثير من العباءات السوداء لأقيم الحداد عليها.

أما إذا اضطررت للإنصاف، فسأستدرك بالقول أنها لم تكن خاوية إلى ذلك الحد ولكنها كانت ملأى بأجنحة الأحلام المنكسرة والمتع المجهضة والحكايات الكبرى المتكئة على كراسٍ لا مقاعد لها.

أطل الآن من نافذة البيت فأرى سماء تلبس شفافية السحاب وخضرة الأشجار العالية التي تبتسم كلما نظرت إليها. إنها صورة واضحة إلى حدود الألفة ولكن شباك العمر يتماوج كليل امرئ القيس، ولا يتبقى منه سوى الضباب الذي يتفتح في الذاكرة وهو يحيط بالقرى الجنوبية في بلادنا ليغمرها بحنان رطب ويخنقها بإطفاء مصابيح النهار والليل معاً.

كان أبي كلما ألمت به ضائقة من تقلبات الأحوال يتكئ على مقعده الصخري ويستند إلى جدارٍ صغير أمام بيتنا المطل من أعالي الجبال على الأودية ونثار القرى، فيرفع صوته غناءً شجياً مخضباً بالأسى وتباريح الوجع الدفين ليغني:

(لا بد لك من ردة الله يا تهامة

تنجلي عنك الغمامة

ويكون ويكون)،

ثم يتبعها بأنّة حارقة، وكنت أفاجأ بهذا الصوت العذب لأبي. ذلك الأب الدقيق في تفاصيل حياته والصارم في كل شيء.. فأنسى ملامحه وأدخل في رهبة الصوت والغناء لألامس أولى بدايات العلاقة بين تفتح الطفولة على الشعر والغناء، وارتباط الشعر بحالات الوجد والتنفيس عن ثقل المخبوء، في الأعماق.

في القرى الجنوبية المعزولة آنذاك - التي عرفها بعضكم وعرفنا الكثيرين من مجايليكم على سفوح جبالها من الأطباء والمعلمين والفنيين والتي استلهم من عوالمها إبراهيم نصر الله رواية "براري الحمى" - يأخذ الشعر الشعبي موقعه الجوهري في منظومة الإرث الثقافي فيختص المبدعون بقول الشعر ويختص الجمهور بحفظه وإشاعته وإعادة صناعة ما فقدته الذاكرة منه ليشترك الطرفان في خلق جمالية المتعة والتواصل إلى درجة أنه باستطاعة كل فرد فيها - رجلاً كان أو امرأة - صنع قصيدة صغيرة تعبر عن الحالات الوجدانية الكبرى كالموت والولادة.

تلك القرى - في عتمتها - ما زالت تحضر كلما يحضر الحنين إلى البدايات وإلى شهوات الصبي المقموعة وإلى ذاكرة الشعر البدوية، وحيث أستذكر بداية طعنة الشعر الأولي أبحث في الذاكرة عن تفاصيل يوم شتوي تقاسمته الأمطار والضباب جاءتنا فيه خالتي، ونحن نتحلق حول النار في وسط المجلس ونكرع فناجين الزنجبيل، فجلست وثيابها تقطر من مطر شديد. قالت - موجهة حديثها لأبي - روى لنا اليوم عمي الشاعر حميد المحضري قصيدة عن شاعر تهامي، وقد تحداني في فهم الرد، أما البدع فقد فهمته.

تطلعت في وجه أبي وقالت اسمع القصيدة يا غرم الله:

يا هلّ بن دق

يا هلّ بن دق

ذا صبّ حوبه

ذا صبّ حوبه

توقّفت قليلاً ثم أردفَتْ بالقول أن الشاعر الآخر قد رد على الجزء/البدع بقوله:

يا هل بندق

يا هل بندق

ذا صبحوا به

ذا صبحوا به

ضحك والدي منتشياً بالنص وبمتعة تفسير جناس كلماته فأطلق ذائقتي الأولى على عتبات الجمال التي تطل من أغصان اللغة.

اشتعلت المخيلة في حقل يستمد شعريته من جناس القافية اللدنة التي تتيحها اللهجة الشعبية خارج شبكات النحو والصرف وكان مخيال الشاعر الشعبي الذي يتوسط دائرة (العرضه) منشداً على البديهة قصائده ومطولاته - يفتنني ويعدني بأمجاد قريبة وضخمة..

وحين ظننتني قد تمكنت من عدة القصيدة دوّنت مطوّلتي وقرأتها على والدي، الذي استمع إليّ بحيادية ما زلت أتذكّرها وحين أكملت إلقاءها أمامه قال لي: هذا الكلام "ما هوب سمين" - وهذا مصطلحه النقدي للتمييز بين جيد القول ورديئه - وأكمل: ثم أنك لم تحفظ قصيدتك بعد فكيف ستلقيها أمام الناس؟

والدي لم يكن شاعراً ولكنه كان متذوقاً متميزاً وحافظاً لبعض أجود ما يقال، غير أنه في ذلك اليوم أجهض أولى الأحلام وهيأني باكراً لاستقبال المزيد، فتوقفت عن مشاغبة القصيدة الشعبية ذات المرقى الصعب عليَ منذ ذلك اليوم حتى الساعة، بيد أنني ورغم الهزيمة قد احتفظت في ذاكرتي بشيء غير يسير من افتتاني بالشعر الشعبي، ما لبث فيما بعد أن تسلل إلى بعض نصوصي التركيبية سواء مما أنشأته ضمن سياق القصيدة أو أخذته عن غيري كشكل من أشكال تداخل النصوص.

لم يبقَ من القرى إلا ذاكرة الضباب التي تنسحب على ما تراكم بعدها، وأظنني ولدت في صباح شتائي مضبّب بعد سنوات قليلة من بواكير نيران قصيدة التفعيلة التي حدثنا عنها مدرس الرسم في المرحلة المتوسطة. كان مدرسنا الفلسطيني - الذي فارق وطنه بعد النكبة - مفعماً بالأمل ومجنوناً بالشعر والألوان، وأذكر أنه طلب منا في إحدى حصص الرسم أن نقف دقيقة حداداً في ذكرى الوطن المغتصب وبعد أن دخلنا طقساً لم نألفه قط بدأ يحدثنا عن مسارات النهوض القومي من رماد اليأس في كافة الاتجاهات وأشار إلى الثورة الشعرية التي أحدثتها قصيدة الشعر الحر كدلالة على تجديد روح الأمة ونهوضها، ثم انتقل إلى موضوع الرسم وطلب منا تصميم بطاقة معايدة، رسمنا في قلبها خارطة فلسطين وفي أعلاها كتبنا بخط عريض كلمة "عائدون".

لا أعرف الآن في أي منفى أو معزل من معازل السلام يقيم (سميح العزة) ولكنني أعرف أنه ألقى في ضميري الثقافي معنى يعزّ عليّ نسيانه مهما تطابقت غيوم الأزمنة الثكلى كما بذر في قلبي حلم مرحلة النهوض القومي وتطلعاته الكبرى عبر تجلياته العديدة التي كانت "الناصرية" أبرز علاماته.

ليس من وقود للشعر أعظم من تجارب الحب الصامت بين طرفين لا يجرؤ أي منهما على البوح به فيغدو ناراً لا يخفف من حرقتها إلا إعلان حالة العصيان على التقاليد، وهو ما لا طاقة لي على احتمال تبعاته فما كان للعواصف الوجدانية إلا مركب البوح الشعري والتقيد بشروطه.

تعددت حالات الحب والفتيات يكبرن على عجل فيتزوجن ويتركن لي طعنات الفقد والحنين وكتابة الشعر العمودي، ولكنني، في كل تجربة كتابية، كنت أجدني خارجاً من مخاض القصيدة بكثير من الطيش وقليل من الإبداع وبإحساس يشبه انكسار اللذة يدفعني للاعتراف بأن ما يعتلج في داخلي لا يمكن تمثله شعرياً وفق ضوابط العمود الشعري.

لم أطلع في المرحلة الإعدادية في قرى الجنوب إلا على تجارب قليلة وفقيرة من قصيدة التفعيلة لم تستهو ذائقتي أو تستفز حساسية التمثل أو التقليد، فبقيت في البرزخ الذي صاحبني في رحلتي إلى مدينةَ جدة، حيث انتقلت لدراسة المرحلة الثانوية، وهنا وفي مناخ أفضل تعرفت على بعض نماذج قصيدة التفعيلة في الصحف وعبر برامج الإذاعات فوجدتني أخطو خطواتي الأولى للتعبير عن لحظة تاريخية شخصية وموضوعية، تجلت فيها مفارقات الحب والنكسة واجتمعت عبرها معاناة الفشل العاطفي والهزيمة الحزيرانية، ليدفعني ذلك الصخب والعنف في الطريق إلى حسم خيار كتابة شعر التفعيلة رؤية وتعبيراً، وحينها تلمّست علاقة الشعر بالتطهير وقدرته على خلق المعادل التعبيري الممكن لموازاة فداحة الهزائم ومفارقات الأزمنة.

ما زلت أطل من النافذة على سيرة لا أملك اختيار موقع نظري في ضبابها العصيّ على ما أريد، ولكن ما أستخلصه من مخالسة الرؤيا إلى تمثلاتها يزيدني يقيناً بصواب جدل العلاقة الخاصة بين البناء الفوقي وواقعه الشامل تزامنياً وتاريخياً.

وحين تحضر رحلتي من قرى الجنوب إلى الظهران في شرق المملكة عام **68** م لدراسة الهندسة في كلية البترول والمعادن، سوف لن تنام في طيات الذاكرة تفاصيل تلك الرحلة عبر الصحراء من الطائف حتى سواحل الخليج العربي. لقد عبرتها بالسيارة لكنها عبرتني وأيقظت في وجداني مخيال الشعراء الذين تنقلوا في هذه الأمكنة عبر سهوبها وكثبانها وهضابها وأسكنوها روحاً خلّدها ديوان العرب فتأسست في تلك الرحلة ذاكرة الحنين لطفولة رعي الغنم ومراقبة النجوم في الليالي الصافية التي عشتها صغيراً لتمزج بذاكرة قصيدة الصحراء أو صحراء القصيدة القاسية والحنونة المفرطة في العرى والمغرقة في غموض التوقع والتي تفتح أمامك أرجاءها وتقصي عنك أسرارها. إنها أبدٌ يتبدى وارتحال يتكرر، تلك هي صحرائي التي لا يحجبها ضباب نافذتي اليوم ولا شباك قريتي بالأمس رأيتني فيها أرافق امرأ القيس، وابن الفجاءة وطرفة ابن العبد والأعشى، والشنفرى، والسُلَيك، وأمضي بنفس اللحظات الشعرية والوجودية التي عاشوها.

المكان هنا ليس المكان المتخيل أو الحيّز الثقافي الموجود بالإمكان، وإنما هو وجود بالقوة تلبّسني وشغل حيّزه بحنان، واستدعى محمول الذاكرة الشعرية البدوية وصيّره لوحة جدارية واسعة تتقاطع مع منطق تكوينها ذاكرتي الشعرية فيما بعد.

في الظهران كان المكان مؤثثاً بشكل جيد لإعداد مهندس ولكن الشعر يجيد المخاتلة فيستبدل كتاب الكيمياء بديوان شعر، وكتاب الرياضيات بمجلة أدبية، أو جريدة (ولعلي أستذكر مجلة "أفكار" الأردنية أيام محمود سيف الإيراني، ومجلة "البيان" الكويتية، وثقافة مجلة "الأسبوع العربي" أيام فاروق البقيلي)، وكنت أجيد المراوغة فأجمع بين الألداء في السنوات الأولى بنجاح، لكن اللعبة استشكلت عليّ في السنتين الأخيرتين حتى أقسم الشعر أن ينتقم من الهندسة بعد التخرج.

كان المناخ في الكلية منسجماً في ظاهره إلا أنني تعرفت على قلق بواطنه، وبعد أن كان الوعي متشظياً فكرياً واجتماعياً وإبداعياً، أصبح الآن يبلور ركائزه الأولى ليحل الشعر كقاسم مشترك بين الحب والوطن، والوعي والعروبة، والالتزام والهموم المرحلية.

نشرت قصائدي ابتداءً من عام 1970 ميلادي، وبالقرب من رواد قصيدة التفعيلة في بلادنا - العلي والقصيبي - أسهمت إلى جوار شاعرين آخرين هما سعد الحميدين وأحمد الصالح في توطين مفهوم قصيدة التفعيلة وتوسيع دائرة انتشارها وتأثيرها.

وقد بدت لي القصيدة كفاعلية ممكنة لاختراق السائد وإعلان التساؤل حول كمال المنجز، وفتح الأبواب العلنية لتأسيس ذائقة جديدة تؤدي دور المفاعيل الثقافية والاجتماعية الأخرى الغائبة في وسط يعاديها ويصمها بتخريب لغة القرآن.

ولسنوات عديدة أصبحت قصيدة التفعيلة معركتي الأولى مع البنية المحافظة سجالاً وكتابة، حتى كادت أن تغدو قضية التزام وتحزّب.

ورغم الطبقات الكثيفة للذرائع الاجتماعية، فقد كانت المؤسسات الرسمية أكثر تسامحاً وسعة أفق منها، حيث أفسحت المجال في الصحافة والحياة الثقافية - في حدود ملائمة - لأساتذة الجامعات والمثقفين من إخواننا العرب في المساهمة بدورهم التنويري في نشر إبداعاتهم ومساهماتهم البحثية والنقدية.

وكان للعديد منهم دوره الهام في إقامة جسر تثاقفي مع مستجدات الإبداع ومدارس النقد الأدبي بين الداخل والخارج، وحيث فتحت الصفحات الأدبية أبوابها لفاعلية تأثير عميق نعده تأسيساً لحياتنا الثقافية المعاصرة، وللوفاء فإن الذاكرة تستحضر منهم: الدكتور أحمد زكي، وجواد الطاهر، وفواز عيد، وراضي صدوق، وسباعي عثمان، وشاكر النابلسي وعبد الرحيم نصار، وسالم النحاس، ونسيم الصمادي، والدكتور الشنطي، وراشد عيسى ومحمد القيسي - فيما بعد - وسواهم خلال فترة الستينات والسبعينات.

بيقين قاطع أجزم أن المشهد الشعري إبّان مرحلة الستينات والسبعينات قد شكّل أرضية حساسية الذائقة الجديدة التي استمدت بؤر مرتكزاتها الفكرية والجمالية من المشهد الشعري ذاته، ودليلي على ذلك خاص بواقع ساحتنا الثقافية في المملكة التي ظهر فيها شعراء شكلوا سياقاً منسجماً في الرؤية والتعبير خلال السبعينات والثمانينات تأسيساً على قراءاتهم لمنجز تجربة الشعر في البلاد العربية الأخرى حتى غدت أصواتهم جزءاً من التيار الشعري العربي العام.

وفي سنوات الجامعة قرأت تجارب العديدين من شعراء قصيدة التفعيلة من السياب إلى البياتي وتأثرت كثيراً بمحمود درويش ونزار قباني في بادئ الأمر، غير أنني انحزت فيما بعد إلى سعدي يوسف. ولقد أنفقت زمناً طويلاً وجهداً في القراءة لتجاوز تأثير درويش ونزار لأن صوت كل منهما يفضح المتلبس به منذ العتبات الأولى، فيما تدشن تجربة سعدي بتنويعاتها المختلفة أبواباً للآخرين لاقتفاء أثره والتأسيس على فتوحاته.

وهذا الشاعر الكبير كثير التجريب متعدد الطرائق التعبيرية منفتح في قصائده التركيبية على الأصوات المختلفة (الشعر الشعبي، مقاطع عمودية، مقاطع نثرية، تعابير يومية) انتقال متمكن بين البحور، غنائية شفافة وقدرة على هضم الأفكار والشعارات والمصطلحات السياسية وجعلها عناصر منسجمة مع شعرية النص، ولعله أهم الشعراء الذين التفتوا إلى اليومي والمهمل والعابر وأبرزهم في الاشتغال على قصيدة اللفتة الصغيرة، واللمحة المتأملة - لانفتاحه على الشعر العالمي - وترجمته لبعض دواوين الشعراء، حيث أسهم بشعره وترجماته في استحثاث ظهور حساسية جديدة أصبحت الآن أرضاً خصبة لكتاب قصيدة النثر. ولكل هذا أصبح "معجز سعدي" مرجعيتي الشعرية لفترة من الزمن، وأصبح لزاماً عليّ إلغاء نشر ديواني الأول في 1974 م وإخفاء قصائده لأن أصوات درويش ونزار كانت تترصدني في مقاطعه.

لقد تعلمت من سعدي جماليات التعددية والتجاور، مثلما تعلمت منه ومن غيره نحو القصيدة

التركيبية واستدعاء مخيال الذاكرة الشعرية أمكنة ومفردات وأشخاصاً، وأصبحت هذه العناصر قواسم مشتركة في تشكيل نصي الشعري، لكنني لم (أتعلم) منهم غزارة الإنتاج، لأسباب عديدة لعل أهمها الانشغالات المتشعبة والمتناقضة التي عملت عليها خلال حياتي فلم أنجز سوى ثلاثة دواوين بعد تجاوز تجربة الديوان الأول المجهّضة. وقد تأخر نشر أولها ((رياح المواقع)) حتى عام 1987م، فيما نشرت الثاني ((بياض الأزمنة)) في عام 1995م، وقد نشر الثالث ((بأجنحتها تدق أجراس النافذة)) عام 1999م.

لست وصياً على أحد أو نائباً عن آخر، لأعيد الهيبة "لأيديولوجيا" التقدمية التي أصبح الحديث عنها اليوم مشوشاً وقريباً من حدي الطعن أو النسيان، أما في تجربتي فقد كانت باباً مشرعاً على استلهام عناصر وأسس النهضة، ومكونات الحداثة، وأفقاً لتغيير ميزان النظر إلى الأصل والنهاية والتركيبة والمسار نحو الغاية الحلمية التي تنشد إرساء مثالات العدالة الاجتماعية، والمساواة، وحرية الإنسان و"أن نسير على الأرض دون انحناء" كما يقول الشاعر السعودي محمد العلي.

ولعل خصوصية التعاطي مع تلك الأيديولوجيا تثاقفاً وممارسة ومغامرة في وسط اجتماعي ومؤسسي محافظ مُشبع بالسلطة جعل منها افتتاناً سرياً بالجوهر والحلم، وزهداً طهرانياً يفترق عما يصطرع عليه الآخرون أحزاباً وجماعات من مغانم علنية في الدول الأخرى.

لقد كانت الأيديولوجيا في لحظتها التاريخية تلك، ومكانها الخاص بي، فضاء لحرية التساؤل الذاتي والجمعي، وإجابات على تشوّف ظامئ أضحت فيه مطراً يسح على التربة العطشى في صحرائي التي عشقتها فأورثتني إيجابية القلق الذي يغدو في الفضاء المغلق قريناً للامتلاء بقناعة أو تفاصيل خارطة، ويأخذ هيئته كيدٍ، تدل على الطريق.

كان عام 1974م، بدءاً لمخاض تجربة حياتية وتثقيفية وإبداعية حسم الشعر فيها صراعه مع عدوه اللدود، حيث عملت مهندساً في أرامكو في عمل لا هندسة فيه واجتهدت في تصفية صوتي الشعري من آثار أساتذته، وبدأت بتأثيث المعنى بالسفر إلى عواصم الثقافة العربية من بغداد إلى القاهرة والبحث عن مصادره الفكرية في مظلتها فكف الشعر عن احتكار أحادية مرجعية المضامين النهضوية وبقي مضماراً للتجليات والمكاشفة.

وفي ذلك العام أيضاً، أشرفت على تحرير ملحق جريدة "اليوم" الأدبي المعروف باسم ((المربد)) وحتى عام 1981م، حيث كان واحداً من الملحقات الأدبية المتميزة في تلك الفترة، بانفتاحه على الثقافة الجديدة والهم الاجتماعي للأدب، والانحياز لقصيدة التفعيلة وتشجيع بواكير قصيدة النثر في بلادنا.

وكان لا بد لتبلور الرؤية الفكرية في خضم مرحلة الطفرة المادية التي عاشتها بلادنا والتي صاحبها فرز اجتماعي وثقافي حاد، من الذهاب في البحث عن أفق آخر حتى الأقاصي - حيث ((أدخلتني "يد الله" في التجربة)) بحسب أمل دنقل. وأن يتجدد مفهوم الالتزام والممارسة الحركية، وأن يتم دفع الضريبة أيضاً.

أتكون هي الأيديولوجيا التي فعلت كل ذلك؟

ربما، لكن الأمر مضى ضمن حتمياته ومتطلباته المرحلية سواء كان استجابة لحركتها أم تصادياً مع معطيات الواقع، وسواءً رضينا من الغنيمة بالإياب، أم خرجنا من التجربة بالهزائم. ولعل روايتي الوحيدة "الغيمة الرصاصية" التي أصدرتها عام 1998م، تتقاطع في بعض أجزائها مع تفاصيل تلك التجربة وتداعياتها الأخرى.

وبعد تجربة خاصة وعنيفة مررت بها طيلة عام 1982م، لم يعد ممكناً إشرافي على ملحق جريدة اليوم أو سواه من الأنشطة الأدبية، فحمدت للظروف القاسية "رحمتها" حيث تفرغت من عناء

نشاطين لهما صبغة الالتزام. وقد كانا - رغم المتعة - يستنزفان وقتي، فتخلصت من تراث الهندسة نهائياً وأخلصت للعمل في البنك ومتعة التجوال بين كتبي، لردم بعض الفجوات المعرفية بمتابعة ما أمكن الاطلاع عليه من مطر النتاجات الأدبية، إبداعاً ونقداً، وخاصة بعد انشغال ساحتنا الثقافية في المملكة في أواسط الثمانينات بسيل من المدارس النقدية الجديدة من البنيوية إلى التقويضية، وظهور ملامح الصراع بين حساسية أدبية تستمد مرتكزاتها من الحداثة إلى حساسية مغايرة تنتمي إلى ما بعد الحداثة والذي تجلى بشكل سافر في وقائع السجال ما بين شعر التفعيلة وقصيدة النثر.

وما دمت قد بلغت في حديثي - الذي أردته قصيراً فانفرط - إلى تماس الصراع بين هاتين الحساسيتين، فإنني أود الإشارة إلى تمايز دلالي - لديّ - يفرق بينهما في واقع شعرنا العربي المعاصر بمعزل عن المطابقة مع أصولهما في الغرب، كما أود التنبيه إلى أن هذا التوصيف لا يراد له أن يكون حكم قيمة وإنما هو تحديد إجرائي للتمييز بين المرجعيتين.

وبالرغم من تعددية معاني الحداثة وما بعدها إلا أنني سأصف الشعر المنتمي للحداثة بقدر انحياز رؤيته إلى العقلانية، والحرية، وقيم العدالة الاجتماعية، والمساواة، والانتصار للتقدم والرفع من مكانة المرأة. وفي الجانب الآخر أصف الشعر المنتمي دلالياً لحساسية ما بعد الحداثة بقدر ما تعلنه بنيته النصية من علامات التشظي والتشتيت والمجاورة وموت المعنى وغياب بوصلة الرؤية الاجتماعية، ولذا فإن هذا التوصيف سيشمل شعراً من قصائد التفعيلة مثلما يطال شعراً من قصيدة النثر، حيث تغدو قصائد الماغوط وفوزية أبو خالد نصوصاً حداثية رغم انتمائها لفضاء قصيدة النثر.

ولعل عدم القدرة على التعاطي مع حاضرنا العربي المأزوم - بإعادة إنتاج آليات استبداديته - والمصاحب اليوم لانهيار المشاريع الكبرى - أو الحكايات الكبرى بحسب "ليوتار" -، وبروز ظاهرة العولمة التكنولوجية والاقتصادية وطغيان آليات الاستتباع السياسي والثقافي، وهو ما يدفع الكثيرين من مبدعينا إلى الإيغال في الفرار من كتابة الأمل إلى كتابة الصمت كاحتجاج مهذب ضد اقتيادنا إلى جحيم لم نختر طريقه ولم نُستشر في إمكانية صنع بدائله - وإن انغمسنا في أمل المحاولة حتى الرُكب - طيلة نصف قرن.

هكذا أطل على سنوات لم يبق منها إلا الوشم في ظاهر القلب، حيث يتماوج المكان، وتتلامع - كقناديل تحت المطر - أزقة القرية الحجرية وطرقاتها المتعرجة نحو الوديان السحيقة التي كنا نناجيها في مواسم البذار والحصاد ونحنو عليها في تشققات تربتها حين يغيب الغيث، وهكذا تغيم طفولة القرى لتفسح المكان لمخيال الصحراء والبحر وشوارع المدنية.

والحق أن المكان بالنسبة لي عالم ملتبس لا يشفيني منه الحنين إلى القرية وعالمها، ولا الالتقاء بالمدنية ومستجداتها، ولا الاكتفاء بالصحراء ولذعة بداوتها المفقودة، ولكنه - في ظل ما يتماوج من إحساس به قد تجاوز موضوعية الظاهرة المكانية - أي كونها ظاهرة هندسية - ليحل مكانها ديناميكيته الخاصة بحسب "باشلار". ولذا تنهض بدلاً عن المكان ذاكرته التي أصبحت معي استعادة لثقافة بدوية الصحراء الشعرية، وحنيناً صوفياً إلى بقايا صور القرى المنسية، ومراوحة سكونية بين معايشة حداثة المدن المؤجلة والاستمتاع بخدماتها الاستهلاكية المابعد-حداثية المتوفرة.

وإذا جاز لي الحكم، فإنني أعدّ هذا التشتيت الوجداني المترحل موقفاً إنسانياً وإيغالاً عاطفياً مفارقاً للتعصب بكافة أشكاله سواءً للمنطقة، أو المكان المحدد، أو الوطن أو لتحزب أعمى ضد الآخر، وأرى في ذلك ((الترحل)) سيماء بحث دائم عن أمكنة فاضلة لمّا تخلق بعد، لذا تتشكل صوري الشعرية كبديل متخيل له، أو كتأجيل للقبض على حميمية لذعة عناق المكان المؤمل استنطاقه.

تلك هي الأرض التي تنفتح أمام تعددية بنية الشعر عندي وعدم انحيازها للشفوي - المقموع في طفولتي - ضد المكتوب، ولا انتصارها لتشكيل شعري بحد ذاته ضد آخر، لذا تتجاوز في تجربتي كل

الأشكال.

لست من هواة قتل الآباء، ولا وأد الأبناء، ولذا كنت في صراعي مع أصنام قصيدة العمود أسعى أولاً لتثبيت حق قصيدة التفعيلة في الوجود وحق الشعر على شعراء العمود أن يطوروا تجاربهم مثلما فعل البردوني ونزار مثلاً لتتواءم مع مستجدات لغة العصر. وفي نفس الأفق سعيت إلى ترسيخ الذائقة لتقبل قصيدة النثر إبداعاً وتبشيراً، مثلما أستمتع الآن بقصيدة الشعر الشعبي الحديث الذي يقوم على مرجعية مكتوبة منفتحة على اللهجة المحكية العامة للشارع العربي، إذ أن الأصل عندي في الإبداع هو الحرية.

من أجل أن يبقى الشعر (كروح تتفتح شكلاً) - بحسب "باشلار" - علينا أن نستقبل أجمل ما تبشر به مفاهيم ما بعد الحداثة من افتتانها بإشاعة مناخ التعددية وحق الاختلاف، وأن نحِلّ فضيلة المنافسة في موقع المصادرة والإقصاء، حيث ينبغي تكريس المنبر الشعري كفضاء مفتوح لقصيدة عمودية معاصرة أرسى أسسها الأخطل الصغير، وسليمان العيسى، ودشن مدائن حداثتها نزار قباني والبردوني، وأن يكون أكثر تهيؤاً لتطوير معمار قصيدة التفعيلة فيما يبدعه درويش وسعدي يوسف وشوقي بزيع، بشكل خاص، وقاسم حداد ومحمد العلي ومحمد الثبيتي في أعمالهم الأخيرة، وأن يتسع المنبر ذاته لدهشة نافورة صورة قصيدة النثر المخترقة للسائد فيما يبدعه الماغوط، وأنسي الحاج، وعباس بيضون، وعبده وازن، وفوزية أبو خالد، وإبراهيم الحسين وغيرهم.

وحين تتم استعادة صراع حساسية شعرية تنتج معمار القصيدة العمودية المتمرسة خلف مرجعية الذائقة التقليدية ضد أخرى تشكل فضاء قصيدة التفعيلة خلال الستينات والسبعينات فإن الصراع لم يكن شعرياً وحسب ولكنه كان في أعماقه ثقافياً يطال الخصوصية والهوية ولذة الأعياد. وحين ارتبطت قصيدة التفعيلة في اشتغالها على تشكيل بنية النص باستمرارية إيقاع التفعيلة وبإعادة إنتاج فاعلية رموز الحضارة والثقافة وتاريخ الأمة، فقد شغلت موقعها الشاغر سلفاً في الوجدان الجمعي العربي وفي ضميره وذائقته الجديدة، وبذلك تم حسم الصراع حول مشروعية حضورها في المشهد الشعري، منذ السبعينات، لا على أنقاض القصيدة العمودية وإنما إلى جوارها.

والحق أن قصيدة التفعيلة قد نجحت إلى حد كبير في تمثل طموحاتها دلالياً رغم أنها لم تبلغه جمالياً حيث نراها اليوم ومنذ أواخر الثمانينات قد اقتربت من نفق النمطية الواضحة في الإحالة المرجعية والقاموس والرموز وبؤر الاستلهام وصيغ بناء الجملة الشعرية.

والحق أيضاً أن هذا التعميم يطال تجربتي الشعرية مثلما يصدق على شعر الكثرة من شعراء التفعيلة!

واليوم تتجلى ملامح صراع آخر بين حساسية التفعيلة بمحمولاتها الحداثية وبين حساسية تجربة قصيدة النثر بتجلياتها الما بعد حداثية. وإذا كانت الموسيقى هي عنصر التفريق الحاسم بين الشكلين فإن الفارق الجمالي المتمثل في بلاغة تشكيل الصورة (انزياحاً وتفتيق مجاز، وزاوية نظر للأشياء، وبناءً للجملة الشعرية) يميل لصالح قصيدة النثر، ويؤهلها للقبض على ذرى طموح قصيدة التفعيلة التي حلمت بإنجاز نسق شعري على غير سابق مثال، لكنها لم تبلغه بعد.

إن قصيدة النثر تؤسس لشعرية المدينة الكونية وسيادة الثقافة المكتوبة على الشفوية، فيما تتمثل مفهوم القطيعة مع التراث الشعري العربي باطراحها الموسيقي وتأثيث الحساسية الجديدة بمرجعية مغايرة تجد أصولها في ثقافة الغرب بامتياز، وتمضي هانئة بنقش القصائد على أعشاش العزلة النائية.

وهنا يطل السؤال التالي برأسه قائلاً: ما موقع الذاكرة الشعرية العربية والقارئ المهتم المسكون بها، وأين ملامح الخصوصية وسحنة الهوية التي سيرثها الأحفاد ما دامت قصيدة النثر قد غدت

درساً شعرياً في ممارسة القطيعة وتغييب ضمير الهوية.

وللتحايل على السؤال من خلال تجربتي وطموحي، أقرر:-

أولاً:- أن هذا سؤال ثقافة وليس سؤالاً عن الشعر، ولذا فالزمن هو الذي سيحسم أمر صيرورة الذائقة وتحديد عناصر ثباتها ومتغيراتها.

ثانياً:- أعدّ نفسي من ربع قرن من المهتمين بقصيدة النثر كقارئ ومن الذين لا يأنفون مزاحمتها في الساحة الشعرية، والأهم من ذلك هو إيماني العملي بحق مبدعيها في الوجود! وإعجابي بدور المتميزين منهم في إنجاز تجربة غنية ومدهشة تُعدُّ إضافة حقيقية لسياق حركة الشعر العربية.

ثالثاً:- أما حين أنظر للسؤال في صيغته كسؤال ثقافة فإنني أجزم بأن دائرة المتلقين ستتقلص حتى تبلغ حدود منتجيها فقط، وحين أنظر إلى احتمال أن تكون هذه التجربة هي صورة مستقبل الشعر العربي، فإنني أرى بحنان إلى ذاكرة الشعر العربي وهي تنشج أمامي.

ولذلك، وحيث لا يمكن للإنسان أن يحرث غير أرضه، أجدني بعد أن استنفدت انتماءاتي السياسية، منتمياً لقصيدة التفعيلة وها إنني منذ سنين أعمل كمن يتملّى جزءاً من الفضاء العالي الناهض أمام شباكي، لكنني كلما نظرت إلى الأسفل وجدت نفس الحائط يكرر صورته بأشكال مختلفة ويعزلني عما خلفه. لقد ألفته حتى غدا تمثالاً من شجر العائلة، ويبدو أنه لا خيار لي إلا بهدمه أو فتح ثقب صغير فيه لكي تكتمل رؤياي.

هكذا أنظر إلى حساسية شعرية راكمت كمها وكادت أن تستنفدَ ما أدركته من كيف، وكان علي أن أبحث عني في تشكيل حساسية أخرى لعل مخيالها البعيد قد خط حروفه الأولى في بعض قصائد ديواني الأخير (بأجنحتها تدق أجراس النافذة).

ولكي يجدد المرء تكوين ذائقته عليه أن يتعرى من جديد، ولكن، ولأن المرء لا يولد مرتين، فإن عليه البحث عن نسق يحفظ للخبرة موقعها، وللعورة ما يسترها، فيم عليه أن يتيح للعين رؤية ما خلف حائط الجيران وتجاوز ما كدسته فتنة الألف وعطالة الاعتياد.

ومع احترامي لما يستمتع به العموديون في قصائدهم من جماليات الزوجات المعمرات، ومع حدبي على ما يحتمله شعراء قصيدة نثر ما بعد الحداثة من طيش عشيقات يرين العالم مفتتاً ويجعلن من انفعال الشاعر به مفتتاً هو الآخر، فإنني أرضى بمساكنة قصيدة التفعيلة كحبيبة معاصرة لم تستنفدْ شبابها بعد.

وإذ أقف بدون جدار يسندني سوى ثقتي بأن الغد يعد بأكثر مما يومض به الأمس، وبأن الاشتغال على خبرة تراكمت يحملني على القول بأن تجربة قصيدة التفعيلة هي خياري الشعري، لأنها شرفة مفتوحة على كل الأمداء وفضاء منفتح على منجز الذاكرة الشعرية العربية فيما يخص الموسيقى وعلى شمولية الرؤيا وخيار التحديث، وإشراك المتلقي في العملية الإبداعية، كما أنها تتسع لتهضم كل الأشكال الأخرى داخل تركيبتها البانورامية المرنة.

وبعد...

وبرغم أن الحداد ما زال يليق بإلكترا، وبحيفا، وبالأصدقاء، وبي، حيث تموج العتمة حول هزيمة السياسي وانكسار الثقافي وتواضع حصاد عشب الشعر وسنابل الشعرية، إلا أن عيناً صغيرة، تدّعي الإبصار، ما زالت مسكونة في قلبي بكهانة الضمير وودع العرافة وبهاء وجوه الحبيبات، وذاكرة شعر الصحراء، و"كرت" المعايدة الفلسطيني، وما برحت تخاتل ضباب المخيلة وغبش اليقين

(مقتطفات)

ليس هناك أكثر مراوغة من مصطلح "الحداثة" حينما يتم توظيفه في الحقل الأدبي، لأن ما تنطوي عليه مرجعيات تسميته، في أبعادها الفلسفية والفكرية والجمالية، يفتح الباب أمام جهنم التفاصيل، ويغوي كلاً منا بالادعاء بمشروعية سك مصطلحه الخاص به.

ورغم ما يحمله أي مصطلح من سمات القيد، إلا أن تدثر مصطلح الحداثة بأردية عديدة في مسار تاريخ تحولاته الطويل، من القرن الخامس الميلادي حتى عصر الأنوار، ومن بلزاك وبودلير إلى أيامنا هذه، قد هيأه لأن يكون ضد القيد، بكثرة ما حمله من مفارقات، حيث يمكن له أن يضم المعنى ونقيضه، والشيء وابن عمه، فتختلط الحداثة فيه بالتحديث وبالتجديد، وبما بعد الحداثة، وتتقاطع الواقعية معه في المرجعية البشرية للمعرفة وتختلف معه في وظيفية الأدب، وهلمجرا..

وحيث أن المصطلح سيعيق تدفق سرد التجربة، ورغم أنني أفضل بدلاً منه، التحدث عن التجربة الشعرية الجديدة في السعودية، إلا أنني، ولسببٍ إجرائي مهم في نظري، سأصطحبه في رحلتي على مضض، وسأرجئ الحديث عن تجليات مفارقاتٍ التسمية وضجيجها أيضاًفي المملكة، إلى موقع تالٍ.

وإذ أجيز لنفسي، اليوم، اختيار ما أميل إليه من مكونات مصطلح الحداثة وحمولاته المعرفية المتشعبة، فإنني سأتفق مع من يرى أن الحداثة الأدبية، في أبسط صيغها، هي وعي التجديد في الكتابة عبر تمثل رؤياها التغييرية الشاملة في مرجعياتها الفكرية والفلسفية والاجتماعية والفنية.

وقد تزامنت تجربة كسر عمود الشعر وتبلور النص الشعري الحداثي في المراكز الثقافية العربية، مع بروز مشروع حركة التحرر الوطني في العالم العربي لبناء الدولة الحديثة والمجتمع الحديث، والذي قادته مختلف النخب والتيارات الفكرية والسياسية، إلا أن الظروف الخاصة ببلادنا سياسياً ودينياً وثقافياً، كانت تعمل على ترسيخ آليات الممانعة ورفض كافة أشكال الاختراقات الفكرية والإبداعية، ومن ذلك موقفها من التحديث ومن قصيدة الشعر الحر.

وحيث أن عنوان حديثنا هو "الحداثة الشعرية في الخليج والعربية" من خلال التجربة الخاصة، فإنني أرجو أن تسمحوا لي للتوقف أمام ما يبدو من تماسك براق في العنوان، لكي أوضح أنه انطوى على تعميمين لا أتفق معهما، وذلك لأن مخاضات التحديث والحداثة الشعرية في المملكة - وبالرغم من التجربة الرائدة للعواد- كانت تتعرض دائماً للإجهاض وفقدان المقدرة على التشكل كتجربة حداثية، فأصبحت مجرد صدى لتجربة كسر عمود الشعر الذي أنجزه كوكبة من رواد الشعر الحر في البلدان العربية الأخرى، وكان منجزها في هذا الصدد وحتى منتصف السبعينات، ألصق بمفهوم التجديد منه بمفهوم الحداثة الشعرية.

أما الثاني، فإنه يتعلق بوهم الترابط الجغرافي وعلاقته بالترابط الثقافي، وأحب أن أؤكد - حسب تجربتي باعتبارها حكماً هنا- أن الترابط الجغرافي لم يعكس ترابط حركة التثاقف، وتبادل صدى السؤال والإجابة، بين مثقفي دول شبه الجزيرة العربية، ولم يتحقق إلا على المستوى الشخصي المحدود، وأن تأثر الكثيرين من الشعراء السعوديين بمراكز الثقافة العربية، كان أوثق من تأثره بمثقفي دول الجوار..

وتأسيساً على هذه الخطوة الاستدراكية المبكرة، سأتحرر من أعباء السياحة المعرفية في محيط التبادل الثقافي بين دول شبه الجزيرة العربية، وأفتح الباب على مصراعيه لكي أتكئ على الجزء الأخير من العنوان "تجربة شخصية"، لكي أدخل إلى فضاء متعة سرد تجربة شعرية شخصية، بدأت في بيئة فقيرة، كان أقراني فيها هم أول من فك الحرف في تاريخ القرية، وحيث لم أكن أستمتع بالمقطوعات الشعرية البائسة التي ترغمنا مناهج التعليم على حفظها، فقد كنت أقفز على الأبيات الشعرية التي أمر عليها خلال قراءتي لسيرة الزير سالم، ولبعض مقتطفات من ألف ليلة وليلة، إلا

أن محيطي العائلي الصغير، كان يحضن بذرة احتفاء خاص بشعرية قصائد الشعر الشعبي التي يتوارث حفظ نصوصها الأبناء عن الأجداد، وكان إنشاد والدي لبعض هذه القصائد، قد نبّه وجداني إلى جماليات ما تحتضنه اللغة بوجه عام والقصيدة الشعبية بوجه خاص من أسرار، تتضافر في الصورة الرمزية التي يحملها النص وفي ما يمكن أن نسميه بشعرية القافية المعقودة على مجاز المقابلة.

وإذا كانت الكتابة الحداثية تبحث عن كمالها في الجديد المختلف، فإن لثغة البدايات لا تنهض إلا على محاكاة القديم الناجز، ولذا تنبهت حواسي التذوقية إلى الشعر الشعبي، فبدأت أحاكي ما أسمعه أو أحفظه منه، ولكن صدفة إطلاعي على كتاب عبدالله بن إدريس "شعراء نجد المعاصرون" في مرحلة الدراسة المتوسطة عام 63م قادتني لتذوق شعراء الفصحى، واستحثني لكتابة محاولاتي الشعرية الغزلية الأولى بالفصحى، كما أن الكتاب نفسه قد شد انتباهي ومشاعري إلى ما حواه من قصائد حملت هم القضية الفلسطينية، والجزائرية، وعزز انهمامي بالقضايا القومية والتي كان والدي -العائد من تجربة عمالية غنية في أرامكو في أوائل الخمسينات- قد بذرها في نفسي حين يغرز أذنه في واجهة المذياع لالتقاط الأصوات المشوشة لنشرات الأخبار. وقد غدا ما ينفعل به من أخبار ثورة الجزائر، وتأميم قناة السويس، والعدوان الثلاثي على مصر مقدمة تأسيسية للتأثر برمزية عبد الناصر والناصرية منذ زمن الطفولة.

وحين ارتحلت إلى "جدة" لدراسة المرحلة الثانوية، تعرضت إلى ما يشبه "صدمة الحداثة" في واقعها المادي والاجتماعي، حيث تحضر كثافة الأشياء وبعنف، في حركة السيارات، وزحمة الناس، وأضواء الليل، وأحجام البنايات، وما تحويه الأسواق من معروضات، مما أفقدني الكثير من توازني إزاء هذا التعدد والانفتاح، وأغواني بالدخول في تجربة حب مجنونة مع بنت الجيران، جعلتني أنسى طفولة القرية وصباياها البسيطات، كما دفعتني للاحتماء بالشعر من لهيب الشوق والعواطف المقموعة.

وفي مكتبة مدرسة الفلاح الثانوية، تيسر لي الإطلاع على بعض الصحف، فقرأت شعراً للعواد، وعبدالله الفيصل، وحمزة شحاتة، وأحمد قنديل، ومحمد حسن فقي، وحسين سرحان، والسنوسي، وابن خميس، وكلها أسماء لم أكن قد سمعت بها أو استمتعت بشعرها من قبل، وهذا ما يؤكد على أمرين هما: إن المؤسسات المحافظة قد كرست احتكار ونشر رؤيتها التقليدية المنحازة للقديم ضد الجديد، وللمحافظة ضد الانفتاح، وذلك من خلال سيطرتها على المؤسسة التعليمية، أما الأمر الثاني، فإنه يتعلق بقصور الممكنات الاقتصادية والتقنية والإعلامية، وعجزها عن القيام بدور التواصل بين أرجاء البلاد المترامية الأطراف، حيث أدى ذلك إلى تعميق فاعلية الانقطاع بين جزر المناطق المعزولة عن بعضها. وإذا كان الأمر كذلك داخل بنية الوطن الواحد، فإن هذا يؤكد ما ذهبت إليه من غياب حركة تثاقف نشطة وملموسة بين أقطار شبه الجزيرة، إلا في إطار حدودها الفردية، والتي تجلت لاحقاً في علاقة شعراء قصيدة النثر في المملكة بالتجربة الشعرية في البحرين، وخاصة ما يتعلق منها بإنجاز قاسم حداد.

ولم يكن إطلاعي المحدود على بعض الصحف المحلية، خلال تلك الفترة في "جدة"، على بعض قصائد الشعر الحديث المنشورة -نقلاً عن مجلات عربية- لنازك الملائكة، والسياب، ونزار قباني، كافياً لاختراق ممانعة الذائقة القروية المحملة بإرث الإيقاع الموزون، مما حال دون استجابتي لكسر عمود الشعر.

بيد أن هزيمة حزيران 67م، وانكسار تابوه الحلم الناصري أمام النقد الصادق والمجاني معاً، وما أحدثته قصيدة نزار قباني "هوامش على دفتر النكسة" من دوي في الشارع العربي، قد أجهزت على حواجز التقليد المنيعة، وحسمت ترددي، لكي أنحاز لتجربة كتابة قصيدة الشعر الحر منذ عام 68م، وغدت كتابة قصيدة التفعيلة بالنسبة لي معادلاً لممارسة حرية التعبير، وأداة للتغيير، وهاجساً

يجمعني بكل من يكتبها حتى وإن اختلف معي فكرياً.

وحيث تغدو تجربتي مجرد "عيّنة" من مئات التجارب، فإنه من اليسير علينا القول بأن سطوة البنية الثقافية المحافظة في أي مجتمع لا تستجيب - دون مخاضات عسيرة- لضرورات التحديث، ومستلزمات فضاء الحرية.. حرية التفكير والتعبير، بالقدر الذي تستجيب له "ذات محددة"، داخل نفس المجتمع، بل أن تلك البنية القارة لا تتوقف عن لعب دورها القمعي، وبكافة إمكاناتها المؤسساتية، ضد الاستجابة الفردية أو الفعل التنويري أو المغامر باتجاه الحداثة، مستخدمة في ذلك عدتها التاريخية المتمثلة بالاستنجاد بالمقدس: إما الديني، أو الوطني، أو القومي، بحسب الزمان والمكان.

ولما كان قدر الجغرافيا قد جمع في بلادنا رمز المقدس، وخطابه العقدي، وبناه المحافظة، فإن خطاب الحداثة- الذي يرتكز على استنهاض فاعلية الحرية ضد القمع، والعقل ضد الخرافة، والعلم ضد الجهل، وشك السؤال ضد طمأنينة الإجابة والنزعة إلى مغامرة الكتابة الإبداعية على غير سابق مثال- سوف لا يجد موقعه مؤثثاً في فضاء كهذا، بل أن خطاب الحداثة نفسه، سوف يضطر إلى قمع ذاته، أو تمويهها، بلباس شكلاني جمالي في أحسن الأحوال، ويصبح بذلك تمظهراً لحركة تجديد، وتحديث، ونزوعاً نحو الحداثة، وليس تعبيراً عنها، ولم يخرج عن ذلك السياق إلا القلة في واقعنا الأدبي، حيث يقف محمد العلي في مقدمتهم.

* * *

كنت أكتب بداياتي الشعرية، وأراقب ما ينشر في صحفنا المحلية، وكان الصمت والعزلة يترسخان في مكوناتي النفسية والكتابية، ويتواطآن مع سكن الطلاب في كلية البترول التي تشبه قرية موحشة معزولة في صحراء، لتأبيد حالات الصمت والانقطاع والانهماك في عُجمة كتب الهندسة، مما جعل التمرن على كتابة الشعر معادلاً وحيداً للتواصل مع الحياة، والتطهر من حالة حب يائسة، حفزتني لكتابة نص شعري شبه يومي، مما دفع بزميلي في الغرفة إلى تركها هرباً من هذري الشعري المتواصل.

وحيث لم يكن شعر ديوان العرب يشفي تشوّقي لحداثة النص، في واقع كانت المكتبات فيه فقيرة، وكان دخول دواوين الشعر الحديث إلى الوطن محاصراً، والنشاط الثقافي معدوماً، فإن أرض الشعر قد تفتحت - في هذا المناخ المجدب- على ما تيسر الاطلاع عليه في بعض الصحف والمجلات المحلية والعربية، وعلى ما استطاعت الأذن التقاطه من نصوص شعرية جديدة عبر المذياع من البحرين إلى بغداد وحتى القاهرة.

وإذ أصف تجربة فردية فإنني أزعم أن تعميمها لن يجانب الصواب في شيء، وأن مفاعيل ذلك المناخ السائد هو الذي أعاق تبلور الحداثة الشعرية في تلك الفترة.

ولأن الأشياء لا تجد مسمياتها دفعة واحدة، فقد سعيت إلى مراكمة قصائدي في طيات كتب الهندسة منذ عام (68 م)، حتى تيقنت بحسي النقدي، بأن ما أكتبه قد أصبح يضارع - فنياً- ما تنشره صحفنا ومجلاتنا آنذاك لبعض الشعراء الشباب الذين سبقوني في النشر والقدرة على تطوير ممارسة الكتابة الشعرية، مثل إبراهيم الفوزان، وسعد الحميدين، وأحمد الصالح، ويوسف الحبيب، وحينها أخرجت نصوصي من مكامنها في عام 71م إلى واجهات الملاحق الأدبية في بلادنا.

وحين أستعيد ما قاله محمود درويش في قصيدة سرحان:

هنالك غيمٌ شديد الخصوبة

لا بد من تربة صالحة.

فإنني أستذكر بحنان لا حد له، تلك التربة الصالحة، التي وجدتها في جريده اليوم.

ولكن لقاء المطر بخصوبة الأرض قد قبضت عليه، وإلى الأبد، حينما تعرفت على محمد العلي عن قرب، حيث غدا "العلي" المعلم الأول لتجربتي الشعرية والثقافية والإنسانية بدون منازع.

وحين نمضي صوب منتصف السبعينات لنرى إلى منجز التجربة الشعرية التي خاضها عدد من الشعراء الشباب، فسوف أجترئ على الجزم بأننا لن نجد فيها - بمعايير النقد المتوفرة اليوم- تياراً شعرياً متبلوراً في خصائصه الفنية وملامحه الخاصة وإنما سنرى فيها تعدداً يشي بمرجعيات أصوات رواد الشعر الحر في العالم العربي، من خليل حاوي (لدى الحميدين)، ونزار قباني لدى (أحمد الصالح)، وإلى تداخل السياب وسعدي يوسف (عند الفوزان وعلي الدميني).

بيد أن تلك البدايات الواعدة كانت بمثابة الإعلان عن حسم خيار الأجيال الجديدة لكتابة الشعر الحر، متحدية مقاومة الذائقة السائدة.

وبالرغم من عدم توفر تلك التجربة الشابة على مقومات الأنموذج المؤثر في محيطه، إلا أنها كانت مصباحاً يضيء الطريق أمام الجيل الأحدث للبحث عن منجز رواد التفعيلة العرب، في مضانه الغنية، ومواطنه الأصلية.

الملحقات الأدبية

بحكم وظيفيتها الصحفية المنفتحة بالضرورة على مستجدات العالم، أسهمت الملحقات الأدبية في صحافتنا السعودية، في كسر عادية الذائقة، وفي إغناء حركة التثاقف مابين الداخل والخارج، وما بين المناطق المتباعدة في بلادنا.

وإذ لا يمكنني إغفال الدور الذي نهضت به ملحقات الصحف الكبرى، وخاصة ملحق جريدة الرياض وجريدة الجزيرة، إلا أنني هنا، سأشير إلى تجربة ملحق جريدة اليوم "المربد" الذي أشرفت على تأسيسه وتطويره منذ عام 75 م، حيث عملت مع بعض الأصدقاء على جعله نافذة تطل على التجارب الشعرية العربية الحديثة، وعلى الشعر العالمي المترجم، وعلى الرموز الأدبية الهامة في المحيط الجغرافي وخاصة في العراق والبحرين، كما عمل الملحق على نشر تجربة قصيدة النثر والاحتفاء بمبدعيها في المملكة، وشمل اهتمامه الشعر الشعبي الحديث، والفن التشكيلي، وتشجيع الأقلام الجديدة. وحين تركته مرغماً في عام 82 م، استمر الملحق في أداء دوره الهام - بإشراف عدد من المبدعين- حيث أصبح واحداً من أكثر المنابر الأدبية احتفاء بتجربة النقد الجديد وسجالها الغني الذي أشعله الغذامي مع عدد من النقاد، في منتصف الثمانينات.

وفي مناخ تلك الحاضنة "المربد"، التي كان يوجهها محمد العلي، تشكّل تيار الأدب الواقعي في الشعر والقصة والدراسة الأدبية في بلادنا، ولكنه تمايز عن إرث تيار الواقعية الوظيفية الفاقعة، حيث لم يحمل ذلك التيار في ساحتنا الثقافية، لواء وصاية مؤسسة أيديولوجية أو سياسية محددة، وإنما استفاد من الجذور الواقعية في مرجعيتها المعرفية، ومضى في فضاء الحداثة الإبداعية بما هي فعل اختلاف وتجريب وتجاوز.

الحداثة: صخب التسمية و"سعودتها"

تستدعي كلمة "الحداثة" إرثاً ثقافياً تأسس على توظيف الحديث النبوي الشريف القائل: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد"، ولذا فإن الكلمة تصطدم بحاجزها، ولو أن الصدف أسعفتنا بكلمة تختلف عن هذه، لكان رد الفعل الاجتماعي عليها أقل استثارة وأخف عنفاً.

تتضمن الحداثة، وفي إحدى تجلياتها، القطيعة مع الموروث، وذلك ما يستفز مخزون الذاكرة التي تنطوي على أجمل منجزات الإرث الشعري العربي، بما فيها تلك الجذور التي أشار إليها

"أدونيس" في شعر بشار، وأبي نواس وأبي تمام.

ينبني المصطلح في بعض جوانبه على مفهوم الهدم الدائم، للأشكال، والقناعات، وانقلاب تقاليد الحداثة على ذاتها - بحسب أكتافيو باث-، بما يحيل تجربة الكتابة الجديدة إلى مختبر شكلاني تأملي، منغلق على ذاته ومعزول عن بنيته النصية الكبرى المتوفرة على حركة مجتمع وفق شروط الزمان والمكان، ولذا فإن تيار الواقعية الأدبية، قد اطرح المصطلح جانباً.

ولأن الحرية ضرب من ضروب مواجهة الضرورة وفهمها أيضاً، فقد كان هناك تواطؤ - غير مكتوب - على أن مضمون الشعار، أهم من الشعار، وأن قدر الجغرافيا التي احتضنت المقدس، وقدر السياسة التي قامت على خطاب النص المقدس، قد اجتمعا في بنية اجتماعية وثقافية، عالية الحساسية إزاء المستجدات، وأن على المثقف الواعي بظروفه الموضوعية، مهما كان حماسه للجديد، أن يتعامل مع الحقائق القائمة كما هي، لا كما يريد لها أن تكون.

بيد أن ذلك التواطؤ الضمني، جرت تنحيته أو القفز عليه، في منتصف الثمانينات، حيث بلورت رحلة التراكم، ملامح النص المضاد، الذي لا بد أن يعلن عن اسمه، عبر تطور أدوات شعراء السبعينات، وبروز أسماء جديدة متميزة، وتزامن كل ذلك مع ولادة التيار لنقاده الذين انتظرهم طويلاً، فخرج النقاد الأكاديميون - من يومهم الأول- من رتابة الدرس الأدبي خلف أسوار الجامعة، إلى معترك الكتابة والسجال في قلب الحياة نفسها.

وقد دشن السريحي مرحلة المراجعة ومساءلة المنجز وتعرية البنى القارة فيه، وانطلق محتفياً بالمختلف والمفارق في تجربة الشعر الجديد، وتبنى حداثة شعرية تنزع إلى ما بعدها، وألقى الغذامي حجراً ضخماً في البحيرة الراكدة - بحسب العلي -، فأدخل النقد الألسني إلى غرفة العائلة، كما أسهم البازعي في تأصيل تيار الواقعية وإغنائه بثقافة النقد المقارن، وقد تميز بسعيه إلى خلق حالة من التعاطف الحميمية بين الشعرية الجديدة والجمهور.

أما الملحقات الأدبية، وخاصة ملحق عكاظ الأدبي، فقد احتفت بصوت عالٍ بهذا المخاض الصعب، وأطلقت عليه مسمى "الحداثة"، على الرغم من التباينات الواضحة في تحديد معنى المصطلح بين الأطراف العديدة التي أسهمت في تشكيل ملامحه، حيث لا يرى الغذامي - وفي معظم ما قرأته له، وخاصة في كتابيه، "الموقف من الحداثة"، و"النص المضاد" - إلى أن الحداثة "رؤية"، ولا يشير إلى الأبعاد الفكرية والفلسفية المتضمنة في تاريخية التسمية، وإنما يتعاطى مع المصطلح، باعتباره انفتاحاً وتحديثاً وتجديداً في لغة الشعر وفي بنيته النصية، كنص مغاير للسائد أو الموروث. ولعل ذلك الموقف يعود إلى طبيعة انشغالات المنهج الألسني نفسه.

أما سعيد السريحي فإنه يؤكد بشكل واضح، على أن الحداثة ليست كسر عمود الشعر وحسب، ولكنها "رؤية" تستهدف التأكيد على حرية الإنسان إزاء العالم، وأن علينا أن نسلك بالتعبير السبيل الذي سلكته الرؤيا في ضرورة التجاوز والاستعلاء على النسق" (الكتابة خارج الاقواس ص 44). بيد أن في اهتمامه الكبير بقصيدة النثر، وما تحتفي به دراساته التطبيقية من تأكيد على الجمالي المختلف، والشعرية الصافية، التي تجافي أي تعالق بينها وبين المعنى أو الوظيفية الاجتماعية، ما يسمح لنا باعتبار السريحي يؤسس لمنحى ما بعد الحداثة وليس إلى الحداثة، حسب توصيفي.

وأما محمد العلي، فإنه يتفق مع من يرى أن الحداثة "رؤية" للكون وللإنسان وللحياة، ولكنه يقف ضد مفهوم القطيعة مع التراث حيث يقول، في حوار لمجلة النص الجديد معه:

"الحداثة - كما أفهمها- مصطلح عربي تليد، قبل أن يكون مصطلحاً غربياً. الغرب ابتكر حداثته وفق مقاييسه.. (أما نحن) فقد أدخلنا عليها مفهوماً غريباً أحالها إلى شبح مخيف بالنسبة للغالبية من مثقفينا وقرائنا. هذا المفهوم، هو أن كل حداثة تبدأ من (القطيعة) مع التراث، وهذا مفهوم خاطئ

ومضلل.

إن الحداثة ليست شيئاً سوى (التطوير) والارتقاء على الذات، وانتقاء الإيجابيات في التراث، وتعميقها لإغناء الحاضر." (النص الجديد العدد الأول-أكتوبر- ص 93).

وقد ذهب سعد البازعي إلى أبعد من ذلك، حيث وسم كتابه النقدي الأول، بْ"ثقافة الصحراء"، للتدليل على عمق ارتباط شعراء الحداثة بهويتهم الخاصة من خلال توظيف الموروث الشعري العربي، والتراث الشعبي أيضاً في نصوصهم الحداثية.

ولذا يمكن الخلوص إلى أنه قد جرت محاولات خلاّقة أو ملتبسة لتبيئة المصطلح، او "لسعودته"، وفقاً للمرجعية المعرفية لكل من شارك في جدل الحداثة في المملكة، وقد كاد سعيد السريحي أن يظفر بتأكيد مشروعية "سعودة الحداثة"، حيث سعى لتضمين البيان الختامي لملتقى الشعر الخليجي بالرياض في عام 88م، ما يؤكد هذا الأمر، ولكن حرس ابن قتيبة ونواب المؤسسة المحافظة، قد حالوا دون ذلك.

وبإيجاز، يمكن الذهاب إلى أن هذا الالتباس أو التشتيت المفاهيمي في التعاطي مع المصطلح وتطبيقاته، ليس ظاهرة شاذة أو غريبة، لأن المصطلح نفسه متعدد حتى حدود التناقض، ولأن البيئة الثقافية في المملكة، شديدة التعقيد بما يطال التعبير عنها ليصبح أكثر تعقيداً، عند مقاربة مثل هذا المصطلح الشائك.

غير أن صدمة المصطلح، وصراع المرجعيات المعرفية في حقل النقد الأدبي، قد خلقت مناخاً خصباً للحراك الثقافي والاجتماعي أيضاً، حول ظاهرة التجديد والحداثة، كما أنها حسمت الصراع حول مشروعية قصيدة التفعيلة، وأنتجت مرحلتها عدداً من أهم النصوص المتميزة، مثل "تضاريس" و"تغريبة" الثبيتي، و"هواجس" الصيخان، و"خديجة" محمد جبر الحربي، و"خبت" علي الدميني، التي يمكن إضافتها إلى ما أبدعه محمد العلي، والشعراء الشباب من نصوص تأسيسية لخطاب الحداثة الشعرية في بلادنا.

*　　*　　*

المراجع

- التواصل المباشر مع الشعراء: فرج بيرقدار، علي الدميني، منصور راجح، والروائي محمود سعيد
- دواوين الشعراء: الحطيئة (دار الكتاب العربي)، المعتمد بن عباد (دار الكتب والوثائق العلمية)، ابن زيدون (دار صادر)، أبي فراس الحمداني (دار صادر)، الحلاج (دار صادر)، توفيق زياد (دار العودة)، سميح القاسم (دار العودة)، محمود درويش (دار العودة)، بدر السياب (دار العودة)، محمد الماغوط (أعمال الماغوط- دار المدى)، مظفر النواب (دار قنبر).
- علي بن الجهم حياته وشعره، دار الكتب العلمية
- الآثار الكاملة لغسان كنفاني - مؤسسة الأبحاث العربية 1993
- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ- دار العلم للملايين 1997
- حياتي، أوراقي لنوال السعداوي - دار الآداب 2001
- أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر جزء 1، 2، دار صادر.
- الموقع الالكتروني لجهة الشعر

لطفي حداد

- أديب سوري مقيم في ولاية إنديانا، الولايات المتحدة.
- عضو في منظمة العفو الدولية، جمعية حقوق الإنسان، جمعية الأدباء العرب الأميركيين، الجمعية العالمية ضد التعذيب، رابطة القلم الأميركية.

صدر له:

- الحبّ يطرق بابي: شعر
- حضارة الحب: شعر
- ألعنكِ أيتها التمائم المقدسة: شعر
- هذا الوطن لم يعد لنا: رواية
- هنا الأنبياء يُقتلون: رواية قصيرة مترجمة إلى الإنكليزية
- الغرباء: رواية قصيرة مترجمة إلى الإنكليزية
- نبوّة في صحراء: رواية، مترجمة إلى الإنكليزية
- الأجراس تُقرع في بيت لحم: رواية
- حارة الطيبين: رواية
- الأعمال الروائية الأولى
- يغزل حبرك دنتيلا المنفى: شعر

أنثولوجيات:

- أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر: جزء 1 في الشعر.
- أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر: جزء 2 في النثر.
- أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر: جزء 3
- أنثولوجيا الأدب العربي الأميركي المعاصر: مختارات أدبية منقولة إلى العربية.

كتب فكرية:

- الإسلام بعيون مسيحية.
- يسوع التاريخ
- رياض الترك، مانديلا سورية

للتواصل:

WWW.LOTFIHADAD.COM

انتهى

---

(1) الشاعر العاشق الذي أحب عفراء.

(1) كلمة إشفاق باللهجة العراقية.

(*) أوجين شولجن: روائي سويدي، رئيس لجنة السجن في منظمة "بن".

(*) ايجنس: حي في مدينة ستافانجر النرويجية.

(*) عليشه حي في الرياض، يضم سجن المباحث العامة، حيث يعتقل الشاعر، أما مطلع البيت، فكما هو معلوم للمتنبي.

(**) تتضمن إحدى التهم الموجهة للشاعر، اشتراكه في إثارة الفتنة، والتحريض ضد القيادة عبر مشاركته في البيانات والخطابات المطلبية.